
البؤساء
تأليف
فيكتور هيجو
تعريب شاعر النيل
حافظ إبراهيم
دراسة وتقديم
عادل عبد المنعم أبو العباس

البؤساء

لـ.. فيكتور هوجو

تعريب

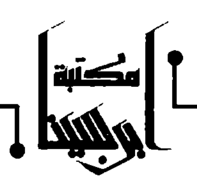
حافظ إبراهيم

شاعر النيل

دراسة وتقديم

عادل عبد المنعم أبو العباس





للنشر والتوزيع والتصدير

نافذتك على الفكر العربي والعالمي من خلال ما تقدمه لك من روائع الفكر العالمي والكتب العلمية والأدبية والطبية ونوادر التراث واللغات الحية. شعارنا: قدم الجديد..

وبسعر رخيص

يشرف عليها ويديرها

مهندس

مصطفى عاشور

٧٦ شارع محمد فريد - النزهة - مصر الجديدة - القاهرة

تليفون: ٢٦٣٧٩٨٦٣ - ٢٦٣٥٣٣٨٢ فاكس: ٢٦٢٨٠٤٨٣

Web site: www.ibnsina-eg.com

E-mail : info@ibnsina-eg.com

هوجو، فيكتور ١٨٠٢ - ١٨٨٥

البؤساء/ لـ.. فيكتور هوجو؛ تعريب حافظ إبراهيم؛ دراسة وتقديم عادل عبد المنعم أبو العباس.

ط١- القاهرة، مكتبة ابن سينا، ٢٠١٤.

١٧٦ ص، ٢٤ سم

تدمك ٥ ٠٩٠ ٤٤٧ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص الفرنسية.

أ- حافظ إبراهيم، محمد حافظ بن إبراهيم فهمي، ١٨٧١- ١٩٣٢ (مترجم)

ب- أبو العباس، عادل عبد المنعم (دارس ومقدم)

ج- العنوان. ٨٤٣

رقم الإيداع: ٢٠١٤/١٩٧٤١

الترقيم الدولي: 978-977-447-090-5

تصميم الغلاف: إبراهيم محمد إبراهيم

الإخراج الفني: وليد مهني علي

مطابع العبور الحديثة - القاهرة

تليفون: ٤٦٦٥١٠١٣ فاكس: ٤٦٦٥١٥٩٩



تقديم

الحمدُ لله وحده، وصلى الله وسلم على من لا نبيَّ بعده، وعلى آله وصحبه... وبعد...

فبين يديك رواية «البؤساء» التي كتبها الأديب الفرنسي الكبير «فيكتور هوجو»، والتي عرَّبها ولخصها الشاعر العربي البليغ «حافظ إبراهيم» المعروف بـ«شاعر النيل».

والعجيب أن بين المؤلِّف والمعرِّب صلة، وإن تباعدت الديار، واختلفت الأزمنة، فكلاهما مَعْنيٌّ بالأدب والشعر، وكلاهما بائس!

وهذا ما يدعونا إلى أن نعرِّف بسيرتيهما بصورة موجزة، لنلج بعد ذلك في تعريف «البؤس والبؤساء»، من خلال المعنى والمبنى، مناقشين مع النقاد والمهتمين بالرواية قضية بؤس حافظ إبراهيم، وقضية تعريبه وتلخيصه للرواية والتي دار حولها جدل طويل بسبب اتهامه بأنه كان لا يتقن اللغة الفرنسية، مدللين- من خلال النقاد كذلك - أهمية ما قام به «حافظ» من تعريب وتلخيص بلسان عربي مبين، مرددين مع العقلاء أنه «حين تتوقف حركة النقد تتوقف حركة الإبداع»، وهذا ما لا نرجوه.



التعريف بـ«فيكتور هوجو»



- فيكتور هوجو... أديب وشاعر فرنسي معروف، ولد في شرقي فرنسا سنة 1802م، في منطقة «الدانوب».
- تلقى تعليمه في «باريس»، و«مدريد» بأسبانيا.
- كتب أول مسرحية له وهو في سن الرابعة عشرة من عمره، وحين بلغ سن العشرين نشر أول ديوان من دواوين شعره، ثم نشر أكثر من خمسين رواية خلال حياته منها: رواية «عمال البحر» و«الحب الكبير»، و«مذكرات محكوم عليه بالإعدام»، و«الضاحك الباكي»، و«الملك يلهو» وغيرها.
- **من أقواله:**

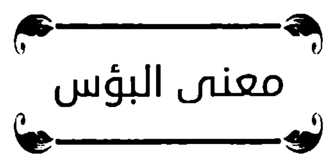
- من الممكن مقاومة غزو الجيش ولكن ليس من الممكن مقاومة الأفكار.
- لا قوة كقوة الضمير ولا مجدَ كمجد الذكاء.
- الشرق عالم ساحر وهو جنة الدنيا، وقد وهب الله أرضه زهورًا خاصة.

محطات في حياة حافظ إبراهيم



- ولد «حافظ إبراهيم» سنة 1872م في ذهبية كانت راسية على شاطئ النيل بالقرب من قناطر ديروط حيث كان والده المهندس «إبراهيم فهمي» أحد المهندسين المشرفين على هذه القناطر.
- كانت والدته السيدة «هانم بنت أحمد» من أسرة تركية محافظة عريقة تسكن «حي المغربلين» بالقاهرة.
- عاش في كنف أبيه أربع سنوات، مات بعدها الوالد، فعادت به أمه إلى ديروط، وتولى أمره خاله المهندس «محمد نيازي».
- أدخله خاله المدرسة الخيرية بـ«حي القلعة» بالقاهرة، ثم دخل مدرسة المبتديان، ثم المدرسة الخديوية الثانوية.
- نُقِل خاله إلى طنطا مهندسًا للتنظيم، فذهب «حافظ» ووالدته وأخته «عائشة» معه، والتحق بمدرسة «طنطا الثانوية»، ولكنه انصرف عن التعليم، وكان يذهب إلى «المسجد الأحمدي»، ليجلس في حلقات الدرس.

- اشتغل في طنطا بمكتب أحد المحامين، وعمل محاميًا بعض الوقت.
- ألحقه زوج أخته «عائشة» وهو ضابط - بالمدرسة الحربية.
- تخرج «حافظ» في المدرسة الحربية سنة 1891م ضابطًا في الجيش، ثم نقل إلى «الشرطة» ثم أعيد إلى الجيش، وخدم في السودان مدة سنتين، إلى أن فصل من الجيش.
- تزوج بعد عودته من السودان سنة 1906م، ولكن زواجه لم يدم أكثر من أربعة شهور، وتوفيت والدته سنة 1908م.
- عين رئيسًا للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية سنة 1911م، وظلَّ بها إلى فبراير سنة 1932م حيث أحيل للمعاش.
- كان يعيش مع زوجة خاله التي كانت تدبر بيته وترعى شئونه وقد توفيت قبله بثلاث سنوات.
- طلب له «أحمد حشمت باشا» وزير التعليم «المعارف آنذاك» رتبة البكوية من الدرجة الثانية فأنعم عليه بها سنة 1912م.
- توفى «حافظ إبراهيم» في بيته الصغير بضاحية الزيتون في القاهرة في الساعة الخامسة من صباح الخميس 21 يوليو سنة 1932م.
- كان رحمه الله شاعرًا مجيدًا، وأديبًا فذا، ومحبًا للشعب والناس حتى لقب بـ«شاعر الشعب» و«شاعر النيل».



معنى البؤس

إذا كانت كلمة «البؤس» لم ترد في القرآن الكريم، فقد وردت في السنة المطهرة ودارت على محور المادة، وحملت معنى الفقر والعوَز والمتربة.

فقد روى مسلم في الصحيح عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بأَنْعمَ أهْلِ الدنْيَا منْ أهْل النَّار يومَ القيَامَة فيصْبغُ في النَّار صَبغَةً ثمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّبكَ نَعيمٌ قَطُّ؟ فيقول: لا والله يا رَبِّ، ويُؤْتَى بأَشَدِّ الناس بُؤسًا في الدنيا منْ أهْل الجنة فيُصْبَغُ في الجنة صَبغَةً، فيُقَالُ له: يا ابْنَ آدمَ هل رأيتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّبكَ شدةٌ قطُّ؟ فيقول: لا واللهِ يا رَبِّ ما مرَّ بي بؤس قطُّ ولا رأيتُ شدَّةً قط».

فالبؤس إذنْ مسألةٌ مادية بَحْتَة لا تخرجُ عن إطارِ الفقر والعوز والاحتياجُ والجوع، بشرط أن يشتدَّ ذلك على صاحبِه، وهو المعنى الذي تقره اللغة، وكذلك هو الذي يستعمله الناس قديمًا وحديثًا.

والألفاظ التي وردت في القرآن هي لفظة «البائس»، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ (الحج:28) وكذلك وردت كلمة «البأساء» في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ (البقرة:177) وهي تعني أيضًا الجوع والفاقة والعوز والفقر.

هل كان حافظ من البؤساء؟

بعد أن وضح من معاني البؤس: الفقر، والعوز، والجوع، والحاجة، ناقش النقاد مسألة «بؤس حافظ إبراهيم» لاسيما وأنه بدأ الرواية بأن مؤلفها بائس، ومعربها - ويعني نفسه - بائس وأنه قبل هذا و ذاك أهداها إلى الأستاذ الإمام محمد عبده «مؤئل البائس، ومرجع اليائس...».

فهل كان حافظ إبراهيم من البائسين كما قال؟

بؤس حافظ مُخْتَلَفٌ في معناه بين النقاد والمترجمين لحياته، فبينما يذهب بعضهم إلى بؤس الفقر والمتربة، نظرًا لبعض الفترات التي عاشها سواء في طفولته أو تلك التي عانى فيها بعد فَصْله وطرده من الجيش وبحثه عن وظيفة. بينما يرى آخرون أن حافظًا كان ميسور الحالِ في غالب لحظات حياته، وأنه كان عنده ما يفيض عن حاجته إلا أنه كان لا يدخر شيئًا، ولا يمنعُ أحدًا سأله، فكان من غير المدبرين.

ويدلل هذا الفريق على عدم كون حافظ من «البؤساء» من خلال حديث أقرب المقربين عنده صديقه الحميم «عبد العزيز البشري» الذي يجسد هذا الاتجاه في قوله:

كان «حافظ» أجْود من الريح المرسلة، ولو أنه ادَّخر قسطًا مما أصابت يده من الأموال لكان من أهل الثراء، على أنه ما فتئ طول أيامه يشكو البؤس حتى إذا ما طالت يده «الألف جنيه» جُنَّ جنونه، أو ينفقها في يوم إن استطاع؟! فإذا استغلقت عليه أحيانًا وجوهُ السُبل لإتلاف الأموال عُدَّ ذلك من معاكسة الأقدار».

كما أن أصحاب هذا الاتجاه يستدلون على أن بؤس «حافظ» لم يكن يعني فقره وعوزه لأنه كان يتقاضى راتبًا شهريًا يصل إلى «أربعة جنيهات» وهي في هذا الزمن

تكفي لمجموعة من الأسر أكثر من شهر. بل إنه عندما أحيلَ إلى الاستيداع من الجيش ذهبَ إلى الشاعر الكبير «محمود سامي البارودي» ومدحه بقصيدة دالية وقال له فيها:

أتَيتُ ولي نَفْسٌ أطلتُ جِدَالَهَا ... سيقضي عليها كَرْبُهَا اليومَ أو غدَا

فإنْ لمْ تُداركها بفضْلٍ فقدْ أتَتْ ... تُـودِّعُ مَوْلاهَا وتَسْتَقبلُ الرَّدَى

فلما سمع «البارودي» هذين البيتين بكى بكاءً حارًا، وناشد حافظًا أن يحذف هذين البيتين من القصيدة، ثم نهض من مجلسه، وعادَ إلى «حافظ» فناوله مظروفًا به «أربعونَ جنيهًا ذهبًا».

ولا شك أن «أربعين جنيهًا ذهبيًا» كانت تعد ثروة كبيرة، أضف إلى هذا ما كان يحل عليه من مصادر عديدة من خلال الأسر الكبيرة التي كان على صلة بها مثل «أسرة أباظة» و«أسرة البارودي» و«أسرة محمود سليمان».. و«أسرة خشبة» وغيرهم.

وهذا ما جعل الأستاذ «محمود شوكت التوني» يكتب مقالًا بعنوان «بؤس حافظ» يرفض فيه أن يكون من نوع البؤس المادي من جوع وظمأ، وحاجة إلى المال، ويقرر أنه بؤس النفس الحزينة التي تقصفت فيها الآمال، وعطشت فيها الأماني، بؤس الشاعر الإنساني يتفطر ويبكي لمصاب الإنسانية المتجدد على تجدد الأيام والليالي، بؤسُ المصري يجدُ وطنَهُ يتآكلُ مجده، وتنحَلُّ أخلاقه...».

والذي دفع الأستاذ «التوني» إلى هذا التفسير لبؤس «حافظ» أنه عندما قررت وزارة المعارف رواية «البؤساء» في مدارسها أعطت حافظًا «ألفين من الجنيهات»، فما كان منه إلا أن أنفقها في شهر واحد، مما جعل الأستاذ «أحمد أمين» يقول: «لو كان حافظ تاجرًا لأضاع رأس ماله في أول شهر ثم أعلن إفلاسه، ولو وضعَ ميزانية دولة لجعل الإنفاق كله في أيامها الأولى ثم لا إنفاق».

فهو بهذا المعنى لا يمكن أن يقرن بطبقة «البؤساء» من أمثال «عبد الحميد الديب»، و«إمام العبد» وغيرهما.

وقفة مع الرواية

«البؤساء» رواية فلسفية دينية تمثل نهوض الإنسان من عثراته بالندم والتوبة بعد طولِ صراع مع النفس. ويمثل هذا الجانب أحد الأبطال وهو «جان فالجان» الذي زُج به في السجن مع الأشغال الشاقة لأنه سرق أرغفة معدودة

لإطعام أبناء أخته اليتامى، وهرب من السجن وحاول إعادة بناء حياته على أساس شريف، محسنًا إلى «البؤساء»، محاولًا رفع الظلم عن هذه الطبقة من الضعفاء.

وقد اتخذ «فيكتور هوجو» من بطله رمزًا لشعب «باريس» في تصديه للمظالم ونضاله في سبيل كرامته، وكأنه يعني بـ«جان فالجان» باريس، ويعني بها البؤساء والمقهورين في العالم بأسره.

ولم ينس «فيكتور»، «فانتين» التي سحقها الظلم، والشرطي «جافير» ممثل الانصياع المطلق للواجب.

والخلاصة - كما يقول الدكتور جبور عبد النور:

إن رواية البؤساء عمل أدبي جليل، يعد شاهدًا على عصر من النزاع السياسي والتنوع الاجتماعي، الذي يحدث في عصور مختلفة متقاربة كانت أو متباعدة.

حافظ وتعريب الرواية

جلبت ترجمة رواية «البؤساء» المتاعب لحافظ إبراهيم؛ فهو عند الكثيرين لا يعرف الفرنسية ولا أية لغة أخرى غير العربية.

وهو عند البعض الآخر يعرف الفرنسية معرفة ضئيلة لا يمكن أن يصل من خلالها إلى عالم الترجمة، وأنه في كتبه التي قيل إنه ترجمها كان يُعاوَن من العارفين بها.

وعلى سبيل المثال ترجمَ الشاعر «خليل مطران» كتاب «الموجز في علم الاقتصاد» للفرنسي الشهير «بول» واشترك حافظ في تعريبه مع خليل مطران، واتفق الجميع على أن النصيب الأوفى في فهم النص الفرنسي كان لـ«خليل» وأن مشاركة «حافظ» كانت لا تتعدى عملية التعريب والصياغة.

وأن رواية «البؤساء» قد دَلَّه عليها أستاذه الإمام «محمد عبده» بل وسانده في فهم النص الفرنسي وساعده في تعريبها بعد أن كان الإمام قد ألمَّ باللغة الفرنسية أثناء وجوده في فرنسا مع جمال الدين الأفغاني.

ويرى الدكتور/ محمد مندور أنه لابُدَّ قد استعان أيضًا بغير الأستاذ الإمام ممن يجيدون الفرنسية.

إنَّ الذي قصد إليه «حافظ» لم يكن ترجمة «البؤساء» وإنما تعريبًا لأجزاء منها، وإن أصَرَّ هو - رحمه الله - على اعتبارها ترجمة كترجمة «ابن المقفع» لـ«كليلة ودمنة».

وفي ذلك يروي الأستاذ «المازني» حادثة طريفة جرت له مع «حافظ» وكان «المازني» ما يزال طالبًا في مدرسة المعلمين العليا، وقد أوفده أحد أصدقائه إلى «حافظ» في أمر قضاهُ لهُ، يستطردُ «المازني» فيقول:

«يظهرُ أن حافظًا استصغرني في نظره، فكان يخاطبني بلفظ «ياشاطر» فساءني ذلك، وقلتُ له قبل أن أنصرف شاكرًا: لقد قرأت ترجمتك «البؤساء»، ولا شك أنه كتاب نفيس إذا نظرنا إلى اللغة، ولكن لا شك أيضًا أنه ليس بترجمة بالمعنى الصحيح، وأحرى به أن يُسمَّى تلخيصًا.

فغضب «حافظ» وقال لي: «تعيبُ «البؤساء» يا ولد!

فقلت - وقد سرني أن أغضبته: دع الولدَ والبنت فإنك لا تخاطب «جرسون المقهى» وأنا لم أعِب «البؤساء» وإنما عبتُ الترجمة لا لغتها، فسكتَ قليلًا وهو يدخن الشيشة ثم قال: أجبْلَكَ شيشة؟!

وكتب أنيس منصور في الأهرام 1982/8/8:

يوم أن أعادَ حافظ صياغة رواية «البؤساء» حملها إلى العقاد وكان شديد الفزع، فهو لا يعرف أية لغة أجنبية، ولا يعرف بالضبط ما الذي سيقوله النقاد.

ولكن الأستاذ «العقاد» طيَّب خاطره وقال له: لقد اجتمع بؤساء كثيرون في هذه الرواية: أنتَ، والمؤلف، واللغة العربية، وكل ناقد يريد أن يقول الحق... لقد جنيت على كل هؤلاء يا سيدي! فضحك «حافظ» قائلًا: هل ترى أن أنتحرَ في بيتك؟!

فأجابه «العقاد»: بل أفضل أن تعيش نادمًا على هذه الجريمة الأدبية.

شهادة أنطون الجميل

بينما يحدثنا «أنطون الجميل» صديق «حافظ» في مقال له عن الجزء الثاني من «البؤساء» عن الجهد الذي بذله في ترجمته فيقول: ترجمَ حافظ هذا الجزء كما

ينظمُ قصيدة، فنسق عباراته كما ينسق قوافيه، وتخيَّر مفردات نثره بما اشتهر عنه في تخيُّر مفردات شعره، ولكمْ لقيتُهُ وهو ينشد لي صفحةً من «البؤساء» كما ينشد مقطعًا من شعْره الجزل، إذا رجعنا إلى حكم حافظ نفسه قد نجده يؤثر بعض صفحات ترجمته على بعض مقاطعِ ديوانه، لأن تلك قد كلفتْهُ قدرَ ما كلفتهُ هذه، ومعزَّةُ الشيء كما يقولون بقدر ما يكلِّف وكذلك قيمته.

ويرى الدكتور محمد مندور أن هذا الحرصَ الشديد على تجويد العبارة قد ساقَ حافظًا أحيانًا إلى التكلف والاصطناع، فلم يراع دائمًا مقتضى الحال حتى نراه يُجْري الحوار على لسان الخدم بلغة عويصة متكلفة على النحو الذي ينطبق عليه نقد أحد أشخاص الرواية ذاتها عندما «يصف أولئك الذين إذا ذكروا الزوج قالوا: البعل، والزوجة قالوا: الحليلة، والملك قالوا: رب التاج والصولجان. لكنه من جهة أخرى استطاع في أحيان كثيرة أن يُلْبِسَ تصوير «فيكتور هوجو» ثوبًا عربيًا جميلاً مثل قوله في وصف الندم:

«والفكر كالبحر فمن استطاع أن يَرُدَّ البحرَ عن العود إلى شاطئه استطاع أن يردَّ الفكر عنِ العود إلى مناطه، وعلة البحر في ذلك يعرفها الملاح وهي المدُّ والجزْر، وعلة الفكر يعرفها المذنب وهي الندم، فسبحان من يثير النفسَ كما يثيرُ البحرَ المحيطَ».

وأيًا ما يكونُ الحكم على هذه الترجمة أو التعريف، فإنَّ «البؤساء» لحافظ إبراهيم تحتفظ بلا ريب بفضل خصائص صياغتها، وروعة أخيلتها ومعانيها وثوبها العربي الجميل بقيمة أدبية خالدة.

الرافعي ورواية البؤساء

ولعل هذا ما جعل شيخ الأدباء «مصطفى صادق الرافعي» يثني على رواية البؤساء وعلى «ترجمة» أو قل «تعريب» حافظ إبراهيم لها بقوله:

«إنك في «البؤساء» ترى مع الترجمة صنعةً غير الترجمة، وكأنما ألَّف «هوجو» هذا الكتاب مرَّةً، وألفه «حافظ» «مرتين» إذ ينقل عن الفرنسية؛ ثم يفتن في التعبير عما ينقل، ثم يحكمُ الصنعة فيما يفتن، ثم يبالغ فيما يحْكم؛ فأنت في كتابه في لغة الترجمة، ثم في بيان اللغة، ثم في قوة البيان، وبهذا خرج الكتاب وإن مترجمه لأحقُّ به في العربية من مؤلفه، وجاء وما يستطيعُ أحد أن ينسى أنه لحافظ دون سواه.

وتلك طريقة في الكتابة لا يُستعان عليها إلا بـالأدب الغزير، والـذوق الناضج والبيان المطبوع؛ ثم بالصبر على مطاولة التعب ومعاناة الكدّ في تخير اللفظ وتجويد الأسلوب وتصفية العبارة؛ فلقد ينفقُ الكاتبُ وقتًا في عمرَ الليل ليُخْرِجَ من آخره سطرًا في نور الفجر.

وبهذا الصنيع جاءت صفحات «البؤساء» على قِلتها كشباب الهوَى؛ لكل يوم منه فجره وشمسه، ولكل ليلة قمرها ونجومها».

وأعتقد أن شهادَة «الرافعي» رحمه الله كافية في بيان الأسلوب البلاغي البياني الذي تفوق فيه حافظ إبراهيم.

وفي الختام، لم يكن لي من عمل في هذه الرواية، سوى هذه الدراسة، مع توضيح بعض المعاني التي لم يفسرها شاعر النيل حافظ إبراهيم وضبط ما يحتاج إلى ضبط وفق قواعد الكتابة العربية، والله أسأل أن يزيل عن عالمنا العربي الإسلامي عوامل «البؤس والشقاء» الذي ألمَّ به في هذه المرحلة الحرجة، فهو على كل شيء قدير.

أبو أحمد

عادل عبد المنعم أبو العباس

القاهرة- مصر 1435 هـ- 2014م





الجزء الأول



إلى الأستاذ الإمام

إنكَ مَؤئلُ البائسِ ومرجعُ اليائسِ، وهذا الكتابُ - أيدك الله - قد ألمَّ بعيش البائسينَ وحياة اليائسين، وضعه صاحبُه تذكرة لولاة الأمور، وسمّاه «كتاب البؤساء»، وجعله بيتًا لهذه الكلمة الجامعة وتلك الحكمةِ البالغة «الرحْمةُ فوقَ العَدْلِ».

وقد عَنَيْتُ بتعريبهِ لما بين عَيْشي وعيش أولئك البائسين من صلة النسب، وتصرفتُ فيه بعض التصرف، واختصرتُ بعض الاختصار، ورأيتُ أن أرفعه إلى مقامكَ الأسنى، ورأيكَ الأعلى لأجمعَ في ذلك بين خِلالٍ ثلاث:

- أولها: التيمنُ باسْمِكَ والتشرفُ بالانتماء إليك.
- وثانيها: ارتياح النفسِ وسرور اليَراعِ برفع ذلك الكتاب إلى الرجل الذي يعرف مهرَ الكلام ومقدار كدِّ الأفهام.
- وثالثها: امتداد الصلةِ بين الحكمةِ الغربية والحكمة الشرقية بإهداءِ ما وضعَهُ حكيمُ المغرب إلى حكيم المشرق.

فليتقدمْ سيدي إلى فتاهُ بقبولهِ، واللهَ المسئولُ أن يحفظَهُ للدنيا والدين، وأن يساعدني على إتمام تعريبهِ للقارئين.



مقدِّمة



كلمةٌ في التَّعْريب

هذا كتاب البؤساء، وهو خير ما أُخرج للناس في هذا العهد، وضَعَهُ صاحبُهُ وهو بائسٌ، وعرَّبهُ معرِّبُهُ وهُوَ بائسٌ، فجاءَ الأصْلُ والتعريبُ كالحسناء وخيالها في المرْآة، وضعه نابغةُ شعراء الغرب وهو في مَنفاه، وعَرَّبهُ كاتبُ هذه الأسطرِ وهو في بَلْوَاهُ.

ولولا أنني أشربُ بالكأس التي كان يشربُ بها ذلك الرجل العظيم، لما وصلَ مبلغ علمِي إلى مبلغ علمه، ولما سبحَ يراعي[1] في قطرة من سيول قلمه، ولو أن لي قلمًا من أعوادِ أشجاَر الجنَة، وصحيفة من صحف إبراهيم وموسى، وقد تَلقتني البلاغة من كل جِهة بوجهها، فسموتُ إلى لُبَاب مصَاصها[2] وأخذت منها حاجتي لما حدَّثتني النفسُ بتعريبِ ذلك الكتاب، لولا اتحادُنا في الألم وتشابهَنا في الشقاء.

فلقد كنتُ أنظر فيه نظرة المنَجِّم في الميقات، وأستوزع[3] الله بيان تلك المعجزات، حتى إذا نفذ الفكر إلى ماَ وراء سطوره، واهتدى الخاطر إلى مكامن حكمه، دعَوتُ إليَّ أمّ اللغات[4] وعملت على التوفيقَ بين هذه الغادة الشرقية وتلَك الفتاة الغربية، وعمدتُ إلى مَدّ صلة النسب بين الغايتين اللتين انتهتْ إليهما بلاغةَ العرب وبلاغةُ الإفرنج، فإذا شَمستْ إحداهما وازورّ جانبُها أغريتُ بها سلطانَ العقل، فلا يزالُ بها يُرَوِّضها كما يُروِّضُ الراكبُ الصعبةَ حتى تسكن إلى أختها، وترتاح إلى جوارِها، ولم تزل تلك حالي أدخل بينهما دخول المرود بين الجفن والجفن، وأمشي بينهما مشية الحكيم في الصُّلح بين القوم والقوم، حتى ائتلف الذوقان،وامتزج الرُّوحَان، وضمت شمسيهما[5] طَفاوة، واحتَوت بَدْرَيْهمَا هالة، وخلعت الأولى على الثانية جلالها، وأعارتْها الثانية نضارتها وجمالَها، وأصَبحت تلك المعاني الإفرنجية بعد أن صقلها اللسانُ المبينُ، وجندرها[6] الذوق الشرقي وهي تسكن في هذه المغاني العربية.

---

(1) اليراع: القلم يتخذ من القصب.

(2) المصاص: الخالص من كل شيء.

(3) دعاء بالزيادة.

(4) أم اللغات: اللغة العربية.

(5) معنى الطفاوة: الجمال الشديد.

(6) الجندرة: إعادة الرونق بعد ذهابه، يقال: صقله بالجندرة والكتاب: أي أمر بالقلم على ما درسَ منه ليتضح ويتبين.

ولم يقع للناطقين بالضَّاد حتى اليوم شيء من مؤلفات ذلك الحكيم، وهم أحوج الناس إلى معرفة أسرار الحَياة والانتفاع بمثل ذلك الفكر الذي كنتُ أراه يسابحُ الأجرام في أفلاكها، إذا هو يُدَارجُ النمالَ في مَدَابها، وبينا ألمحهُ بين ذروة العَلَم وشرفة القَصْر إذا هو بين قعْر البحر وعَقيق النهر، فكم أفلتَ منْ هَجيرة واختبأ في خميلةَ، فمن تلهب جمرة القيْظ في صميم القائلة[1] إلى تَرواحَ النجم في الروضة، ومن التردد بين زفير العاشق وحرقته إلى التمشي بين نفس الحبيب وريقته. ولا يزالُ الكُتَّابُ في كل أمة يلتمسون أن يعقل عنهم ما أُلهموا أن يدخلوه في مؤلفاتهم من الحكم والأمثال، فيُصدحُونَ عنها الشرور بأقلامهم كما يصدحُ المطر، ويستهبطون الحكمة من سمائها فيسكنُونَها بين سطورهم، ويُنشدُون لذلك الأمثال فينثرونَها فيما يتخيَّرونه من الأقاصيص التي تدعو إلى العظة، وتَصْفَحُ النفوس عن ركوب سُبل الغواية.

ومن تلك الأقاصيص ذلك الكتاب الذي أُعَاني تعريبهُ اليوم، فلقد قَصَّ علينا أحسنَ القصص، فكان مثله فيه كما قَال عن نفسه مثل المنجم الذهبيّ لا تصل الأيدي إلى تبره حتى تكادُ تحصى ثراهُ عَدًّا. وقد اختارَ الله لي أن أعربه فاستعنته فأعانني، واستهديْتُه فهداني، وسلختُ اثنى عشر هلالا في تعريب تلك الصفحات التي تَرَوْنَها اليومَ، وحاولتُ أن أصلَ بها تلك الرَّحم التي قطعتها يدُ الترجمة التجارية بيننا وبين أولئك الرجال الذين تجرَّدُوا لتعريب أساطير الأولين فَوَفَّوْهَا قسطها من الإتقان، وألبسوها من البهجة لباسًا ترضاه اللغةُ ويرضاهُ أبناؤها. أرأيتكَ أيها الناظرُ في كتاب «كليلة ودمنة»، أكان يقوم بنفسك وأنت تذوق حُلْوَ تركيبه، وتستمرئُ لذة أسلوبه أنَّ عبد الله بن المقفّع قد عرَّبهُ عن الفارسية لو لم يصل خبرُ ذلك إليكَ؟ فسقيًا لتلك الأقلام التي عرَّبَت فأعربت، وسطرت فأعجبت، وواهًا[2] لهذه اللغة التي أصبحت بين أعجميّ ينادي بوأدها، وعربيّ يعملُ على كيدها.

---

(1) أخرجها مثلًا، وكان من وساوس العرب إذا خشوا سقوط المطر أن يعمد أحدهم إلى خيمته فيرسم حولها دائرة ويتلو رقية يعلمها رجاء أن يخطئ المطر في سقوطه ما يكون ضمن تلك الدائرة. وقد كانت هذه الصفة مما استعلن به المتنبي على تأييد دعواه في النبوة.

قلت: الرأي الصواب أن المتنبي لم يدع النبوة، وقد ذكرتُ ذلك في كتاب (أدعياء النبوة)، ورددتُ على القائلتين بالإثبات، انظر (أدعياء النبوة) تأليف عادل عبد المنعم أبو العباس - مكتبة القد (ص400).

(2) وَاهًا: كلمة تأوه تعني الحسرة.

ومن نظرَ في بطونِ تلك الكتب التي تُتَرْجَمُ اليومَ رأى هذه الغادةَ الشرقيةَ وهي على فراش موتها تندبُ خدرًا قد ابتذلته الأقلام، وسترًا قد هَتكتهُ الأوْهَام، وقد فَتحُوا لها في بطون هذه الكتب قبورًا، وخاطوا لها من تلك الصحف أكفانًا، وهيأوا من هذه الأقلام أعوادًا، وما هو إلا أن يثني ذلك الغربيّ بدعوته حتى يسرعَ إلى جنازتها أهْلُهَا وذوو قَرابتها.

اللهمَّ أنتَ تعلمُ أننا نعلمُ موضعَ الداء وفينَا الطبيبُ الماهرُ، ونسمعُ ذلكَ النداءَ ومنا المعينُ الناصر، اللهم إن هذا خذلانٌ منكَ فأدركنا برحمتكَ وهيئ لنا من أمرنا رَشَدًا. أيكونُ بين أبناء اللسان العربي مثلُ من أرَى اليومَ من فحول البلاغة وملوك الكلام، وأنَا لا أعرفُ من هذه الأزهارِ قديمها وحديثها غيرَ أسماء معدودات، ولا أكادُ أجيدُ وصفَ قصر من القصورِ أو آلةَ من الآلات، ومخترَع منَ المخترعات، إلا ما وقعَ تحت نظر العرب في تلك الجزيرة الجرداء، وما سمتْ إليه حضارتهم في عهد الدولة الأندلسية؟!

أيُّ رجل كانَ صاحب «كتاب البؤساء»، وأي غيث سقاه، وجو حَواهُ، حتى أدخلَ في لغته من الكلمات ما يخطئهُ العدّ، ووقفَ في وجوه المعارضينَ فيها وقفة البسفور في وجوه الطامعينَ في هذه الدولة حتى انقلبوا عنه خاسرين؟ أو ليستْ رجالنا بقادرينَ على أن يأتوا متساندين بمثل ما أتى به ذلك الرجل وهو وحيد؟!



كلمةٌ للمعَرِّب

«في المؤلف»

وُلد «هوجو» والقرنُ الغابر صبيٌّ في مهده لم يدرجْ من حجْر أمِّه، ولم يفرِّق بين أمسه ويومه، فاصطحبا طفلين، ثم افترقا، وضربَ الدهرُ بينهما ضرباته فالتقَيا شيْخَيْنَ فانيين، فإذا الأوَّلُ سيد القرون، وإذا الثاني نادرة البطون، هذا يمشي على قدمين من ليل ونهار، ويطيرُ بجناحين من كهرباء وبخار، وذلك يتوكأ على عصويْن من عظَة واعتبار، ويرتدي ثوبين من حكمة واختبار، وقد جلسَ الأول على سرير دولة الأيام، وأخذ الثاني بصولجان دولةَ الأقلام، فالتقتْ دولةِ العَجَب، بدولة الأدَب، واجتمعتْ بدائعُ الاختراع، ببدائعِ اليراعَ، فاخضَلَّ ظلُّ هاتين الدولتين، وامتد من المغربين إلى المشرقَين، فظلَّ الناسَ بين نعيم الحرية، ونعيم المدينة.

سبحانك اللهم هل كانت تعقل هذه الذرات وهي في علام السديم، أن سيرتقي بها الحال إلى العيش في هذا النعيم، فتبارك الله ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ • عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

وُلد «هوجو» واللغة الفرنسوية بمنزلة بين الضعف والحاجة، والقوم بين أسر التقليد، وذل التقييد، والأدبُ لم يبق منه إلا الذَّمَاء[1]، فأنبته أبوه نباتًا حسنًا، فما كاد يشهد ستة عشر ربيعًا حتى تحركت نفسه إلى معالجة الشِّعْر فقرضَ قصيدة دارَ لها فلكُ البلاغة، ورددها لسانُ الكون، رفعها إلى المجمع العلمي، فاهتزتْ جوانبهُ عجبًا، وكادت تطيرُ أعضاؤه طَربًا، ولولا أنهُ كشفَ فيها عن سرِّه، وأوضحَ عن بيان عمره، لأجزلوا ثوابَهُ، ورفعوا جَنابهُ، ولكنهم قارنُوا بين شعْره وعُمُره، فاستنزروا أيامَهُ، واستغزروا[2] بيانَهُ، فظنوا أنه يسخرُ منهم فلم يجيزَوه إلا يسيرًا، وهَبَّتْ بعد ذلك رياحُ سعوده فأخذ بناصية القوافي، وتنازلَ له سلطانُ الخيال، فسبحَ في ملكوته ما شاء الفكرُ، وما زالَ يتنقل في تلك العوالمِ الخيالية حتى نودي به أميرًا على دولتي النظيم والنثير. وشجرَ بينه وبين جماعة الشعراء الخلاف، فرأوا الحفاظ والتمسيك للقديم، ورأى غير ذلك، فلم يزل بهم يصابرهم ويطاولهم حتى ظهرَ عليهم، ورفع للشعر منارًا أطلّت منه الحقيقةُ بجلالها، وأشرفت منه الطبيعة بجمالها. ولم قيود الشعر، وأطلق سراحهُ من سجن التقييد وقد وقف إذ ذاك على أبواب الثلاثين من عمره، نظرَ فإذا فنُّ التمثيل يتضاءل تحت أستار الملاعب، تضاؤل الحسناء تحت الأطمار، لأخذ رجاله بأسباب التقاليد، وترسمهم أثر الرومان واليونان فيما وضعوهُ من الأقاصيص التي تمثل أدوارَ تلك الأزمان الغابرةِ، ورأى أن الواضعين فيه لم

(1) الذماء: بقية الروح في المذبوح.

(2) استغزر الشيء: طلب كثرته.

يجيئوا بما ينقع الغلة، فانبرى إلى منازلة أولئك المقلدين، وقامت بينهما حرب عقدت عجاجها الأقلام، وأدارت رحاها الأفهام، فما زال يكرُّ عليهم بجيوش البيان وكتائب البرهان، حتى خضعُوا لقلمه، وساروا تحت علَمه. ولاحتْ بعد ذلك تباشير الإصلاح في سماء الأدب، وظهر كتابه الذي سماهُ «نوتردام دي باري Notre dame de paris» فطلعَ على الناس طلوع القمر على المدلج الحائر، حَشَرَتْ لهُ فيه اللغة جنودَها من الألفاظ والمعاني، فاستعرضها صفًّا صفًّا، وتفقّدها حرفًا حرفًا، ثم أبرزها إلى ميدان التحرير على أحسن تعبئة وأكمل نظام، وَقد وفّقَ بين قلبيها وجناحَيْهَا كما يوفق القائد الخبير. ولما قضى من الأدبُ لبناتهُ، وأخذ من الشعر حاجته، هجرَ الشعرَ إلى السياسة، وما هيَ إلا جولةٌ من جولات الفكر حتى دعته السياسة إلى مواصلة الشعر ليوضحَ لها سبيل استهواءِ الأفئدة، واستبطانِ الضمائر، ويكونُ طليعتها في كشف ما يَسْتَكنُّ في قرارة النفس وخَلجانِ الفؤاد.

وبلغَ «هوجو» من السياسة كوكبها، فركبَ سفينة الحرية عرضَ بحارها، فما زالت تُوفي به من بحر إلى بحر، وترمي به من عبْر إلى عبر، وهو على ظهرها يطالع في أفقِ الدهاء، صحيفة الرجاء، وقد وضع أمامَهُ إبرةَ الأمل، وجعلَ وجهته قطبَ العمل، حتى بلّغته شاطئَ آماله، وحمدَ مغبَّة أعماله. وما كادَ يتنسَّمُ الإفرنسُ[1] نسيمَ الحرية حتى هبت ريحُ الاستبداد منَ رُقَادها، وعصفت من جوانب العرش المالك، فاحتملتْ «هوجو» على أكتافها واندفعت به حتى إذا بلغت سماء «بروكسل» عاصمة «البلجيك» ألقت به هناك في منفاه الجديد. فنزلَ الرجلُ متماسكًا لم يعتره الدهش، ولم يتطرّق إلى عزمه الخمول، وغادرَ «باريس» وقد أقسم أن لا يهبطها أو يهبط عرش الملك فيها، وبرَّت يمينه فإنه لم يطأ أرضها حتى وطئتها بوادر خيل الألمان في حرب السبعين.

ولبث «هوجو» في منفاه وكانت أيامه فيه أخصبَ أيام حياته، فأسلسَ العنانَ لفكْره، وأوسعَ المجالَ لقلمه، فوضعَ كتابَهُ الذي سماهُ «نابليون الصغير» ونظم بعده «كتاب العقوبات» فنالَ فيه من نابليون الثالث ما لم ينله منه زوال ملكه، وكان عليه أشدَّ غضاضة من تسليم سيفه إلى يد عدوّه في يوم خذلانه. وجاء ذلكَ الكتابُ مثال ما يملي الحقد على القريحة، وتوحي الموجدة إلى اليراع، ووضع بعده «كتاب المشاهدات» و«كتاب البؤساء» الذي نعرِّبهُ اليومَ، وكم له غيرها من مؤلفات جليلة، ومنظومات بديعة، منها ما صنعَهُ في صباه، «كأوراق الخريف»، و«أناشيد الشفق»، ومنها ما وضعه بعد عودته إلى الوطن ككتاب «العام الأسود»، ومات «هوجو» وهو نادرةُ الفلك، وواحدُ عطارد.

---

(1) الإفرنس، أهل فرنسا.

كلمةٌ للمؤلفِ

مَثَلُ البَائس الذي سَجّلتهُ يد المقادير في سجل العنَاء، وطوَّحت به في ظلمات هذَا الوجود فمضى يتخبطُ في ديجور الحياة، يؤمه النحسُ، ويمشي علَى أثرهِ الشقاءُ، تلعبُ به الأيام لعب النكباء[1] بالعود، ويدب في نفسه اليأس دبيب الآجال في الأعمار، كمثلِ الغريق ظفر به البحر الهائج في يوم ريح صرصر عاتية، فلبث معلقًا في خيط من الأجلِ بين شقيْ مقصّ الفناء، يفتح لهُ الوهمُ بين كل مَوْجَتَيْن قبرًا، ويمدُّ له الخوف بين كل قطرتين بحرًا، يطفو به القدرُ ويرسبُ به القضاء، فتلتقفهُ الموجة بعد الموجة، وتلتقمه اللجة بعد اللجة[2]، وقد درجه البحر في كفن من الزَّبَد، وحمله على نعش من الماء فوق أعناق أمواج كالجبال، تعلو به تارة إلَى مجرى الأفلاك، وتسفلُ به أخرى إلى مَسْبح الأسماك، حنقَ عليه الماء والهواء، وزهدتْ في وجوده الأرضُ والسماءُ، وكلما همَّ بالاستسلام للموت أدركه الحرصُ على البقاء، فجعل يجالد[3] تلك الأمواج الثائرة، ويصارعُ ذاك الجبارَ العنيد، حتى إذا نزحَ التعب قواهُ، طواه البحر في جوفه طيَّ السرِّ في الفؤاد، ذلك مثلُ البَائس في هذه الحياة الدنيا.

أَمَا ذلك المجتمعُ الإنساني فمثله كالسفينة أخذت في ذلك الخضَم مجراهَا، فانحطتْ عليها الأعاصير، واصطلحَت عليها الأنواء وألقت بها في تلك اللجج التي تضل فيها الظنون والأوهام سبيل النجاة، يَدْنوُ منها القضاءُ فيفرق، ويَسْبَحُ فيها الخيال فيغرق، إذا تدجَّت[4] فهي ليالي الشقاء، وإذا ثارت فهي براكين الماء، ألقى بهذه الجارية تيار الماء والهواء، إلى حيث هذا الغريق تصافحه رسُل الحمام، فجعل يدعوها إليه مرة بالنداء، وأخرى بالإيماء، لتستلَّ حياته من يد الأجل، وكلما صاحَ ذهبت بصيحته هوج الرياح، أو أشارَ قام بينه وبينها سدٌّ منَ الأمواج، فهي لا تسمعُ نداءَهُ، ولا تنظر إيماءَه ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾.

(1) الريح الشديدة.
(2) اللجة: تردد أمواج البحر.
(3) يجالد: يصارع ويكافح.
(4) سكنت وهدأت.

الفصلُ الأول

جان فالجان



أشرفَ على مدينة «ديني» رجلٌ يضربُ في الأرض على قدميه فدخلها وقد مالَ ميزانُ[1] النهار، واكتهل اليومُ الأول من شهر أكتوبر سنة 1815، وكان قدْ ركبَ نعليه عامةَ يومه، فما أدركها حتى أخذ منه الجهد، وأعياه التعب، وأملَّهُ طولَ الشقة[2]، وحتى ملكهُ الجوع، ونالَ منه الظمأ، وجمعَ في منظره بين تعب الحياة وتعب السفر، فكانت النظرةُ إليه تدعو إلى الرِّيبة فيه، لذلك ما نظره أحد من سكان تلك المدينة إلا ومرَّت به خلجة شك في أمره.

وكان رَبْعَةً[3] في الرجال بادنًا[4] شديد الحول، يضرب لونه إلى السمرة طويل شعر اللحية قصير شعر الرأس لقرب عهدها بالمقراض[5]، نيفت أعوامه على الأربعين، عليه أسمال بالية[6]، وبيده عصا، وقد احتقب خُرجًا ملأه بحاجته ولباناته.

دخلها وهو أشعثُ أغبر، وقد انتشرتْ على أديم وجهه طبقة نسجتها يدُ السفر من خيوط الشمس، وطلتها بطلاء من العرق والغبار، فسار فيها وقد أنكره كل من رآه، وكذلك يُنكَرُ ابنُ السبيل، وأخذ سمته إلى دار المشيخة، فمضى[7] قدمًا في إحدى سُبُلِهَا[8] حتى إذا قطعها عطف[9] يسرة، وعرج على تلك الدار ولبث فيها بعض ساعة، وخرجَ فمر بجندي فحياه فَصعَّر[10] الجندي خده وتثاقل في ردّ تحيته، فمشى الرجل في طريقه ونظر الجندي يترسم[11] مواقع أقدامه حتى غاب عنه سوادُهُ.

ولعله كان قادمًا من الجنوب، فقد طلعَ على تلك المدينة من ذلك السبيل الذي ركبه نابليون الأول قافلا من «كان» إلى «باريس» منذ سبعة أهلة، وكأنه منذ أصبحَ ما تبلَّغ[12] فما هو الآن إن أفلتَ من دار المشيخة حتى تيمم النُّزل، فلما بلغه دَلفَ[13] إلى حيث يطبخ، فألفى ربَّ النزل هناك، فسأله ربُّ النزل وقد أحس بقدومه وإن لم

(1) مالت الشمس إلى الغروب.
(2) السفر الطويل.
(3) الرَّبعة، بين الطويل والقصير.
(4) بدينًا سمين الجسد.
(5) مقص الحلاق.
(6) ثياب رثة قديمة.
(7) أي سار إلى الأمام.
(8) سبلها، طرقها.
(9) انعطف، اتجه وانحنى.
(10) شمخ بأنفه وتكبر.
(11) ترسم الأثر اقتفاه.
(12) تبلغ أكل الخبز.
(13) دلف مشى.

يمد إليه بصره، ما سؤال الطارق؟ فقال الرجل: أَكْلَةٌ ونَوْمَةٌ، قال: لك سؤلك،ثم التفت إليه، فما كاد يأخذه نظره حتى أخذه الشك فيه، فعطف قائلًا: أو تصل يدك إلى وفاء حق ما تطلب، فضربَ الرجل بيده إلى جيبه وأخرج كيسًا فهزه حتى أسمعه وَسْوَسةَ[1] ما بداخله وجلس إلى النار يصطليها وقد كان مقرورًا[2]، وولى ظهرهُ البابَ وجعل رَبُّ النزلِ يخالسهُ النظرَ فيه الجيئة والذهوب، والرجل غافل عنه ينكت الأرض بعود في يده حتى كادَ يأتي عليه[3] الجوعِ فصاح بصاحبه: أما آن أن آكلَ وليس هُنَا مَنْ هو أحوج مني إلى الطعام، ومالي بدٌ من تناول ما أمسكُ به النفس. فقال له رب النزل: إني ليحزنني أن تنصرف عنه وأنت طاو، فلقد سبقك إلى شراء ما ترى قوم نزلوا بنا منذ اليوم وما منهم إلاّ من هو أحرص منكَ على الطعام. فقال الرجل: لن أبرحَ الأرض أو أصيبَ ما أتبلغُ به فلقدْ سايرتُ الشمس من شروقها إلى غروبها، وقضيتُ يومي طاويًا، وما بلغتُ هذا المكان حتى أدمى السيرُ قدمي، ومِنَ العَجْزِ أن أبتغي عنهُ حولًا.



(1) يقال وسوسة الحلي ووسوة الدراهم صوتها.
(2) المقرور الذي أصابه القروهو البرد.
(3) أتى عليه أي أهلكه.

فقال له صاحبه وهو يحاوره: لقد بالغتَ في محاسنتك كي لا أجبهك[1] بالرد، وكرهت أن أجمعَ عليك بين مرارة الجوع وغضاضة المنع، فأبيتَ إلا الإصرارَ فاغرب عني أيها الرجل ولا تلحف[2] في السؤال فأنا أعلمُ بك منكَ ولو شئت لزدتك، فقدْ زهدني فيكَ ما أقرأ عنك في تلكَ الرقعة التي تراها بيدي، وصاحبُها لا تغيبُ عنه وساوسُ صدرك وإنكَ لقريبُ العهد به، ذلكَ رب الدار التي عرجت عليها حين أحلّتك المدينة فاذهب غير معقب، وحسبكَ ما سمعت «يا جان فالجان» فعالج الرجل الكلام، فاستعصى عليه لفرط الدهش، فأهوَى بيده إلى متاعه فاحتمله وخرج يتعثر في ذيل الخيبة، وركب الطريق الأكبر، ومضى على وجْهه يقتادُهُ القضاءُ والقدر.

ولو أنه نظرَ وراءهُ لرأى بباب النُّزل قومًا تكاد تنهبه أبصارهم وما منهم إلَّا من قَاف[3] أثره بنظرة من الشك، ولكنَّ الرجلَ لم يلتفت، فقلما يسكتُ البائسُ الحزين إلى تلك اللفتة التي تريه النحسَ على عقبيه، فواصلَ السير وقد أنساهُ طريف الحزن تالد التعب، ولكنه ما لبث أن تنبه فيه هاجعُ الجوع فأشفق أن يداهمه الظلام قبلَ أن يبلغ مكانًا يعصمه من القرّة[4] ويذود عنه الطوى، فما زالَ يتيامن ويتياسر حتى لمح ضوءًا فقصده فإذا هو على باب نزل حقير، فوقف أمامه وهو يكبره، الجوع يدفعه والخوف يمنعه، حتى صحت عزيمته على الولوج[5]، فلما صار بصحن الدار وبصر به ربها[6]، صاح مَن الطارق؟ فقال الرجل: عابرٌ يطلبُ قوتًا وكنًّا[7]، ودخل حيث يسمع الصوت، فوجدَ قومًا جلوسًا ينتظرون نضج الطعام، وشم ريح القتار[8] فكادت تثب أحشاؤه إلى القدْر، فقال له صاحبه: دونكَ النار فاصطل ريثما ينضج الطعام، فانتحى ناحيتها، وجلس إليها، ومد أمامها قدمين أدْمَاهُمَا التعب.

وما كادَ يحتويه هذا المكان حتى احتوى الشك من فيه، فقد نظروا رجلًا ترتسم على وجهه آلام الحياة مطرقًا حزينًا، إذا أمررت عليه النظر إمرارًا رأيت فيه سهولة السطيع، وإذا أدمنته فيه تبينت فيه الجفاء. وكانَ بين أولئك الجلوس رجل قد بصرَ به ضحوة النهار وقد ركب الطريق بين «براسكاس واسكابلون» فرابَهُ أمره[9] حين دنا منه وهو فارس، فطلب إليه ذلك البائس أن يردفه لينفس عنه كرب السير، فكان جوابه أن استحث جواده هربًا من شر تلك الطلعة، وقد أراد الله أن يكون ذلك الفارس بين أولئك القوم الذين كانوا بباب النزل الأول وقوفًا يشيعون ذلك الطريد بنظرات تقعد همة «الفوتوغرافيا»[10] عن تصوير ما فيها من الاستخفاف والازدراء،

---

(1) جبهه بالرد واجهه به.
(2) اللحف في السؤال أي ألحّ.
(3) قاف بمعنى اقتفى.
(4) القرة البرد.
(5) الولوج، الدخول.
(6) ربها، صاحبها.
(7) الكن، البناء والمسكن.
(8) القتار، دخان رائحة الطبيخ.
(9) رابه، شك في أمره.
(10) آلة التصوير.

وبين أولئك الجلوس الذين رابهم أمره في النزل الثاني، فأومأ إلى رب النزل، فلما دنا منه همسَ في أذنه كلمات ملأته نفورًا من ذلك القادم فانفتلَ إليه[1] وقال له: ما كان أخلقك بالتحوّل عن هذا المكان، فأجابه الرجل أو قد علمتَ بحادثة هذا النزل؟ قال: نعم وسَنشْفَعُها بأخْتها، فاستقبل الرجل البابَ، ولما صارَ بالطريق إذا هو بصبية يرجمونَهُ بالمدَر[2] وقد تعقبوهُ منذ هبط المدينةَ، فخشيَ أن يصيبه عنتٌ منهم إنْ هو تغافلَ عنهمَ، فأشارَ إليهم بعصَاهُ يوهمهم بالأذى فنَفَرُوا عنهُ نفورَ القَطَا[3]، فانطلقَ حتى إذا صارَ أمامَ السجن خطرَ له أن يأوي إليه ليلتَهُ وقالَ: لن أجمعَ على نفسي بين الجوعِ والسهاد، ولقد أرَاني إلى الراحَة أجْوَعَ مني إلى الطعام، وهذا جوٌّ خليق أن يهلكني قَرُّهُ ولن أعدم أن أجد في هذا السِجنِ مكانًا يعصمني منه.



فلما تمكن منه هذا الخاطرُ طرق البابَ، فقال السجانُ: من الطارق؟ قال: غريب لا مندوحةَ له عن الالتجاءِ إلى السجن. قال: ومتى كانَ السجنُ دارًا للضيافة، فإن كنتَ أمسيتَ وقد أعياكَ الأمرُ فهذا بابُ اقتراف الجرائم لا يزالُ مفتوحًا، وَهو لا يلبثُ إنْ ولجتَ فيه أن يقتادكَ إلى هنا، فانصرفَ الرجلُ مخذولًا، وليس وراء ما به من البؤسِ غاية؟ وتغلغلَ في المدينةِ فمرَّ في طريقٍ ضيق على عِطْفيهِ

(1) انفتل: انصرف. (2) المدر: الطين المتماسك. (3) القطا: نوع من اليمام.

حديقتان عليهما سياج، وفي وسط إحداهما دار صغيرة تعلو الأرضَ بطبقة بإحدى نوافذها سراجٌ يضيء الليلَ، فما هو إلا أن رآهُ حتى أسرع إليه، فلما بلغهُ نظرَ من تلك النافذةِ فإذا ربُّ الدار بين زوجته وولده وهو أهنأ ما يكون بالاً، فقال: أستضيفهم، فلعلي أصادفُ منهم جانبًا رحيمًا، ثم خَفَّضَ من جَزعه ونقرَ بأصبعه على زجاج النافذة نقرةَ الجبان، فلم يَسْرِ إليهم الصوتُ، فخلع عنَ منكبيه رداءَ الفزع، ونقرَ نقرة مطمئنة، فقالت المرأة لزوجها: كأني أسمعُ نقرًا على زجاجَ النافذة، فتسمَّعا جميعًا، فسرى إليهما الصوتُ، فقام الرجلُ إلى السراج فحملهُ واستقبلَ البابَ ففتَحَهُ، فأخذ بصره رَجُلا تَذعَرُ منهُ الأبالسة.

فقال ربُّ الدار: من الذي أرَى؟ قال: غريبٌ يستضيفكَ ولكَ الحكم في الأجْر، فقال له وقد دب الشك فيه: إنْ كنتَ ذا مال كما تزعمُ فهذه الفنادقُ فما منعك أن تغشاها؟ قال: غشيتها فلم أجد فيها مكاناً؛ فقال له وقد تملكه الشك: إن ما تقولُ لشبيهٌ بالباطل، وليسَ هذا بابان المواسم، وإني لأرى رجلًا غير ميمون الطلعة، ولقد راعني منكَ ما يروع المرء منْ قاتله، وكأني أسمعُ صوتًا يقطرُ منه الدمُ، وأكبر ظني أنك ذلك الرجل. فقال لهُ: لا تعجلَ في الحكم على ما ليس لك به من علم، فهل أنا إلا ابنُ السبيل قطعْتُ في يومي اثني عشرَ فرسخًا وقد أجهدني الكدُّ وأنصب بدني التعب، وأخذ مني الطوَى، فهل لك أن تُسْعفني بكِسْرَة من الزاد ولك أجر المحسنين، فإن لم تفعلِ فَشَرْبَة من الماء؟ فقال: بلَ شربةٌ منْ حميم، وأغلقَ في وجهه البابَ، فوقفَ الرجل، وقد كادَ يأتي عليه اليأسُ لولا أن بصرَ في ضوء الشفق بشيء شبيه بالكوخ في وسط الحديقة المجاورة لذلك البيت، فقال: ما لهذا الكوخ بدٌ من ساكنٍ، ولكني آتيه فلعلي أجدهُ خاليًا فأفني فيه دولةَ الظلام، واستجن[1] فيه من ذلك البلاء المتساقطِ، فقصدَهُ فإذا هوَ وجارٌ[2] كلْب وقد غابَ عنه صاحبه، فانبطحَ فيه الرجل على وجهه، واستحالت عليه الحركةُ لضيق المكان، وكان متاعه لا يزال على ظهره، ولم تقوَ يدهُ على إزالته لفرط ما ناله من الأين والنصب، فلبث قطعًا من الليل وليس به حراك حتى إذا أمَلَّهُ حمْلُ ما على ظهره عمد إلى نزعه، فأخذ يعالجه بيده، وإنهُ ليفعلُ ذلكَ إذ فاجأهُ ربُّ الوجار، فتسللَ الرجلُ من مكانه وغادرَهُ ذلك القادم، وأشفق أن يثير غضبهُ بتثاقله عن الخروج فينشب فيه أنيابه وهو في ذلك المضيق لا يستطيع دفعًا عن نفسه، وخرج من البستان وهو أشد ما يكون جزعًا من الحياة شريدًا يطويه البردُ وينشره الطوىَ، تعذَّرَ عليه حتى الوصولُ إلى السجون، عزَّتْ عليه حتى مَراقدُ الكلاب!! فلما صارَ في الطريق قال: لقد قصدتُ الفنادق فذادوني[3] عنها، فالتجأت

(1) استجن، أي استتر. (2) الوجار، الجحر. (3) ردوني وطردوني.

إلى السجن فكذاك، فاستضفتُ الناسَ فكذاك، ولقد زَهِدَتْ فيَّ حتى الكلاب، فليسَ لي إلا التحولُ عن هذه المدينة.

ثم سارَ مقنعَ الرأسِ كاسفَ البالِ واستقبل الفضاءَ وكان ليله بهيمًا[1]، ضرير النجمِ، شديد القر، ساقط النواحي، متهم الصباح، فانطلق حتى إذا بلغَ مزرعةً حديثةَ العهد بالحصْد رفع رأسهُ ومدَّ بصره فإذا ظلمات يقصر فيها قاب العين، وقد زادَ في ظلام الليل ما تلبدَ في سمائه من تلك السحب الكثيفة، فكانت السماءُ أشدَّ ظلمة من الأرض، فانقلبَ الرجل على عَقبيه وأمَّ المدينة، وكانت ذاتِ سورٍ وأبواب، فرأى الأبواب وقد أغلقت، فحاوَل التسوُّرَ فأعياهُ الأمرُ، فما زال يطوفُ بالسورِ حتى عثرَ على ثغرة فيه، فانحدر منها إلى المدينة ومضى على وجهه ترامي به الطرقات وتقاذف به الأزقة، حتى مرَّ ببيعة فوجدَ على بابها مقعدًا من الحجر فسقط عليه ولا يعي من فرط التعب واضطجع فيه، وما كاد يحتويه ذلك المضجعُ حتى خرجت من تلك البيعة امرأةٌ صالحة فقالت له وقد رأته ممددًا كالجذع: ما خطبك أيهاالنائم؟ فقال لها: وهل يدعو ما أنا فيه إلى السؤال ألا ترين أني أنام؟ فقالت له وقد أخذتها رأفةٌ عليه: أتفترش الصخرَ؟ قال: مرَّ بي تسعَة عشر حولًا ولا أفترش غير الأخشاب، وأنا الليلة أفترشُ الصخور، ولولا أني صفر اليدين لاكتريتُ لي مكانًا، على أنني طرقتُ الأبواب فلم أظفر بكريم فقالت له: ألا أدُلكَ على بيت ما طرقَهَ قبلك طارق وجبّه بالرد، وأشارت له إلى بيت صغير على كثب منهُ فأخذ الرجلُ سمته إليه. وكان هذا البيتُ لعابد بمدينة «ديني»، وقد أفرد له المؤلفُ في صدر الكتاب بابًا قصَرهُ على ذكره ومناقبه، ومبلغ ما فيه أن الرجلَ مسامحٌ كريم، عفيف الإزار، طاهرُ المهد، سريرته في بياض صحيفته، فعَّال للخير، مَنَّاع للشر، وكان يقطن هذا البيت مع أخت له على خُلق كريم، وهي امرأة نصف، لا عجوز شَمْطَاء[2] ولا فتاة هَيْفَاء، وكانت لهما خادم من ذوات الأسنان، تعد من العمر ستين عامًا.

وبينا كان الرجل آخذًا طريقه إلى ذلك البيت كانت الخادمُ تُحدّثُ مَوْلَاتهَا: لقدْ هبطَ المدينة رجلٌ غريبٌ ما رآه أحد إلا وذُعْرَ منْ رؤيته، وقدَ مشى بحديثه الكبيرُ والصغيرُ، فورد الأندية، وولج الأخبية[3]، وأجمعَ الناسُ على وجوب التحرز منْهُ حين نظروا في وجهه سيمَا[4] الفتك والشرور، فلا ينجلي هذا الليل إلا عن حادث جلل، وها هو ذا يطوفُ تحت راية الليل في الأزقة والطرقات، حتى إذا عَنَّ له صيدٌ أو أنس من أحد غرة وثب عليه فسلبه نفسه ومتاعَهُ، ولا آمنُ ونحنُ في هذا البيت أن

(1) مظلمًا شديد الظلمة.

(2) يقال، امرأة شمطاء ولا يقال، شيباء، وشمط المرأة في شعرها.

(3) جمع خباء، وهو كل مكان يستتر فيه الإنسان. (4) السيما، العلامة.

يصولَ علينا ذلك الذئب صولَتَهُ، ولا أظنُّ تهاوُنَ العسَس في الأمور إلى هذا الحدّ إلا لما أمسكه حاكمُ البلد في نفسه من الضغينة على رئيس الشرطة، وما وقره رئيس الشرطة في صدره من الوجدة على ذلك الحاكم، يحاول كلاهما إلقاء تبعة الحوادث على صاحبه،ولقد وجب على كل من له مسكة من العقل أن يقيم من نفسه حارسًا على نفسه حتى تَنحصر فترةُ الشقاق بينهما، وأنا غاديةٌ إلى السوق لشراء مزلاج[1] لهذا الباب، وداعيةٌ أحدَ النجارين لإصلاح عُضادَتهُ، وإنها لتحدثها كذلك إذْ دخل سيدها وقد ألمَّ بطرف من الحديث، فنظر إليها نظرةَ المستطلع، وسألها سؤال المستخبر، لقد وعيتُ طرفًا من حديثك فما عسى أن تكون تلك النازلةُ التي توشك أن تحل بنا، فاندفعتْ الخادمُ تحدثُ مولَاهَا بما تعلمهُ من أمر ذلك الرجل، وكلما آنستْ منهُ ارتياحًا إلى سماعِ حديثها، تغلغلت في الإغراق، واسترسلت في المغالاة وقالت: ولقدْ عوَّدَ مولايَ طُرَّاقَهُ على الدخول في هذا البيت قبل الاستئذان، وقد علموا منه ذلك فهم يغشونه بالليل والنهار، ولا يكلفهم ذلك غير دفعِ هذا الباب، وما كادتْ تنتهي من مغالاتها حتى سَمعُوا طَرْقًا، فقال العابد: أتيت أهلًا أيها الطارقُ، فاندفع البابُ بعنف، ولاحَ رجل على عتبة الدار، وأخذ يخطو إلى صَحْنها بقدم مطمئنة وصدر لا يبرحه القلب، وإن عهدنا بهذا القادم لقريب، فما هو إلاّ أن تراءَى حتى كادَ يقطع نياطَ قلب الخادم من الهلع، فهمت بالصِّياح، فخانها الصوتُ فلبثت فغارة الفم[2] غائبة الرشد، أما الأختُ فقد حفزَ الخوفُ أحشاءَها حفزًا، فنظرتْ إلى أخيها، فإذا هو مثلوج الصدر، جليد القلب، رابط الجأش، طلق المحيا، فثابَ إليها رشدَها، وعاودَها السكونُ، ومرتْ كأن لم تكنْ تلك الجازعةُ الهلوعُ، وأما ذلك الرجلُ، فقد وقفَ في صحْن الدار وأنشأ يقول:

إنني مجرمٌ، طويتُ في السجن رداء شبابي، وسلختُ فيه مائة وثمانين شهرًا حتى استوفيتُ عمر العقاب، ولم تشرق عليَّ شمس الحرية إلا منذُ أربعة أيام، فهبطتُ تلك المدينة، وقد شمَّرَ النهارَ فقصدتُ الفنادق، فحالت بيني وبينها تلك الورقة الصفراء التي يحملها حديثُ العهد بمغادرة السجون، فطرقتُ الأبواب فلم أصادف رجلًا كريمًا ولا قلبًا رحيمًا، فقلتُ: آوي إلى السجن فأنا أقربُ الناس عهدًا به، فنهرني السجَّانُ، فدلفت إلى وجار[3] كلب فطاردني حتى طردني، فقلتُ: أنطلق إلى الفضاء فأنام تحت حراسة النجوم فتقنعتُ بالسحاب وكأنها عافت النظر إلى تلك الطلعة المنحوسة، وأشفقتُ من سقوط المطر فعدت معقبًا إلى المدينة، ولم أصبْ من رحمَة في الأرض ولا في السماءِ، فحالت بيني وبينها الأبوابُ حين بلغتها، فما زلتُ أطوفُ بالسور حتى

(1) المزلاج: الترباس عند العامة.

(2) فتحت فمها بتعجب.

(3) الوجار: ما يتخذ للنوم والسكنى.

ظفرت بصدع فيه فانحدرتُ منه إلى المدينة، وهمتُ على وجهي في الطرقات حتى مررت ببيعة، فإذا على بابها مَقْعَدٌ من الحجر فانطرحتُ عليه وإني لكذلك إذ مرّت بي امرأة من الصالحات فنفضتُ إليها جملةَ الحال، فأرشدتني إلى تلك الدار وها أنذا قد بلغتها، ولقد عودني الشقاء على أنْ أجتزئ بالشربة، واكتفي بالكِسْرَةَ فهل أنا مصيبٌ عندكم ما أمسك به النفسُ، فلقدْ ظللتُ يومي طاويًا وقطعتُ اثنى عشر فرسخًا وأناراكبٌ هاتين النعلين، فإن فعلتُم وما أظنكم تفعلونَ فلكم ما تشاءون من الأجر فإني على الدَّفْع قديرٌ. فنظر العابدُ إلى الخادم وقالَ لها: هيئي لهُ مكانًا على المائدة، ثم أخذَ يحدِ البصرَ إلى ذلك الرجل كمن يحاول أن يستشفَ ما في قرارة نفسه، فمضى الرجل قدمًا حتى اقتربَ من السراج وضربَ بيده إلى جيبه فانتزعَ منه تلك الورقة الصفراء «إجَازَةُ الإطْلَاق» وكأنهُ لم يصَدق أذنَهُ لقرب عهدها بسماع غير الذي سمعت، فالتفتَ إلى العابد وقال لهُ: دونكَ الورقة التي ما صحبتني إلى مكان إلا سبقني النحسُ إليه، وإني لأتلو عليكَ ما فيها فقد تعلمتُ القراءةَ في مدرسة السجن، وأخذ يتلوها.

إنَّ جان فالجان مجرمٌ أطلق سراحهُ بعد أن لبثَ في السجنِ تسعةَ عشرَ حولًا قضى خمسة منها قصاصًا على السرقة، وقطعَ الباقي جزاءَ معالجته الفرار من السجنِ مرارًا وإنهُ لفتَّاكٌ جسورٌ. لذلك تراني ما حللتُ في مكانٍ إلا أنكرني مَنْ فيه، وأوجسَ خيفة مني فياليت شعري أكذلكَ تكونُ معي أم أنتَ من المحسنين؟!

فنظرَ العابدُ إلى الخادم وقال لها: ومَهدي لهُ سريرًا، وخاطبَ الرجلَ قائلًا: نزلتَ رحبًا، فاجلسْ إلى هذه النار، واصطلِ، وما هيَ إلا لحظة حتى يحضرَ الطعامُ فإذا فرغت من تناوله أخذتَ مضجعك في ذلك السرير.

فصدَّقَ الرجلُ في هذه المرة أذنيه، وأشرقتْ أساريرُ وجهه، وسري عنهُ ما كان فيه من الغم، وخرج به فَرْطُ السرور إلى الهذيانِ فجعل يقول: أسريرٌ وحشيَة وغطاء وما لجنبي عهدٌ بها منذ تسعة عشر حولًا، ولقدْ كان قائمًا بنفسي أن لا أرى منكَ غير الذي رأيتُ من أصحاب الفنادق فما بالك تبالغ في محاسنتي كأني بعض بني الإنسان، ولقد كنتُ أنْهَرُ الساعة كما تُنْهرُ الكلاب، فما أرقَّ شمائلك أيها الرجل، فتالله لأضاعفنَّ لك الأجرَ. فياتُرَى ما اسُم هذا النزل؟ وكم ينبغي أن أدفع؟ فقال العابد: إن الذي يؤويك لم يكن بنزل كما تزعم، ولكنهُ بيت ذلك الذي يخاطبك. فقال الرجل: لقد خَيَّمَ الحزنُ على بصري فلم ألمح شارتَكَ التي تحملها، ولعلكَ عابدٌ بتلك البيعة القريبة، فلا تؤاخذني بما نسيتُ ولا ترهقني من أمري عُسْرًا، فأنتَ حقيقٌ بمؤاسات البؤساء.

ثم ردَّ الرجلُ ورقته الصفراء إلى جيبه، وألقى على الأرض متاعه، وأسند إلى الحائط عصاه، وانتحى ناحية النار وجعل يقولُ: ولا أخالكَ تكلفني على ذلك أجرًا؟ فأجابه صاحبه وهو يحاوره لا بلْ فاحفظ عليكَ دراهمكَ فلسنا في حاجة إلى شيء منها. وكرهَ العابدُ الخوضَ معه في مثل هذا الحديث، فحولَ مجراه قائلًا: ولعلكَ يا سيدي مَقْرورٌ فإن ليلتنا باردة الهواء، فتمشى السرور في قلب الرجل حينما استأذنت تلك الكلمة على سمعه، وتنزهت لها روحهُ من داخل الجسد، وأصابت منه تلك اللفظة «سيدي» مواقع الماء من ذي الغلة الصادي.

ولا يزالُ المصاب في شرفه على ظمأ إلى نهلة من موارد الاحترام حتى إذا ظفر بها أصبح مبرودَ الغليل.

وانتقلَ العابدُ من حديثه إلى مخاطبة الخادم فقال: أرى سراجًا مريض الفتيلة ضئيل النور، فألمت بقصده، وأسرعتْ إلى مخدع نومه وعادتْ تحمل شمعدانين منْ فضة ووضعتهمَا على المائدة.

فقال الرجل للعابد: لقد أكرمْتني الكرامة كلها، وحادثتني محادثة القرين، وجلستَ معي على بساط المساواة على أنني لم أكتمك شيئًا من أمري، وعندي أنَّ ما فعلتَ معي لكثير على مثلي. فقال العابدُ: لم تكن الدارُ بداري، ولكنها دارٌ للمسيح، ولا يسأل هذا الباب داخله كائنًا من كان عن اسمه، ولكن يسأله عن ألمه، وأنتَ رجلٌ قد أضرَّ بك الألمُ، ونال منك الجوع والظمأ، فالتجأتَ إلى تلك الدارِ وليسَ لي في ذاك

من فضل، وإنما الفضل لله فهيا إلى المائدة فقد حضر الطعامُ، فأخذ الرجلُ عليها مجلسه وجلس إليه العابدُ يؤاكله ويؤانسه حتى فرغ من أكله، وحانت ساعة الانصراف إلى النوم، فأخذ بيده إلى المضجع الذي هيأه له، ومرَّ في طريقه على حجرة العابد، فنظر فيها نظرة ألمت بجميع ما بداخلها، وحين بلغ به ربُّ الدار مضجَعهُ حيَّاه وهمَّ بالانصراف، فتعلق به الرجل وزمهر في وجهه بعينين نمَّ إنساناهما[1] عما كانَ يخفيه في قرارة نفسه من الغدر فقال له وقد شبك ذراعيه ووقف أمامه وقفة تمشي لها القلوبُ في الصدور: وما يؤمنك أن لا أنالك بسوء وقد جعلتني بحيث لا يحولُ بيني وبين الفتك بك حائلٌ؟ فأجابهُ العابد: ومتَى أغنَى الحذرُ عن المرءِ شيئًا، وهذا أمرُ الله قد فرغَ منهُ.

ثم غادَرهُ وانكفأ إلى مخدعه، ولم يلتفت إليه، وبعد أن قضى فيه صلاته تحول عنه إلى البستان، وأخذ يطوفُ في نواحيه وهو يتأمل في ذلك الفلكِ وقدرة الصانعِ، ويطلقُ الفكرَ في تلك الأشياء المستترة في ضمير الدُّجَى.

أما الرجلُ فما صدَّقَ أن يتوارَى عنهُ حتى أهوى إلى السراج فأطفأهُ وانطرحَ على ذلك السرير وليس به حراك وغط في نومه، وما كادَ ينصرمُ من عمر الليل نصفهُ، حتى انقلب العابدُ إلى مخدعه وأخذ مضجعه فيه ونام، ولم تبق في هذه الدار عَيْنٌ، ولم يأخذ النوم بمعاقد أجفانها، ولما اكتهلَ الليلُ أو كاد تيقظ الضيفُ من نومه وقدْ آن أنْ نسطر للقراءِ تاريخ ذلكَ الرجل.

كان «جان فالجان» من أسرة رقيقة الحال تعمل في الأرض ببلدة «بري»، وكان أبوهُ يشذبُ الشجر، ولم تكن له حرفة سواها، فتربى هذا البائسُ في معهد الجهل، فلم يجلسْ إلى مؤدب ولا معلم، ولم يرتضع لبانَ العلوم والمعارف، فمرَّ فدمًا[2] جهولًا، ولم يفع ورث عن أبيه تلك الحرفة، وكان طويل التفكر عن غير حزن، وفقد أبويه وهو صغير، فماتت أمه محمومة، ومات على أثرها أبوه، هوى من رأس شجرة كانَ يشذ بها فدق عنقه، فاحتضنته أخته وكان لها سبعة من البنين والبنات، فلم يزل مكفي المؤنة عندها حتى مات زَوْجُهَا وليس بين ولدها كاسب، وأكبرهم يومئذ في الثامنة من عمره، فلم ير «جان فالجان» بدًّا من القيام بمعاشها وأولادها، فجعل يعمل لبطنه وبطونهم، ويكدح في طلب الرزق وأجره في أيام موسم حرفته لا يزيد على ثمانية عشر صلديًا، فإذا انقضتْ تلك الأيـامُ انطلقَ إلى جماعة الحصَّادين في المزارع فأصاب رزقًا له ولأهل بيته، وما زال يكافحُ الأيام ويناضلُ البؤوس وهو لا تصلُ يده إلا إلى ما تدعو إليه الحاجة لحفظ الحياة حتى نزلت بهم سنة من السنين حبس شتاؤها

(1) إنسانا العين: حدقتاهما.

(2) الفدم: ثقيل الفهم غبيٌّ.

الناسَ عن الخروج في طلب وجوه الرزق، فأملق الرجل[1] إملاقًا شديدًا، ونزلتْ به الضائقة، وحضره العوَز، فأمسوا ذات ليلة ولم يجدوا ما به يتبلغونَ، فصاحتْ تلك السبعة الأطفال من ألم الجوع، والتصقت بطونهم بالظهور من فرط الطوى، فكبر الأمرُ على «جان فالجان»، وغادر الدار وخرج هائمًا على وجهه يطلب لهم ما يقتاتون به، فمرّ بخباز قد أغلق حانوته وتهيأ للنوم في مخدع له بداخلها، وكان بابها من زجاج، وخلفَهُ حواجزُ من الحديد ينفذ من أثنائها الساعدُ، فوقفَ أمامه ونظرَ من زجاج الباب فإذا رغفانُ الخبز على قيد ذراع منهُ، وذكر أمر الغلمة فساقَهُ قائد الاضطرار إلى ارتكاب جريمة السرقَة لأجل أن ينزعهم من مخالب الجوعِ فصدعَ الزجاج بقبضته، وأهوى بيده إلى الخبز، وإنه ليحاول اختلاسه إذ أدركَهُ الخبازُ، وقد تنبه من نومه مذعورًا على دوي تلك الصدمة، فتخبل الرجلُ في أمره، وطرح الخبزَ وأخذَ يعدو طالبًا للنجاة والخبازُ على أعقابه حتى لحقَ به وتعلقَ بأثوابه، وقد خدشَهُ الزجاج في يده، وساعده خدوشًا كانت هي الشهود على جريرته، فسيقَ إلى المحاكمة، وكان كلفًا بالصيد في الغابات، مدمنًا لحمل بارودته، فلما قبضُوا عليه وكان محتقبًا لها[2] شبه لهم أنه بعض خطفة الصيادين، وهم قوم قد مقتهم الشعب لوهم ديني رسخ في عقيدته، فهو يلحقهم بقطاع السبيل، لذلك وفّوا هذا البائس قسطه من الأذى وزجّوا به في السجن خمس سنين.

وفي اليوم الذي نُودي فيه بنصْر «ديمو نتبوت» كان «جان فالجان» يرسف في قيوده وقد سلكوه مَع رفقة له في سلسلة طويلة الذرع وساروا به إلى سجن «تولون» وقلبه يقطرُ حزنًا على هؤلاء الذين خلفهم بعده لا ترعاهم عين ولا تواسيهم يد.

ولما وصل إلى السجن ألبسوه ملابس المجرمين، ولم يبق له أثر من ماضيه حتى اسمه فقد محتهُ يد الشقاء وأصبح لا يدعي بغير نمرة 24601.

ولا يعلمُ إلا الله ما الذي حَلَّ بعدَهُ بتلكَ الأرملة وأولادهَا، وقد خلّفهم على مدرجة من سُيول الحوادث، يعبث الجوع بأحشائهَم، ويلعَبُ اليأس بأرواحهم، وليس لهم من معين ولا نصير، وقد ركب كل منهم رأسه وهام على وجهه من فرط الجوع، وتغلّل في ظلمات هذا الوجود ولحقَ بمن ابتلعتْهم تلك الظلمات منَ البؤساء، وتشتتوا في البلاد، وجرَّ عليهم الدهر ذيل النسيان فنسيهم حتى ذلك السجين في سجنه، أنسَاهُ إياهم كرُّ الغداة ومرُّ العَشي وتَتَابُع البلاء وتوالى الشقاء، ولم يجرِ على لسانه ذكر أخته في أيام بؤسه، وما ذكرها غيرَ مرة، وقد نقل إلى بعضهم طرفًا من خبرها بعد أن لبث في السجن بضع سنين لا يعلم من

(1) أملق الرجل، أنفق ماله حتى افتقر.

(2) احتقب الشيء، حمله خلفه.

أمرها شيئًا: نُقِلَ إليه أنهُ رآها بمدينة «باريس» تُساكنُ البؤسَ في دارٍ ولم يبقَ لها من أولادها غير واحد، وقد انقطعتْ إلى العمل في إحدى المطابع، فنظرها وهي مبكرة إليها وفي يَدها ولدَها، وقد بلغَ الرابعةَ من عمره، وكانت في دار المطبعة مدرسة للأطفال، فأدخلت فيها ذلك اليتيم، فهي تغدو به كل يوم إليها وتتركه في فناء الدار حتى تحين ساعة الدرس، وكانت تنطلقُ لمزاولة العمل في المطبعة قبل هذا الحين بساعة، فيلبثُ ذلك اليتيم في فناء الدارِ وحيدًا فينزوي في ركنٍ من أركانهَا، ويتوارَى تحتَ ذيْلِ الانكسار، وطالما شاهدهُ من مرَّ به وهو يقصَّقصُ من البَردِ وفي عينيه كسلُ الكرَى، وقد تأخذُ حارس الباب الشفقةَ عليه فيدعوهُ إلى كنّه حتى يفتح باب المدرسة.

هذه هي المرةُ الأولى التي سمع فيها بذكر أخته، وآلمته ذكْرى تلك الأنفسُ التي كان يحبها ولكنه ما لبثَ أن عاد إلى حاله من النسيان، فقد كانَ في قلبه جرح لفراقهم وقد اندمل ذلك الجرح لطول العهد واشتغاله بما هو فيه من العذاب والشقاء.

وما كادَ يطوي أجلُ السنة الرابعة حتى وقفَ عليه الدورُ في الهروبِ فأفلت من السجن، وقد أعانهُ رفاقه على ذلك وكانوا قد تمالئوا فيما بينهم على الفرار بالتعاقب، ولما ظنَّ نفسه ناجيًا لبث يومين هائمًا في فضاء تلك الحرية الموهومة لا يهتدي إلى سبيل.

ولم يستمرئ ذلك البائس لذة الإطلاق والحرية، ومتى كان حرًّا من باتَ مقلقلَ الشخصَ، مروّع العين، منزعج الضمير، طاوي الحشا، يفرق من الفيء، ويفزع من لا شيء، يخيفه الليل تسطو غياهبه فتنسج على بصره غشاوةً تمنعه عن التحرز من الوقوع فيما عساهُ أن يكون قد مدَّ له من الشَّرَاك، ويزعجه النهارُ يغري به الرقباء ويهدي إليه العيون، فهو ما مر به طير إلاَّ فزع، ولا نبحَهُ كلبٍ إلا جزع، ولا دقت ساعةً ولم يدق لها قلبه، ولا لاحَ شبحٌ ولم يطر له لبُّه، فإذا أغفى سَلَّتْ عليه سُيُوفَهَا الأحلامُ، وإذا تيقظَ راشت إليه سهَامَهَا الأوْهَامُ.

فما زالَ يذوبُ فرقًا بينَ تلك الهواجس والوساوس، حتى سَلَّمهُ ظلامُ الليلِ إلى ظلام السجون غرثان[1] ظمآن لم يصب في يومه كسرة من الخبز ولا شربة من الماءَ، وقد امتدتْ أعوامُ سجنه إلي ثمانية بعد خمسة، فدخل السجن وثوبُ شقائه قشيب جديد بعد أن كان خلقًا رديئًا، وقد كان غادرَهُ ولم تبق له فيه إلا سنة واحدة وعاد إليه وقد ولدت له تلك السنة ثلاثًا!

وما زالَ يعالجُ الهروبَ فلا يسرح الفرصة إذا عرضت، ولا يحجم عن الدور إذا آنَ

---

(1) غرثان، جوعان.

وهو كلما ظن أنهُ ناج أدركه عَثار الجد فرده إلى السجن، ومدَّ في أجلِ بقائه فيه، حتى قطع على تلك الحالُ تسعة عشر حولًا.

وخرجَ من السجن وهو لمعول الحوادث صفًا صلدٌ لا تنال منه النوائبُ ولا تأخذ منه الآلامُ بعد أن كان ذلك الرعديد[1] الهلوع دخل فيه وهو بادي اليأس جزوع، وخرج منه وهو كظيم.

وما كان «جان فالجان» خبيثًا ولكنه كان قَدمًا جهولًا على أنه ما لبث أن تلقن في مدرسة الدهر العليا دروسًا ألحقته بمصاف الحكماء، قام بتهذيبه فيها أساتذةُ الأيام والليَالي، فَعلمه القيدُ السكون، وعلمته الأغلالُ الصبرَ كيف يَكون، وأرشدهُ قرع العصَا إلى الاستقامة، وسقاه التعب والنصَبُ مرارةَ الندامة، وانتزعت مضاجع الخشب من جنبيهِ ذلك الطمع، وصهرتْ حرارةُ الشمس ما كان في نفسه من الجشع.

فجلسَ إلى نفسه يحاسبها، وجرّد من نفسه حكمًا على نفسه، وجعل ينظر إلى ماضيه نظرة الحكيم العاقل، إلى ضلالة الأحمق الجاهل، فعلم أنه أتَى أمرًا نكرًا، وأن ما نابَهُ من القصَاص لخليقٌ أن يحلَ به، وقال في نفسه: لقدْ كانت لي مندوحةٌ عن السرقة، فلو أنَي سألتُ الناسَ هذا الخبَزَ لما أبوا عليَّ إعطاءَه، ولو أني أخذتُ بالأناة في الأمر لوجدتُ لي منصرفًا عن ارتكاب هذا العار إما بالسؤال وإنْ كان ذلًا، وإمًا بالعمل وإن كان عزيزًا ولكني تعجلتُ وكان الأخلَقُ بي أَنْ أعتصم بحبْلِ الصبر.

فمن النزر أن يموت المرءُ جوعًا على أنه ما خلق إلا ليعيشَ بين السعادةِ والشقاء، فإن كانَ نصيبهُ في الحياةِ الألم كان حقيقًا باحتماله، وإنْ عظم فما كُلُّ ألم يكونُ للموتِ رائدًا.

فلقد عققتُ نفسي، وعققتُ تلك الأرملة وأولادَها، وحاولتُ الفرارَ من وجه البؤس، فواجهتُ النار، وإني وإنْ زَلَّتْ بي القدم فلستُ بأول الخاطئين فهذا سبيل كل مضطَر عديم.

ولا أزالُ أرى أنهم نظروا إلى هذا الجُرْم من غير وجه فأكبروا الفعل وأفرطُوا في العقاب، وأخذُوا جانبَ شريعتهم في القصَاص، ولم يأخذُوا جانبَ المجرم في الرحمة، ونظروا في ميزان حُكمهم إلى كفة الجزاء، ولم ينظروا في كفة العفوَ عند التوبة. فلسوفَ يُسألونَ عن تلك الحظوظ التي رموا بها في مجرى النحوس، وتلك الأنفس التي ألقوا بها في يد البؤس والشقاء.

وإني لا أرى موازنةً بين الضرر الذي لحق بصاحب الخبز وبين الضرر الذي نزل

---

(1) الرعديد، الجبان.

بي من وراء ذلك الحكم، فإنه وإن لم يأت من طريق الظلم فقد جاء من طريق القسوة والإفراط. وكان «جان فالجان» يُحاكمُ نفسَهُ وهو واجد على تلك الهيئة الحاكمة، وقد أخرجَهُ حنقه عن حدّ الرشد، ولقد يكون الحنق جنونًا.

وما ظنُّك أيها القارئ برجل لم يُصبْ من ذلك المجتمع الإنساني خيرًا، ولم يأنس منه غير هذا الوجه العبوس الذي كانَ يكمن في أثنائه ذلك العدل الموهوم، فهو مادنا منه دان إلا ليدني إليه أذاه، ولا مسه إنسان إلا ليمسه منه الضر، ولا طرقت أذنه بعد موت أبويه كلمة تستروح منها روائح الرفق، ولا وقع عليه نظرٌ تمازجه الرحمة.

فما زالتْ تهادي به الخطوبُ، وتتقاذف به الآلام، وهو يتململ على سيال البلوى حتى أيقن أنَّ الحياةَ حرب، وأنهُ وحده هو المهزوم فيها، وأن ليس لهُ ما يعتد به من السلاح غير ما أمسكه في نفسه من الحقد على العالم بأسره، فهو سلاحهُ الذي أعدَّهُ لمناوأة الأيام ومنازلة الأنام، وكان يشحذهُ في أيام سجنه، ويبالغ في الحرص عليه، وقد رأى أنَّ قوة ذلكَ السلاح لا تكون إلا في قوة الذكاء، فعمد إلى الدخول في مدرسة السجن، وقد تفتق العلومُ بعض الأذهان إلى استنباط وسائل الأذى وطرق الانتقام.

وبعد أنْ فرغَ من الحكم على نفسه وعلى العالم بأسره انتقل إلى الحكم على تلك القوة التي دفعت هذا العالم إلى فعل الشر، وكان بقاؤه في السجن تلكَ المدة الطويلةَ وهو يرزح تحت أثقال الهموم يسمو بنفسه آنًا إلى السماء ويهبط بها آنًا إلى الأرض، فيرى عن يمينه نور اليقين، وعن يساره ظلام الشك، ولم يكن ذلك الرجل خبيثًا عند دخوله إلى السجن، ولكنه أحسّ بسريان الخبيث في نفسه حين جلس للحكم على هيئة العالم، وشعر بدبيب الكفر في قلبه حين جلس للحكم على تلك القوة السماوية.

وهنا يجبُ أن يقفَ بنا التأمل برهةً ونتساءلُ هل يدخل في باب الإمكان أن يخرج الإنسان من طباعه دفعة واحدة فيخالف غريزتَه ويناقضُ نحيزَته[1] ويتحول عن جبلته وينزع عن سجيته؟

وهل لبني البشر سُلطَان على النفوس يحولها عن الفطرة التي جُبلت عليها فيردَّ منها إلى الخباثة ما فطر منها على الطيبة؟

وهل يرتبطُ شقاء الحظوظ وعثار الجدود بفساد النفوس فإذا حمق حظُّ المرء وَلجَ به عثار جده خبثت نفسه وساءت فعاله؟

وهل يخضعُ القلب لسلطانِ الحوادث خضوع الأعضاء فتدعوه إلى الاستكانة أمامها كما يدعو العبء الثقيل الظهورَ إلى الانحناء؟ وهلْ لا يوجد في نفوسِ

(1) النحيزة، الطبيعة والسجية.

البشر نورٌ سماوي لا يذهبُ بسنائه الشكُّ ولا تطمسهُ الضلالةُ فيبقى ساطعًا في تلكَ النفوسِ يفجُّ منه نور اليقين وَتنبعث منه أشعةُ الهدى؟

تلك أسئلةٌ يدرك الحكماءُ عندها الحصر، ويعجزُ الباحث في علم الأعضاء عن الإجابة على أخيرها، فلو أنهُ نظرَ «جان فالجان» وهو في سجن «تولون» وقد وافت ساعةُ الراحة من عناء الأشغال فانتقل من ألم الجسم إلى ألم الفكر لرأى رجُلًا يقطر حزنًا ويذوب كمدًا، يزدهيه الصمتُ ويغوص به الفكر في بحار من التأمل، أنشبتْ فيه الشرائعُ أظفارَ الظلم، فجعلَ ينظر إلى العالم بعينِ الحقد والحرد وأخرجته المدينةُ عن حدّ الرحمة، فجعل ينظر إلى السماء بعين السَّخَط ولرَأى مَريضًا داءُهُ في النفس لا في الَجسد، وقد عزَّ عليه الشفاءُ، ولوقفَ علمه عندَ حد التوجع له، ولصرفَ نظره عن تلك القروح التي تسكن في هذه النفس المجروحة بسهام الشرائع الجائرة.

ولرأى رأيَ ذلكَ الفيلسوف «دانتي» فعمدَ إلى محو كلمة الأمل التي رسمتها يد القدرِ على جباه البشر.

ويا ليتَ شعري أكانَ يحسُّ ذلكَ البائسُ بذلكَ الوجدان الذي نحس به لهُ؟ وهل سَمَتْ مداركه إلى معرفةِ كنه ذلك الشقاء الذي أتيح له؟

ولما حانَتْ ساعةُ إطلاقه من القيود، ورن في أذنه قولهم له: إنكَ حُرٌّ منذ اليوم دبت في نفسه الحياةُ، وشعرَ بأشعة من الأمل تمحو من ظلام ذلك اليأس الذي سكن في نفسه منذ تسعة عشر حولًا[1]، ولكنهُ ما لبث أن عاودته نزواتُ الألم حين علم أن إطلاقه سيكون مشفوعًا بتلك الورقة الصفراء، وانقبضَ لتلك الجولة من الفكر وجه أمله وأيقن أنهُ لا زالَ في قيد لا تصل يده إلى صدعه، وأنَّ هذا الحكم قد وكل به زبانية من العذاب فهو في أسر السجون مثله في تلك الحرية الموهومة لا تزال تكلؤه عين البؤس والشقاء.

وأخذَ يفكر بعد ذلك في الثروة التي جمعها أيام محنته مما كان يصيبه من الأجور على عمله في السجون فظنَّ أنهُ أصبح ربًا لثلثمائة وثلاثين غرشًا، ونسَى أن أيامَ العطلة من كل أحد وما يلتحقُ بها من أيام المواسم قد قرضت من رأسِ ماله ستة وتسعينَ غرشًا، فلمْ يطرحْ من حسابه ذلك القدر العظيم، ولا تسل عما حَلَّ بنفسهِ من الجزع حين ألمَّ بهذا الخسار، وَذلك الغبن المبين.

وفي اليوم التالي ليوم تسريحه من السجنِ مَرَّ بمدينة «كراس» على معمل من الأزهـار به قوم يعملون وكانوا في فقر إلى المَعونة لعدم الفسْحَة في الوقت وطلب سرعة الإنجاز في العمل فعرضَ على ربِّ المعمل نفسه فألحقه بأولَئك العملة.

(1) الحول: السنة والعام.

وكانَ «جان فالجان» لا يعرفُ التعبَ ولا يألفُ المَلال فعكف يعمل بخبرة ومهارة، وسأل في أثناء ذلك عن الأجر الذي يصيبه العامل في يومه فقالوا له ثلاثونَ صلدياً، ولكنَّ ربَّ المعمل لم ينقده على عمله غير النصف حين علم أنهُ يحملُ تلك الورقة الصفراء.

فقال «جان فالجان» في نفسه: تلك هي الخطوةُ الأولى في سبيل هذه الحياة الجديدة، وهذا كله ببركة تلك الورقة الصفراء، فلعنة الله على كل ذي لون أصفرَ غيرَ الذهب.

فإني وإن كنتُ قد نجوتُ من السجون فلا أظن نفسي ناجيًا من جَوْر ذلك الحُكْم.

هذا ما حلَّ به من الغبنِ في مدينة «كراس» ولم ينسَ القارئُ ما أصابه في مدينة «ديني».

ولما كان السَّحَر تيقظ الضيف من نومه أيقظهُ لينُ الفراش ونعومة الملمس، وقطع عليه غرارة ذلك السرير الذي لم يكن له به عهد منذ عشرين حولاً، وقد حنَّ جنباه إلى مضاجع الخشب واشتاق رأسه تلك الوسادة من القش، وكان قد هجعَ ثلثا من الليل فسرى عنه التعبُ، فهبَّ وقد عاودَهُ النشاط، وكانتِ عادته أن لا يهجعَ إلا قطعًا من الليل، فلما تنبهَ أخذَ ينظرُ يمنة ويسرة ثم أهوى برأسه إلى الوسادَةِ وجعلَ يعالجُ النوم مِنْ جديد.

ومَنْ قضى يومه بين الألم والاضطراب، ثمَّ أخذَ مضجعه بعد ذلك كان النومُ إلى الحلول بمقتلهِ أسرعَ منه إلى سواه، ولكنه إذا تيقظَ فقلما يجد النومُ إلى عينه سبيلا.

كذلكَ كانَ «جان فالجان» فقدْ استعصى عليه النومُ وأدركَـهُ الأرق، وانتابته الهواجسُ والأفكار، وجعل يتنقل به سيالُ الفكر من مكان إلى مكان، وقد مرَّت أمامه تلك الحوادثُ الغابرة مرور الصور المتحركة، وهو كلما نزلت برأسه فكرة أدركتها على الأثر أختها فلا تفتأ تطاردها حتى تغلبها على مكانها، فما زال رأسُه مسرحًا لسوانِح الأفكار، وميدانًا لسوابق الأوهام، حتى نزل به فكر فألقى فيه عصا التسيار، وأقسمَ لا يبرح أرجاءه وكان مبعثه من تلك الأواني الفضية التي لمحها ذلك الشقي على مائدة العابد عند تناول العشاء، ولمح الخادم وهي تضعها في أحد الأركان من مخدع نومه على مقربة من سريره.

فسولت له نفسه أن يذهبَ بها، وقد قوَّمها بضعْف ما كانَ يملكهُ يومئذ من المال، وكلما حاول أن يُثني عَنانه عَنْ ركوب طريق العارَ أبَى طَمَعه إلا أنْ يقفَ به على رأس تلكَ الطريق، فلبث ساعةً وهو يحاربُ تلكَ العَزيمة ويكافحُ شيطانَ هذه النفس الخبيثة حتى تغلبَ عليْهِ الطمعُ، وزين له الشيطان اختلاس تلك الأواني فثار من مرقدهِ، وهمَّ

بمزاولة ذلك العمل. ثم عاودَهُ الترددُ، فجلس على سريره وهو من نفسه في حرب عوان، ومد يده فتحسس متاعه والتمسه في الظلام، فمسح عليه بيده وقد كان على قيد ذراع منه، ومن رآه وهو على هذه الحال في جوف تلك الحجرة تحت أستار ذلك الظلام رأى رجلًا خرج به فرط التأمل عن حد الشعور بما حوله، وقرأ على وجهه سطورًا من الشؤم رسمتها عليه يد الشر الذي كان يجول في نفسه.

ولولا أن دقت ساعةُ الحائط فانتشلتهُ من فرار تلك اللجة التي نزل به إلى قعرها غواص الفكر للبث كذلك حتى الصباح.

فثارَ من مكانه وخلعَ نعليه وكان لم يخلعهما عند النوم، والتمس عصاه، واحتقب متاعه وتهيأ للعمل وأخذ سمته إلى مخدع العابد، وعلق أنفاسه وأخمد صوت أقدامه، ومشى على أطراف أصابعه حتى إذا بلغَ البابَ تسمع فلم يسمع شيئًا، فدفعَهُ بطرف البنان وهو أشد ما يكون احتراسًا كأنه هرَّةٌ تحاولُ غشيان ذلك المكان، فلانَ لهُ البابُ، ودار على عقبه بحركة لم يَسْرِ إلى السمع صوتٌ لها.

فلبثَ غير بعيد ودفعه دفعة ثانية كان فيها أشد جراءة منه في الأولى فازدادَ لينًا حتى فتح له طريقًا يسع مروره لولا منضدة من الخشب كانت معرضة فيه قد دعته إلى طلب الزيادة في انفراجه، فألم «جان فالجان» بحرج الموقف، ولم يرَ بدًا من الإقدام، فدفعَ البابَ مرة ثالثة أشدَّ من أختها، وكان البابُ على ظمأ إلى قطرات مَن الزيت، فصرَّ لتلكَ الصدمة صَريرًا[1] دوّى لهُ في هذه الظلمة صوت جاف، فاحتوتهُ الرعدةَ، وكادتْ تقفُ ضربات قلبه من الهلع، ولبثَ كمن أخذتهُ الصيحة وقد نُفخَ في الصُور، ومثَّلَ له الفزع ذلك الباب وقد تحوَّل إلى كلب عقور رابَهُ سوادٌ مقبل فجعلَ ينبح نبيحًا يكفي لإيقاظ أهل الكهف فكيف بأهل ذلك البيت؟ وظنَّ أنهُ لا محالةَ هالكٌ، وخال عروقه وهي تنبض في صفحتيه مطارق تطرق الحديد، وأن أنفاسه تصفر صفير الرياح في بطون الكهوف والمغاور، وأنَّ ذلكَ الباب قد زلزلَ الأرض زلزالها، فزعزع أركان المنزل، وأن هذا الصوت النكير قد أنذر الناس بالكبسة، فما هو إلا أن ينتبه العابدُ وهاتان المرأتان حتى يقع في قبضة العسس فيعيدوه سيرته الأولى.

ولبث حيث كان لا يقدر على الحركة وهو كأنه بعض الأنْصَاب، حتى سكت عنه الروع ورأى الأمر أيسرَ مما كان في نفسه فمدَّ بصره داخل الحجرة فإذا العابد يغط في نومه، وأصغى بأذنيه فإذا الدارُ في سكون الرمُوس[2].

فخفض من جزعه، ودعا إليه الأقدام، وخطا خطوة، فإذا هو داخل الحجرة فجعل

---

(1) الصَرُ، شدة الصياح، وهو سماع الصوت بَدويٍّ وارتفاع. (2) الرموس، وهو القبر.

ينقل أقدامه باحتراس كراهة أن يصطدم بشيء من الأثاث وإنه ليختلس الخطى إذْ برز القمر من وراء غمامة كانت تغشاه، ورمى جرمه على تلك الحجرة فأنارها، فنظر «جان فالجان» نفسه على قيد شبر من سرير ذلك النائم.

وكأن الطبيعة لم تزحزح هذا النقابَ عن وجه القمر في تلك الفترة إلا لتوضحَ لعيون الكون عمل ذلك الجاني لعله يَذّكرُ أو يخشى، فلقد كان القمرُ منذ زمن لا يتعدى شطر الساعة مقنعًا بغمامة سوداء، وقد انجلتْ عنهُ في اللحظة التي أوشك فيها أن يعثرَ هذا الشقي بأعواد السَّرير.

ومَنْ رأى ذلكَ المضطجع على فراشه رأى رجلًا قد قامَ على رأسه حارسَانِ من المهابة والجلال يتألقُ في وجهه نورُ اليقَين ويجولُ في مُحيَّاهُ ماء البَشر، وترتسمُ على وجهه آياتُ الرضا والقبول، وتكتسي شفتاهُ بابتسامةِ الأملِ الفسيح، ويتأرَّجُ[1] مِنْ أردانه ريح التوكل.

ولقدْ راع هذا الواقفُ جلالَ ذلك الموقف، فجعل ينظرُ بعين الإكبار إلى ذلك الجسد الذي سكنَ فيه التقى، وتلك الروح التي باتت تسنح في عالم الأسرار وتسبح في ذلك الملكوت السماوي.

وكانت لله مشيئة في ذلك الراقد فقد أفاضَ عليه من أنوار الهدَى ومنحهُ من آيات المهابة والجلال مَا جعلَهُ مهيبًا في اليقظة والمنام، لذلكِ كان«جان فالجان» وهو مقيد في مكانه بقيد من الخشية ينظرُ إليه وقد تمشت العظةُ في نفسه، وامتلأتْ عينهُ جمالًا وأفعَم صدرهُ جلالًا.

ولا يعلمُ إلا الله ما كان يمتزجُ بأجزاء نفسه من الانفعال وهو يدمنُ النظر إلى ذلك الراقد الذي تنتشر على وجهه طبقةٌ من النور السماوي تمازجها نفثة من الروح الإلهي الذي أنارَ الله به بصيرته وأضاء سريرته فتلألأ في وجهه، والوجهُ مرآة الضمير.

وزادَتْ بهجةُ البدر في بهجة ذلك النائم فكان يراهُ «جان فالجان» في نور فوق نور، ولم يزلْ واقفًا في مكانه، ولم يَحول بصره عنه وما شكَّ من رآه في أنه يتردَّد بينَ أن يهوي بعصاه إلى تلكَ الجمجمة فيشجها أو يهوي بفمه إلى تلك اليد فيقبلها.

كل ذلكَ والعابدَ غارقٍ في نوم، ولم تقطعه عليه تلك النظرات المريبة حتى حانت من «جان فالجان» التفاتةٌ فرأى الصليبَ وهو باسط ذراعه وكأنه يومئ إلى أحدهما بالوقاية، وإلى الثاني بالمغفرة، فأغرته تلك اللفتة في الإسراع في العمل.

فاندفعَ يمشي إلى الأمام حتى وقف عند تلك الأواني الفضية وهي في سفطها

(1) يقال: أرج الطِيب وتأرج فاح ريحه.

فتناوله ورجع أدراجه ومرّ بجانب السرير بقدم مطمئنة وجأش رابط، حتى إذا جاوزَ البابَ انحدرَ إلى الحديقة فألقى بالسفط على الأرض بعد أن نقلَ إلى خُرْجه ما كان فيه وتسوَّرَ الحائط ونجا بنفسه وخرج مع البازي عليه سواد.

ولما توفَّى الليل النهار هبَّ العابدُ من نومه، وخرجَ يجولُ في حديقته وكانت تلك عادتهُ عند كل صباح فلمح الخادم وهي تهرولُ إليه، وهي تنادي أيعلَمُ تولى الله حراسته أينَ سفط الأواني الفضية؟

فأشارَ العابد إليه وكان مطروحًا على مقربة منه وقال: أليس هو هذا؟ قالت: كأنه هو، ولكن أين أوانيه؟ قال: هذا ما لست أدري فصاحت الخادم: كانَ الذي خفتُ أنْ يكون، فلقد فقدتُ تلك الأواني، وأكبرُ ظني أنَّ ذلك الرجل الذي غشيناه بالأمس هو الذي ذهب بها.

ثم طفقت تجري إلى حجرة الرجل وعادت على الأثر وهي تقولُ: نعم ذهب بها فلا بورك له فيها، ولاحت منها التفاتة فرأت آثارَ أقدامه مطبوعة على أرض البستان فجعلتْ تترسمها بالنظر حتى انهتْ بها إلى إحدى زواياه فشاهدتْ آثار تسلقه الحائط فقالت: منْ هُنَا أخذَ طريقَهُ ومنْ هُنَا ظهر الحائط.

وما زالتْ تبدي وتعيدُ وسيدها صامت اللسان وما زاد على أن قال: ومتى كنا نحنُ أصحابًا لتلك الأواني؛ ألم تكن هي من نصيب الفقراء وقد حبسناها عنهم، ولقد أصاب الرجل في فعلته فإن هو إلا أحدهم، وقد وقف به نصيبه عليها، فلا تجزعي فليس في الأمر ما يدعو إلى الجزع، وهذه أواني القصدير أو صفحات الخزف تكفينا مؤنة الأسف على ضياعها.

ثم غادرها وانكفأ إلى حجرته، ومَا كادت تحتويه حتى سمع قرعًا على الباب فقال أتيتَ أهلًا أيها المبكرُ، فانفتح الباب وظهرَ على عَتبةِ الدار ثلاثةٌ من الرجال قدْ أخذُوا بخناقِ رابع منهم.

فمدَّ العابدُ بصره فإذا ثلاثتهمُ من الجنْد وإذا صاحبه بالأمْس يكاد يذوب بينهم فرقًا[1]. فقال لصاحبه وقد هبت من شمائله روائح الكرم: لقد نسيتَ عند انصرافك عنَّا أنْ تقرن هذين الشمعدنين إلى تلكَ الأواني الفضية، وأنتَ تعلمُ أنك ربها منذ الأمس. وما أنساكَ أنِ تذكرها إلا شيطانُ العجلة، فخذها فلعلك أنْ تصيبَ منْ ثمنها ما تصلحُ به منْ شأنكَ.

ثم التفت إلى الجند وقال لهم لقد آذيتموني في ضيفي إنه خير مما تظنون.

---

(1) فرقًا: خوفًا شديدًا.

والتفت بعدها إلى صاحبه فقال له والبشر يجول في محياه: إذا شئت زيارتنا منذ اليوم فلا تجعل طريقك على البستان فإن لك لمندوحة عن احتمال مشاق الصعود والهبوط وهذا بابنا لا يغلق في وجه الطارق وما هي إلا أن تدفع الباب حتى تكون في وسط الدار. ولما تم انصراف القوم قال له لقد جعلت لي عهد الله أن تنفق ما أخذت في رياضة نفسك على البر والتقوى فلا تنكث مع الله عهدك. فلبث الرجل مبهوتًا عند سماع ذكر ذلك العهد الذي لم يأخذ على نفسه القيام به فقال له العابد اعلم أنني اشتريت نفسك بعد أن سللتها من يد الهلاك ثم وهبتها الله فلا تكن عليها من المسرفين. وخرج الرجل من المدينة كمن يحاول الفرار ومضى على وجهه تقاذف به الطرقات وتهادي به الحقول ولا يشعر لفرط ما نزل به أكان يقبل أم يدبر ولا يعلم أنه كان يضرب في قطعة من الأرض ولا يتعداها.

وهكذا قضى سراة يومه هائمًا في أودية التيه والضلال ولم يشعر بألم الجوع وإن كان لم يذق طعامًا فسار وهو يكاد ينشق غيظًا ولا يعلم إلا الله على أي شيء قد أمسك هذا الغيظ في نفسه ولعله سرى إليه من ندامته على ماضيه أو من خذلانه في حاضره وكأنه كان يحس برقة قد أدركت فؤاده وأخذت تقرض من أطراف غلظته فتضعضع نفسه كما شعر بانزعاج تلك الغلظة التي أسكنها في فؤاده ذلك الظلم الثابر وأيدها فيه هذا الجد العاثر وجعل يتساءل في كل آن عما عساه أن يحل محلها ويؤثر العودة إلى السجون على البقاء على تلك الحالة التي لا يعلم ما أتاها.

وكان على عطفي طريقه سياج تطل منها أزهار وقد أخطأتها أيدي الجناة فجعلت تهيج فيه ذكرى الصبا كلما تنسم منها ذلك الأرج الفياح الذي لم يكن له عهد به منذ ابتدأت أيام محنته. وقد بلغت من نفسه تلك الذكرى ما لم يبلغه البؤس والشقاء وكذلك قضى يومه على غير استواء.

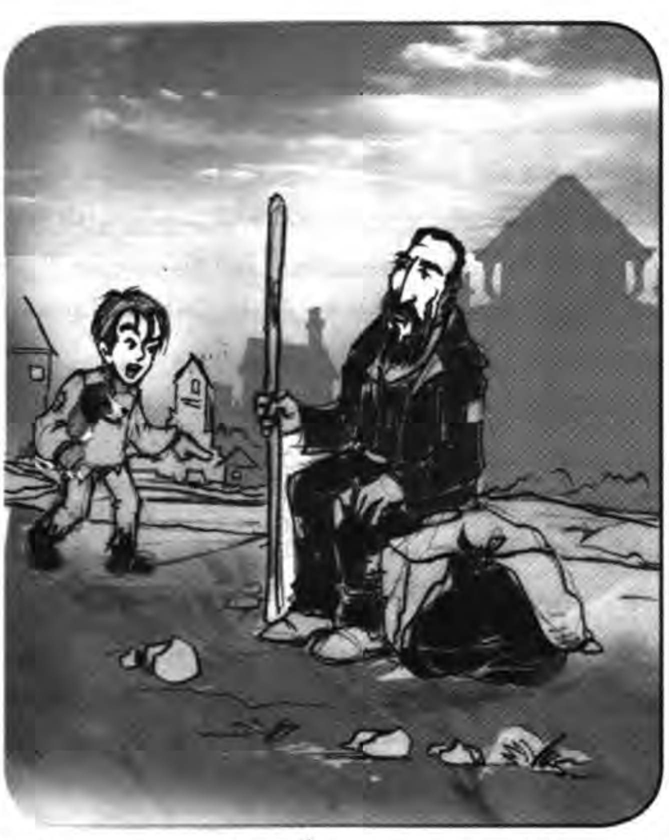
ولما كان الأصيل وقد رسمت الشمس على سطح الأرض ظلال الحصى كان «جان فالجان» مضطجعًا في جوف خضراء ليس فيها سواه وقد مر برأسها وقد مر برأسها طريق معبد ينتهي بمدينة «ديني» تلك التي لاقى فيها صنوف الشقاء.

وإنهُ ليفكرُ في أمره وفي تلك الأسمال التي كانت مثارَ النفور لكل من يراها إذ أحسَّ بوقع أقدام، فاستوى جالسًا فإذا هو يرى سوادًا مقبلًا فتبينه فإذا هو غلام يعد من العمر اثنتي عشرةَ سنة، وهو يحتقب جُرَّةً لهُ، ويحمل حيوانًا صغيرًا جعله وسيلةً لرزقه، وقدْ شهد ما كان عليه من الأطمار البالية بعرافته في الفاقة، وهو يغني بصوت رخيم، ويلاعب الجوَّ بقطع من الفضة كانت مبلغَ ثروته في حياته.

فإنهُ ليلهو بقذفها في الجو والتفافها إذْ هوت كُبْراها إلى الأرض وأخذت تجري على قطرها إلى حيث كان «جان فالجان» مستترًا عن نظرِ ذلك الغلام خلفَ تلك العواسِج[1].

فما هي إلا أن انتهت إليه حتى كان أسرع من السهم في ممره إلى وضع قدمه عليها ليحجبها عن نظر ربها الذي كان يحرصُ عليها حرصَ الموت على النفوس، ويترسمُ أثرها بنظرٍ يكادُ ينهبها وهي تجري على الأرض نهبًا.

ولما علمَ بمقرها وثبَ إليه فإذا هو يَرى عندها رجلًا فلم يأخذه الروع ولم يعتره الدهش.



وكان الطريقُ إذ ذاكَ خاليًا من المارة ولا يسمع في هذا الجو الفسيح إلا قطقطة[2] سرب من القَطَا تسبح في الجو على قيد مرمَى السهم.

فوقفَ الغلامُ في وجه الرجل وقد ألقى الشرق[3] في شعرِ رأسه سُلوكًا ذهبيةً ونشرَ على سحنة ذلك الفاتك طبقةً تعلوها حُمْرَةُ النجيع[4]، وقال له بصوت يمازجه ارتياح الغلمة وسكينة الأبرياء: أينَ قطعتي؟ فمد الرجلُ بصرَهُ إليه وقال: من أنتَ؟ قال: أنا «فوجي» الصغير.

---

(1) العوسج، نبات له شوك، ويقال للشجر الكثيف.

(2) صوت القطا. (3) بمعنى الشمس. (4) بمعنى الدم.

فانتهرَهُ الرجلُ، ونكسَ رأسه، وتصامَّ عن سماع كلامه، وأخذ الأول يلحف في السؤال، والثاني يبالغ في السكوت حتى ضاق الغلام ذرعًا، وأهوى إلى ذلك الشيخ وأخذ بمجامع طوقه وجعل يعالج تحويل قدمه عن تلك القطعة الفضية.

فزمهرَ الرجلُ في وجهه، ومد يدَهُ ليلتمسَ عصاه، فأثارتْ تلك الحركة نخوةَ الغلام فأغلظَ في القولِ حتى أَحْفَظَ[1] ذلك الشيخ فثارَ من مكانه وإهابهُ يكاد يتمزق غيظًا، وصاح به إن لم تَنج بنفسك فلا نجوت بها بعد اليوم.

فارتاع الغلامُ لوعيد ذلكَ الفاتك وأطلقَ للريح ساقيه وجعل يعدو ولا يلوى حتى غابَ سواده وقدْ غابت الشمسُ.

ولبثَ الرجلُ في مكانه حتى سقطتْ عليه غياهبُ الظلام وهو غائصٌ في لجج من الأفكار وكأنهُ كان ينظرُ إلى أصل شجرة كانت هناك، وقد وقفَ نظره عليها ولم يتحول، ولولا قشعريرة سرتْ في جسمه من قُرة ذلك المساء لما عاد إلى نفْسه من غيبوبة هذا الفكر الطويل، ولما أحسَّ بوخز القرّ همَّ بالتحوّل عن هذا المكان فأَصلح عليه أثوابه وانحنى ليأخذ عصاه فأخذ نظره تلك القطعة الفضية، وقد كادتْ تسوخ في الأرض فاحتوته الهزة وجعل يغمغم ويهذي وكأن أجفانهُ قد شدَّت إلى تلك القطعة بأهدابها وكأنما هي عينٌ ترميه بنظرات تخترق أحشاءه.

ومرَّت عليه فترةٌ وهو على تلك الحال، ثم أخذ يغالبُ اضطرابه حتى ثاب إليه السكونُ فاندفع إلى الأمام وانقضَّ عليها انقضاض القضاء.

ولمَّا صارتْ في يده أخذ يستقرئُ بنظره ذلك الفضاء، ويدور بعينه في أرجائه وما شك من رآه وهو على تلك الحال في أنه ضار من الوحش يلتمس مربضًا يستكن فيه على أنهُ ما كانَ يرى في تلك الأنحاء إلا ضبابًا قد أعارهُ الشفقُ لونه الوردي، وقَدْ مدَّ الظلامُ على الأرضِ رواقًا يقصر فيه قاب العين.

فشرعَ في السرى، وقد لبس الدُّجَى وتغلغلَ في هذا الفضاء وطفقَ يهرول في مشيته، وركب تلكَ الطريق التي نجا منها ذلك الغلام المغبونُ، وما هو إلا أن خطا فيها بعض الخطوات حتى وقف بغتةً ورفع عقيرته ينادي باسم ذلك الغلام رجاء أن يسمعه فينقلب إليه، وكان يتسمع فلا يسمع شيئًا فما زال يعدو ويصيح وقد ابتلع هذا الظلام شخصه، ومزق ذلك السكون صوته حتى يأس من لحاقه.

ولو كان الغلام بحيث يسمع ذلك الصوت النكير لما سكنَ إلى إجابته، ولضاعف من عدوه وبالغ في اختفائه طلبًا للنجاة من غائلته.

---

(1) أغضب.

وإنَّ اليأس لينهَبُ فؤادَه نهبًا إذا بصر بشبح يخوض في أحشاء هذا الليل البهيم فدناه فإذا به رجل يحمل إشارةَ الرهبان وقد امتطى جوادًا فاستوقفه وسأله بلهفة الحائر ألم تعثر في طريقك أيها الراهب بغلام صغير؟ فقال: كلا. قال الرجل: إني أنشد غلامًا فقيرًا وأحسبه يُدْعَى «بفوجي» قال: لم أرَ أحدًا، فضرب الرجل بيده إلى جيبه وانتزعَ منه قطعتين من الفضة وقال للراهب: خُذْ هاتين وأنفقهما في سبيل الله، وفي مؤاساة ذوي المَتْرَبة[1] وإنني أدعوك بالله أنْ تقودَني إلى السجن فأنا بعضُ المجرمينَ فما كادتْ تستأذنُ هذه الكلمات على سمع الراهب حتى همزَ جوادَهُ فمرّ به مرورَ الطيف، وغادرَ ذلك البائسَ في مكانه، وهو كأنهُ بعض الأنصاب، فلم تكن إلَا لحظة حتى استأنف السُّرى، وطفق يعدو ويصيح كأنه خُولِطَ في عقله، وجعل كلما مرَّ بجذع أو بشجرة مَثَّل لهُ الوهم أنهُ يرى إنسانًا جاثمًا أو واقفًا فيعطف عليه عطفة المستخبر عن ذلك الغلام!

كذلك كانت حالُه حتى بلغَ مكانًا تلتقي عندَهُ سُبُلٌ ثلاث، وقد درجَ القمرُ مِنْ حجْرِ أمه، فجعلَ يدعُو باسم الغلام وصوتُه يذهبُ في هذا الفضاء، وقد انقطعَ عنَ إجابته كل شيء حتى الصَّدَى، فعجزَ عن التماسك، وانحلت عزائمه، وقد ناءَ به كلكل القضاء، فسقط على حَجَرٍ هناك وقال وهو مكب برأسه على ركبتيه: «أشهدُ أني بائس».

جالَ الدمعُ في عينينِ لم يسبح إنسانهما فيه منذ عشرينَ عامًا وكأنه كان ينبعُ من ذلكَ القلب الذي صَدَّعَتْهُ الخطوب.

***

خرجَ هذا الرجلُ من عند العابدِ وقد علمنا ما كانَ من أمرهِ وأنهُ لم يكن لهُ من نفسه ما يحاسبهُ على عمله.

فما وَجدت العظاتُ إلى قلبه سبيلًا، ولا كانَ لتلك الأخلاق الفاضلة سلطانٌ على أخلاقه، ولا وَصَل ذلك القولُ الكريمُ إلى فؤاده، ولا ظفرت حكمةُ العابد بعلاج تلك النفسَ التي نفرت من الهدى نفارها من طبائعَ الأبرار وتحصنت في معقل من الضلال، لا تبلغه العظمة، ولا تعمل فيه الزواجر.

وكانت رنةُ تلك العظات لا تزالُ تفتق طَبْلَتي أذنيه فيقع في نفسه منها ما يقع، فيبالغ في صدّها، وتبالغ في كيده، حتى أوشكت أن تأتي على قوة الشرّ فيه، وتستل من قرارة نفسه ذلك الحقد الكمين.

وقد بدأ يشعرُ في هذه المرةِ بأن صفحَ العابدِ عن زلته كان طليعةً لكتائب المقادير

---

(1) المتربة: الفقر.

التي خذل أمامها عناده، وأنه ليجني على نفسه إن هو أبي إلا الإصْرَار على ذلك العناد والحفاظ، والتمسك بذلك الحقد الذي وقره في صدره على جنس البشر، وقد وجبَ عليه أن يخرجَ من تلك الحرْب إما قاهرًا أو مقهورًا، تلكَ الحربُ التي قامتْ بين نفسين، نفس اتخذت من تقوى الله جندها، ونفس جعلت حزب الشيطان حزبها!!

ولما تعذّرَ عليه المخرج، وضاقَ به الأمرُ، ثارَ من مكانه وأخذ بسري على ضوء ذلك النور أوشك أن ينير سريرته. ويا ليتَ شعري هل كانت تعاودهُ إذ ذاك ذكرى تلك الليلة التي قضاها في مدينة «ديني»؟ وهل كان يسمع صوت ذلك الهاتف السماوي الذي باتَ ينذره بعقباه ويكل له الخيار بين خلتين، إما نزوع عن الغواية فسمو إلى مقام الأبرار، وإما استرسال في الضلالة فهبوط إلى قرار الفجار، ويوضح له سبيل الحياة بين أمرين، إما سعادة دونها سعادة ذلك العابد، وإما بؤس خير منه بؤس المصفد في السجون؟

وسبيلهُ في الأولى أن يحلل بحرارة التوبة ما علقَ بأجزاء نفسه منْ بقايا ذلك الشرٌ فيصبحَ مَلَكًا نقيًا، وفي الثانية أن يلوِّثها بحمأة الغيِّ والضلالِ فَيُمْسِي طريدًا شقيًا.

وهنا نفتح المجال لتلك الأسئلة التي عرضناها على القارئ منذ العهد القريب، ولا زلنا نقول إنَّ الخطوب تفتق الأذهان، ولكنا لا نعلم علم اليقين أكان لها أثر حتى اليوم في فؤاد ذلك الرجل ولعلها كانت تحضره في حين اضطرابه فتزيده حيرة وخبالا!!

فلقد أحدثَ في نفسه صنع الجميل على أثر خروجه من السجن وقرب عهده بالشقاء ما يحدثه الضوءُ الباهرُ وقد قرعَ عينًا حديثةَ العهد بحالك الظلام.

ولما تجلتْ لهُ تلكَ الحياة الجديدة في أعلى مجاليها، وتراءى لهُ آتيها يَرْفُل في ثياب البهجة والبهاء، أزعجهُ ذلك المرأى فلم يستطع فيه صبرًا وقد بهر نور الفضيلة ذلك البائس، فرد منهُ الطرف وهو كليل. وما كان «جان فالجان» اليوم هو ذلك الغصوب الذي سلب الغلام قطعته بالأمس وغلبه على أمره، ولا هو بصاحب تلك الفعلة الشنعاء. وإنما صاحبها هو ذلك الحيوانُ المفترس الذي دفعتهُ الفطرة الوحشية إلى ارتكابها بينا كانت نفسه تسبحُ في سماء تلك الحياة الجديدة التي أكبرتها. فلقدْ فعلَ بالغلام ما فعل مسوقًا بقوة الشر التي مزجتها بأجزاء نفسه مخالطته للأشرار في أيام سجنه ولا يدري أغيًا كان يفعل أم رشادًا!!

وحين أنست عينه بذلكَ النور، وسكنتْ نفسه إلى صحبة التقى، وردت إلى طبعها رد الحسام[1] إلى قرابه، علم أنه أتى عظيمًا وارتكبَ جسيمًا، فكادت تتزايل أعضاءه رهبةً، وتسيل نفسه جزعًا.

(1) الحسام، اسم من أسماء السيف.

وفعلتْ به تلك الصدمةُ فعلها، ومزقت ذلك الغشاء الذي نسجته على بصيرته أيدي الخطوب، وفصلت في نفسه بين الحق والباطل، فعلت بالأول وسفلت بالثاني كأنها ذلك الجوهر الكتاف الذي يلقى به في المزيج ليباعد بين أجزائه، فتراه وهو يطفو[1] ببعضها، ويرسب ببعضها الآخر.

وقبل أن يلم بما ألمَّ به أو يدركَ مأتي تلك الحال التي وصل إليها طفقَ يجري خلف ذلك الغلام ليرد إليه ما سلبه إياه حتى إذا يئس من لحاقه، وقف ينظر إلى ماضيه فأنكرت نفسُهُ نفسَهُ.

أنكرتْ نفسهُ الجديدة تلك النفس التي صحبته منذُ عشرينَ عامًا، وشُبِّهَ لهُ أنه في عالم الأحلام وأنه يرَى أمامه طيفًا يمثل له إنسانًا، قد نحست طلعتُه، ولؤمتْ غريزته، وخبثت طينته، قد قبض بيده على عصًا وحمَّل ظهره حقيبة ملؤها السلب، وقد كتبتْ يد البؤس على جبينه ذلك الاسمُ الممقوتُ «جان فالجان».

وخرج به هولُ ذلك الموقف عن حد الإدراك، فرسخَ في نفسه أنه يرى ذلك الشبح رأي العين وأنه يرى أمامه «جان فالجان»، فجعل يقابلُ بينه وبين ما يرى، وكأنه ينظرُ في مرآة قد رقَّ ماؤها.

وإنهُ ليجرعُ كأس الغضاضة من يد تلك المقابلة، إذ لمح ضوءًا سرى في جوف ذلك الليل فحسبهُ للوهلة الأولى ضوء مصباح، ولكنه ما لبث أن رآه ينمو ويتشكل في صورة البشر حتى كمل إنسانًا سويًا، ثم أخذ يدانيه شيئًا فشيئًا حتى تبين فيه وجه ذلك العابد، وما هو إلا نور الفضيلة قد تمثل في صورة الرجل الكريم، فجعلَ ينظرُ بعين البصيرة إلى هذين التمثالين القائمين أمامه، ويقف بنظره على العابد تارة وعلى «جان فالجان» تارة أخرى.

وبدأ يتضاءلُ أمام عينه تمثال ذلك الجاني حتى انمحَى رسمه، وبقي العابدُ وحده في ذلك الهيكل النوراني!!

فراعَ الرجلَ جلالَ ذلك الموقف، تزاحمتْ دموع الرهبة في عينيه على الخروج.

فما زالَ ينتحبُ انتحابَ الطفلِ ويبكي بكَاءَ الثكلى، حتَى سطعَ من خلالِ دموعه فجر الحقيقة، وبزغت على أثره شمس تلك الحياة الجديدة التي لم يستمرئ لها لذة قبل اليوم، وتراءتْ لهُ صحيفة أعماله وقد سجلت فيها مخازيه، فجعل يقرأ فيها

---

(1) يطفو، يعلو.

سطور ماضيه، فنظر جريمته الأولى وعلى يمينها التوبة والاستغفار، وتمثلت لهُ غلظة قلبه وفظاظة طباعه، وذلك الانتقام الذي أضمره للناس في يوم تسريحه، ثم رأى كل ما اقترفه على العابد وما جناه على الغلام.

كل أولئك كان عليه مسطورًا، ووجد ما عمل حاضرًا ولا يظلم ربك أحدًا.

فسرًى وهو مأخوذٌ بهذا الوجدان الجديد، ولا يدري له وجهة، حتى إذا أفجر[1] وعاد إلى رشده رأى نفسه راكعًا على عتبة ذلك العابد.

(ذكرنا في المقدمة ما كان لفكر ذلك المؤلف من سرعة الانتقال وقلنا إنا بينا نراه يسابح الأجرام في أفلاكها إذا هو يدارج النمالَ في مدابّها.

ولقدْ سرت عدوى ذلك الانتقال من فكره إلى يراعه. فإني لأعاني من تعريب ذلك الكتاب ما أعاني إذا به قد انتقل طفرًا من خط تلك العظات إلى الخوض في السياسة.

ولا بدعَ فقد كان حامله كثير التطلع إلى فلك السياسة دائب الرصْدِ لأجرامه، مسلس العنان لجواديه فكره ويراعه.

فما كاد يأتي على ذلك الفصل السابق حتى تدفق في سرد حوادث سنة 1815م فملأ صحيفتين بأسماء لم يجر لها ذكر من قبل، ولن يكون لها حديث من بعد، فرأينا أن نغفل ذكرها، وأحببنا أن يكون الكتاب غفلًا من تلك الأحاديث المبتورة التي لم يكن لها أثر في غير ذهن واضعها، وإن القارئ ليخرج من قراءتها وما في يده شيء منها ما لم يكن ملمًّا بحوادث تلك السنة، واقفًا على تاريخ هذه الأمة، ومن لنا بمثل ذلك القارئ الخبير).



(1) افجر الرجل إذا أدركه الفجر.

الفصل الثاني

فانتين



وُلِـدَتْ تلك البائسةُ في قرية «موانتراي سيرمير» ولا تعرفُ لها أمًّا ولا أبًا، ولا من يمت إليها بحبل القرابة، ولا يعرف الناس من أمرها أكثر من ذلك، فوردت سجلَ العناء، وأنظرتها الخطوبُ حتى بلغت سن الطفل الدارج، وإنها لتدرجُ ذات يوم في الطريق وهي تنتعل أديمَ الأرض[1] إذ مرَّ بها بعض السابلة[2]، وسماها «بفانتين»، ومن ثَمَّ أصبحتْ تُدْعَى بذلك الاسم الذي أصابها كما كانَ يصيبُ ذلك المطر المنهملُ جبينَها.

ولما بلغت العاشرة من عمرها، ولا أدري كيف بلغتَها، خرجتْ تطلبُ وجوهَ الرزق، وتلتمسُ أسباب القوت في ضواحي تلك القرية.

فما زالتْ تكدحُ في طلب العيش حتى يفعت أو كادت تفع، فعافت[3] نفسها البقاء على تلك الحال، وساقها قائدُ الاضطرار إلى الانزعاج عن الوطن، فشخَصَتْ إلى «باريس» وألقت نفسها في معترك تلك الحياة الجديدة فمازالت تعمل لبطنها، وهي تطرقُ أبواب الارتزاقِ حتى ظمأ فؤادها إلى نهلةٍ من مواردِ الغرَام.

وكانتْ على جمالٍ قد تولت عفةُ النفس حراسته، وقد غنيت ببهجتها على بهجة الحلى، وأمرها الحسنُ بما لم تمهر به أترابها، أمهرها بالنفيسين، بالعسجد[4] في شعرها، واللؤلؤ في ثغرها.

فمازالتْ تطوفُ على تلك الموارد ورائدها الفؤاد حتى وقف بها على منهل قد رقَّ ماؤه، فإذا بها ترى فيه وجه ذلك الإنسان الذي غلبها على قلبها فأرضعها أفاويقَ الآمال وأرشفَها رضاب[5] الأمانيِّ حتى أخذتْ عفتها تتسلل قطرة قطرة، وحتى جلس منها ذلك الخبيث مجلس الرجلِ منْ أهله.

وكانت في مبدأ أمرها- حيث كان الغرامُ طفلًا والعفافُ فتيًّا- تغالبُ كيد ذلك الهوى ويغالبها وتجهد جهدها في الميْل عن ذلك الساحر، ولكنها ما كانت تميل عنه أصبعًا إلا لتميل إليه ميلًا.

---

(1) بلا حذاء. (2) عابر سبيل. (3) عافت، رفضت.
(4) العسجد، الذهب، فشعرها لونه لون الذهب. (5) مَنَّاها كذبًا بالأمل.

كذلك كانت حالها، حتى أصبح الحبُّ، وقد غلبها على أمرها، وسقطت بين ذراعي ذلك الأثيم فافترشها ما شاء.

ثم زال عنها زوال السكينة عن فؤاد العذراء إذًا لم تحصنْ فرجها، وغادرها وهي جفن سلاح[1]. وكان لها صواحبُ ثلاث، ولذلك الغادر أصحابٌ ثلاثة، وقد جمع اللهو بين هذين الفريقين، وضرب عليهما بالقداح، فخرجت لكل واحد من فريق الرجال واحدة من فريق النساء. وكانَ الرجالُ من بلاد مختلفة وقدْ هبطوا «باريس» في أيام العطلة السَّنوية. وما كادَ ينصرمُ أجلُ تلك العطلة حتىً انصرم حبل الوداد، واختفى أولئكَ الأربعة في يوم واحد!

وانفرطَ على أثر اختفائهم عقد التئام الفريق الثاني، فبقيت «فانتين» وحدها بلا أنيسٍ غير ذلك الجنين الذي كانت تحمله في أحشائها، فانقطعت عن الناسِ، وانزوتْ في بيت الأحزان، وجعلت تُعاني من ألم الفراق ما تعاني.

وزكَا[2] حبُّ ذلك الغائب في فؤادها، فخرجت ذات يوم تستكتبُ الناسَ له كتابًا تدعوه إليْها، وأبطأ خبره عنها، فشفعت كتابها بثانٍ، وعزَّزَته بثالث.

وما زالتْ تستكتبُ الناسَ، وترتقبُ الجواب حتى احتواها اليأسُ وبلغَ منها القنوط، فأقبلتْ على نفسها تلومها وباتت تحزُّ الودج[3] أسفًا على حالها، وضعتْ حملها فإذا هي طفلة فسمتها «بكوزيت».

وأقامتْ ما شاء الله حتى نزلتْ بها الضائقةُ، وحضرها العوز، ونضبت موارد الرزقِ. وكانتْ لها فَضْلَةٌ مما كانت تتجملُ به في أيام لهوها، فما زالت تنفق منها، وتأكلُ مما كانت تصيبهُ من ثمنها حتى أمستْ وليسَ في يدها ما تستعينُ به على سدٍّ حاجتها.

وقد زهدتها أيامُ قرب الحبيب في مزاولة العمل الذي كنت تصيبُ من ورائه الرزق لتوافر أسباب العيش وعدم الحاجة إلى العمل، ففترَ ذلك النشاط الذي ولَّدته فيها الضرورة، ووهي العزم ووقم الحزم[4].

وأصبحت ترَى الأرض في ناظرهَا وهي أضيق من كفة الحابِل، فعزمتْ على التجولِ من باريس والعودة إلى مسقط رَأسَها.

وقالت: لعلّي أجد هناك ما أصون به أديم هذا الوجه من الإخْلَاقِ، واستعينُ به على تربية هذه اليتيمة.

---

(1) حبلى. (2) نما وازداد.

(3) الودج، الوريد، ومن المجاز قولهم حزَّ على الفائت الودج إذا اشتد تلهفه.

(4) وقم الحزم، وقف وضعف.

ولما صحَّتْ عزيمتها على ذلك جمعت إليها ما بقي من حَاجِها، وباعت بَعْضَهُ فوفتْ مطالب الغرمَاء، وحفظت بعضَ الدراهم.

ثم احتملتْ طفلتَها وخرجت تمشي على استحياء وهي كاسفة البال سيئة الحال وليس وراء ما بها من الهمّ غاية.

وتنكرَ لها كل شيء فودت بجدع الأنف لو أن ظهر الأرضِ من الأنس أعرى من سراة الأديم. فسارت، ولو رآها أقربَ الناس عهدًا بها لغابت عنه معرفتها لفرط ما نزل بها من الهزال، واخترم جسمها من السقم، وإن كانت لا تزال عليها مَسْحَةٌ مِنْ ذلك الجمال الغابر.



وأخذتْ طريقها إلى بلدتها وجعلتْ كلما أخذ منها التَّعَبُ تنتحي ناحيةً من الطريق وتجلسُ ريثما تنفس عنها كرب المسير وتغذو طفلتها.

ونزلَ بصدرها نازلٌ من السعال دعته الرضاعة إلى النزول بذلك الصدر الضعيف فضاعف من وَصَبَها[1] وزاد في ألمها.

وما زالتْ ترامي بها المرامي حتى وقفَ بها السير على نزُلٍ حقير بقرية «منتفرتي» كان قائمًا على رأسِ الطريق، يدعى بطريق الخبازين، أسسَ في صَدْرِ القرن الرابع عشر وزالتْ معالمه.

وكان هذا النُّزُل لذئب من ذئاب الإنْس يُدْعَى «تيناردييه»، وكانت تحته ذئبة من أحدّ الذئاب وأضرها تدعى باسمه، وهما يقطنان مع أولادهما في ذلك النزل.

ولعل ذلك الذئب كان ممن شهدوا موقعة «واترلو»، فقد يرى الناظر بأعلى ذلك الباب لوحًا كبيرًا قد نُقشَت عليه هذه الكلمات: «هَلُمُّوا[2] إلى جُندي واترلو».

ورُسمت بأسفلِ اللوح صورةُ رجل يحمل على ظهره رجلًا آخر عليه شارة القواد تلمع على كتفيه النجوم ويشرق في أثوابه الدم. وهما تحت جو أشبه الأشياء بجو الملاحم عقد الدخان فوقه سماء مكفهرة الأرجاء.

وقد طُرِحَت أمامَ ذلك الباب عجلة عاتية من تلك العجلات التي كانت تُسْتَخْدَمُ في ذلك العهد لحملِ الأثقال وجلب الأشجار من الغابات.

وكأنها لم تُطْرحَ في ذلك المكان إلَّا لتصدأ أو لتزحم الطريق أو لتجعلها تلك الذئبة الضارية أرجوحة لوليدتيها.

وقد سترَ الوحل أخشابَ تلك العجلة، وكسا الصدأُ حَديدَها، فأقامتْ في تلك الطريق وهي كأنها بعض أولئك الرؤساء الدينيين الذين قاموا عثرة في سبيل الشرائع الغابرة[3].

واتفقَ أنْ وقفتْ «فانتين» على ذلك النُّزُل حين كانت تلك الذئبة تلاعب طفلتيها، وقد وضعتهما في الأرجوحة، وهما كأنهما قمران في طفاوة أو زهرتان في كمام.

وكانتا متعانقتين في هزة ذلك المهاد، وصغراهما بين ذراعي كبراهما، وقد سلخت الكبرى منهما ثلاثين شهرًا، وأوشكت الصغرى أن تهل العشرين.

وجلست أمهما على كثب منهما تشَارفُهُمَا وتتغنى بشيء من الكلام المقفَّى.

وأنها لتشدو كذلك، إذ وقفت «فانتين» على رأسها وقالت: لعلك أم هاتين الزهرتين.

---

(1) الوصب: الوجع الشديد. (2) هلموا: بمعنى تعالوا. (3) الغابرة: الماضية.

فلم تحر جوابًا ولم تلتفت، ولعلها لم تسمع صوت تلك السائلة، فقد استطرد بها جواد الطرب في ميدان الغناء. فعاودت «فانتين» السؤال بصوت كان خليقًا بالوصول إلى مسمع تلك المندفعة في غنائها.

فالتفتتْ إليها فإذا هي ترَى فتاة قد أنْصبَ[1] بدنها السير، وكدَّها الهمُّ والضير، ونال منها البؤس، وبلغ منها الشقاء.

وقد كادَ يمسحُ الحزن ما كان على وجهها من مسحة ذلك الجمال، وأوشك أن يذهب البكاء بما كان كامنًا في محاجرها من ذلك السحر الحلال!

فانتقلتْ حمرة وجنتها[2] إلى عينيها، وهاجر سواد لحظها إلى حظها وامتد اصفرار شعرها إلى لونها، ودبَّ سقم جفنها إلى صدرها، وسَرَى نُحُول خصرها إلى جسمها، والتقى في مآقيها دمع الحزن بدمع الدلال، واجتمع في قَدِّها ذلك الهيف وذاك الهزال.

وقد أدْمَى إدمانُ وخز الإبر سبابتها أيام كانتْ تخيط لتعيش، وذهب الفقر بزينتها فليس عليها من الثياب غير ما يحصنها من البرد ويقيها الحر!

تلك «فانتين» التي تقف على جمالها العيون، ولو أن تبتسم اليوم لرأى الناظر ذلك اللؤلؤ المنظوم في ثغرها، ولكن الحزنَ والشقاء لم يدع للابتسام سبيلًا إلى ذلك الثغر الذي كان منطبقًا على ثناياه انطباق المحارة على الجوهرة.

وكانت تحملُ على ظهرها تلك الحقيبة التي أودعتها كل ما تملك، وتحملُ بين ذراعيها طفلة ساجية الطرف، عبلة الساق، وضاءة الجبين، لها من صدر أمها مهاد، ومن ذراعها وساد، أخذ الكرى بمعاقد أجفانها فنامت نومًا هنيئًا بين ذراعين قد صيغَتا من الشفقة، وصدر قد صُوِّرَ من الحنان.

فقالت لها ربة النُّزُل وقد رفقت في القول: نعمْ هُمَا ريحانتاي، ثم دعتها إلى الجلوس بجانبها على عتبة الدار وأنشأت تحدثها على نفسِها وعن بعلها، وجعلتْ تحاسنها في القول وتلينُ لَها في الكلام؛ ولم يكن ذلك اللين من شأنها، ولا تلك الرقَّة من طباعها، ولكن ربما وجدت الرحمة مَسْرَبَةً[3] إلى تلك الأفئدة الغليظة عند ذكر صغارها.

وكانت تلك المرأة شقراء اللون، جهمة الوجه، وهي فوق الطويلة ودون البادنة، يزدهيها شيء من الخلاعة، ويشوب لسانها نوع من التزويق شأن أرباب الفنادق، ولا أحسبها في ذلك العهد إلا وقد جاوزت حد الثلاثين.

---

(1) أنْصَبَ: أتعبَ. (2) الوجنة: الخَد. (3) مسربة: سِرْبًا وطريقًا.

ولو أنها انتصبتْ قائمة لرَاع «فانتين» طولَ قامتها، ولذهب بارتياحها وسكونها إلى محادثتها، ولا بدع فإنها لم تكن إلا حرث جندي، وفراش وحشي.

ولما فرغتْ من حديثها أخذت فانتين تنفض إليها جملةَ حالها، غير أنها كتمتها أمرها، وألقت في روعها أنها أرمل قد مات عنها بَعْلُها، وأن الحرفةَ التي كانت تزاولها قد كَسَدَتْ سوقها في باريس فغادرتها، وخرجت تضرب في الأرض رجاء أن تصيب رزقًا لها ولطفلتها؛ وأنها قضتْ عامة يومها وهي تعاني تعبَ السير على قدميها، وأنَّ ابنتها قد أخذتْ من ذلك التعب بقسمها.

وما كادتْ تأتي على ذلك الحديث حتى انحنت على طفلتها تقبلها وتضمها إليها، فانتبهتْ الطفلةُ لحرارة تلك القبل، وجعلت تدور في هذا الفضاء بعينين قد جال في إنسانيهما[1] الوقار، وكمنت فيهما السكينة، وقد نمّ نظرها عن سر تلك الفطرة السليمة التي لم يكن مثلها بجانب ما ندعوه فينا بالفضيلة إلا كمثل السماء صفا أديمها بجانب الشفق شابته الشوائب، وما يدريك لعلها كان يقوم بنفسها في هذه الفترة أنها ملك من الملائك يطل من سماء عصمته على أعمال هذا الوَرَى.

وما هي إلا جَوْلَةُ فكر حتى تغيرت حالها، وجعلت تبتسم ابتسام الظافر، وهمت بالانزلاق من حجْر أمِّها مُدفوعة بتلك الإرادة التي لا يقف في سبيلها شيء عند أولئك الأطفال، وقد حَاولَتْ أمها أن تحبسها عن مَقْصدها فما استطاعتْ له ردًا.

ولما صارتْ على الأرض أخذت تدبُّ حتى انتهت حيث الأُرجوحة والوليدتان، فوقفت تنظر وكأنها تعجب مما ترى، وقامت الأم إلى بيتها فأنزلتهما إلى الأرض، وقالت لثلاثتهن: هيا الْعَبْنَ جميعًا. وربطت السنُّ بينهن عُرَى الائتلاف، فطفقْنَ يمرحن ويلعبن، وينكتن في الأرض نكتًا.

وكانت تلكَ القادمةُ الجديدة أكثرهن مهارة وأبرعهن يدًا في حفر تلك النكت.

وجلستْ ربةُ المنزل إلى «فانتينَ» تحادثها وتحاسنها، ومازالت بها حتى خلبتها وأنست منها الارتياح إلى سماع حديثها، فأقبلت عليه بوجهها وجعلت تسائلها عن بنتها وهي تخبرها خبرها.

وبينا تتحادث الأُمَّان في ناحية، وتلعب الصِّغَارُ في ناحية أخرى إذْ برزت إحدى بنات الأرض من خدْرهَا، وخرجت تسعى من بعض تلك النكت، فراعَ الصغار منظر تلك الحشرة، وجزعنَ لرؤيتها جزعًا شديدًا، وأشفقن منها وقد ضمهن الخوف إلى بعضهن فتقاربن حتى التصقت جباههن، واستولى عليهن الدهش جميعًا.

---

(1) إنسان العين، جفنها وحدقتها.

وحانت من ربة النزل التفاتة فلمحتهنَّ على تلك الحال وقد تجمَّعن، فظنت ذلك لداعية الانعطاف والميل فقالت لفانتين وهي تحدثها: ألا تَنظرين إلى هؤلاءَ الأخوات الثلاث؟ فوصلتْ تلك الكلمة إلى فؤاد «فانتين» قبل سمعها، فأمسكت بذراع صاحبتها وقالت لها: لقد كنت تلمينَ بما كان يقوم بنفسي منذ رأيتك؛ فإني قد عولت على مغادرة ابنتي بهذا النَزل أفلا تكفلينها؟

فخرجت ربة النزل بالصمت عن لا ونعم، وأشارت برأسها إشارة تشعر بالتردد بين الرفض والقبول!

فقالت فانتين: ولا أحسبك إلا ستعجبين من أمري، ولكن الحاجة تدعوني إلى ذلك، فقد استحال عليَّ أن أجمع بين السعي وراء العمل وبين اصطحاب تلك الطفلة، فأنا غادية إلى التماس بعض وجوهِ الرزق، وتاركة «كوزيت» بين ذراعي أمها الجديدة، وباعثة لك في كل شهر بما يقومُ بَنفقتها، وآخذة على نفسي القيام بدفع اثني عشر درهمًا في كل شهر لكفالتها فانظري ماذا تأمرين؟

وما هي إلا أن انتهت من ذلك الحديث حتى سمعتْ في صحن تلك الدار صوتًا شبيهًا بصوت انفجار البارود وقائلًا يقول لها: أولى لكِ أيتها القادمة أن تدفعي أربعةَ عشر درهمًا، وقد استحال غير ذلك.

فقالت فانتين: كذا فليكن، ثم نظرت إلى صاحبتها نظرة المستخبر عن صاحب ذلك الصوت، فألمت تلك الذئبة بمقصدها فقالت: إنه صوتُ زوجي، وهو ربُّ النُّزُل وصاحبُ الأمر والنهي فيه، فلا تجعلي له سبيلًا إلى رفض ما تطلبين مهما اشتَطَّ في الطلبِ وكلفك ذلك من المؤونة.

وقالَ الذي هي في داره لن تقبلَ الكفالة أو تعجلي بدفع نفقة ستة أهلَّة، وتتركي عندها من الثياب ما يدفع عنها البرد والحر، ثم لبثَ غير بعيدٍ وخرج إليها باسطًا يده، فنقدته الدراهم وقضت عندهم سوادَ الليل!!

ولما كان الفجرُ قامت «فانتين» فودعتْ طفلتها، وخلفت تلكَ الحمامة في وَكْرِ الصقور، وصارت ومدامعها تسابق خطواتها!

وما كادتْ تغادرُ ذلك النزل حتى غادرتهُ الرحمة على أثرها، وأصبحت «كوزيت» بين زوجين لو قُسِّم ما في فؤاديهما من الغلظة على أفئدة البشر لما وجدت الرحمة إلى القلوب سبيلًا!

وقالت المرأة لزوجها: مالنا ولتلك القنبرة «وكذلك كانوا يدعونها» نَغْذُوهَا ولا تعمل وإني لأرى لديها من الثياب ما يقومُ ثمنه بوفاء بعضِ ما أقل كواهلنا من الديون فإنْ رأيت أن تجمع تلك الثياب ونبيعها؟!

فقال الرجلُ: ومن الرأيِّ أن تعجلي ببيعها اليوم فإنَّ غدًا توعد المقاضاةُ وليس في أيدينا ما يسد مطالب الغُرَمَاء!

وطلعتْ شمسُ الغد على تلك اليتيمة بالبؤس والشقاء، فلبستْ ثيابَ الذلِّ، وطرحت رداءَ الدل[1]، وكانتَ كلما شبَّتْ يومًا شبَّ معها البؤس عامًا، حتى أصبح الثَّرَى مهادها، والمدرُ وسادها، وتبدلت من حُضْن أمها حضنَ الترابُ، ومن لين ذراعها خشونة الجماد؛ أين عيْنُ «فانتين» ترى ذلك الطمرُ الذي تضل الإبر سبيلها في شقوقه، وينتهي العدّ دون خروقه، تضحى[2] فيه وتخصر[3]، وتنطوي تحت وتنشر، تبكر بكور الغراب إلى كَنْس الدار والفناء، وتنطلق والصبح والليل خيطان إلى حمل الماء، تنطلق إلى النهر والنَهر بعيد، وتستقبل القرَّ والقرُّ شديد، وتقطعُ الطريقَ وهي طويلة، وتحمل الجرَّة وهي ثقيلة؟!

أين عين فانتين ترى تلك اليتيمة، وهي تحت الخوان[4] تؤاكل الجرو[5] والهرة، وتلتقف الكسرة بعد الكسرة، وطعامها دون الهر وفوق الكلب «والهر ينتقي ما طاب،والكلب يلتهم كل ما أصاب»!

ولم تزلْ تلك القنبرة رهينةَ الألم والعذاب، يعدون أنفاسها، فإذا تنفست قالوا لها لقد أفسدت علينا الهواءَ، ويرقبون حركاتها وإذا تحركت قالوا لها لقد كَدَّرْت علينا صفو السكونِ؛ حتى ضَؤُلَ جِسْمُهَا واضمَحَّلَ رَسْمُهَا.

ولؤمَ صاحب النُّزلِ واشْتَطَّ في طلب النفقة من أمها، فما زال يطلب المزيد حتى كلفها ذلك فوق الطاقةَ، ووراء الفاقة، فكانتْ تعمل عامة اليوم، وتجعل ما تصيبه من الأجر لتلك النفقة الفادحة!!

وكأن الخبيثَ قد ألمَّ بباطن الأمر، فقال لامرأته ذات يوم: إني لأعلم من أمر «فانتين» مالا تعلمين، إن هي إلا بغيّ قد غلبت على أمرها.

وما جاءتها تلك الطفلةُ إلا من طريق السفاح، ولا أرى شيئًا هو أصلح لحالنا من انتهاز هذه النهزة والتماس الزيادة في النفقة لعلنا أن نصيب من وراء ذلك ما نوفي به الديون، وإنّي ليعرض لي أن «فانتين» لا ترى بُدًا من الإجابة رجاء أن يختفي أمرها، ولا أحسبها إلا ستخضع خضوع المضطرب.

وسقطتْ الكتبُ[6] على «فانتين» سقوط القضاء، وكلها في طلب الزيادة في النفقة ووصف ذلك النعيم التي ترتع فيه طفلتها، وكانوا كلما أفرطوا عليها في العذاب بعثوا لأمها بما يسكن من نفسها، حتى أرسلت لهم قُوتَها وكل ما تصل يدها إليه، فصلحَ

---

(1) الدل، الدلال والعزة. (2) يصيبها حر الضحى. (3) يصيبها البرد.
(4) الخوان، مائدة الطعام. (5) الجرو، الكلب الصغير. (6) الكتب، الرسائل.

شأن النزل، ووفوا الديون، وأصبحوا ببركة وجُودِ «كوزيت» وكدْح تلك الأرمل وهم في سعة من الحال وبشاشة من العيش!!

وما كان خبث نفسها وحده كافلًا للسعادة فإنَّ النُّزُلَ قبل حلول «كوزيت» لم يكن شيئًا مذكورًا، فحلت بحلولها البركة، وبسم[1] لهم ثغر الزمان.

ولبثتْ عندهم «كوزيت» ثلاثَ سنين تعاني من ألم الشقاء ما تعاني، وهم يمرحونَ من وراء عذابها في بحبوحة النعيم. ولو قدمتْ «فانتين» بعد مرور تلك السنوات لتفقد حال طفلتها لأنكرت رؤيتَها، ولغابتْ عنها معرفتها لفرط ما نزلَ بها من البؤس وما نابها من الشقاء!! وكانُوا يتحدثونَ في تلك القرية بأمرها فيقُولُون: إنَّ أصحابَ النزل على ما هم فيهِ من الكفاف وخشونة العيش يغذون طفلةً لقيطة ويربونها احتسابًا، فنعم العمل ونعم الأجر والثواب!

وبعد أن غادرتْ «فانتين» طفلتَها بذلك النزل كما قدمنا ركبت طريقَ قريتها التي ولدت فيها، حتى إذا أشرفت عليها بعد الجهد والعناء؛ نظرتْ فإذا القرية على غير ما تعهد، تسيلُ بها أوديةُ الرخاء، ويبسم لها ثغر السعادة. وقد قامتْ فيها المصانعُ وشيدت دورُ التجارة، وأصبحتْ حركة الأشغال لدوام اتصالها وسرعة انتقالها وهي أشبه شيء بحركة الأرض. وكانتْ قد هجرتْها منذ اثنتي عشرة سنة، ولما عادتْ وأبصرتْ ما هي فيه من رخاء العيش وبشاشة الحال قالت في نفسها: لقد كانتْ سعادة هذا البلد بمقدار شقائي. فإني ما كنتُ أهبط دركًا في مهاوي الشقاء حتى كان يعلو درجة في مراقي الهناء. ولقد صَدَقَتْ «فانتين» في حديثها لنفسها، فإنَّ هذا البلد قد أدَرَّ الله لأهله أخلافَ الرزق، ودخلتْ فيه السعادةُ بدخول رجل هبطه عند انطواء، أجل سنة 1815 تحت جنح من الدُّجَى فكتم الليل أمره.

وشبَّتْ نار في إحدى الدور عند قدوم ذلك الغريب، فهب الناس لإطفائها.

فاندسَّ الرجلُ في غمارهم وغامرَ بنفسه في النار وكان أول المتوثبين عليها، حتى استل من فمها طفلين أوشكا أن يبيتا رزقًا لها، وكانا لكبير الشرطة، فأكبروا فعله، وملأوا أذنيه حمدًا وثناء، ولم يسألوه عن إجازة المرور، ولم تمر بهم خلجات من الشك في أمره وإن كان غريبًا.

«وبقي مادلين[2]» وكذلك سمي نفسه في تلك القرية واتخذها وطنًا له، ولا يعلمُ أهلُها من أمرِه غير ما كان يلوحُ على محياه من سيما الخَير والصلاح.

وكانَ قد وقف على أبواب الخمسينَ من عمره، وأصبح كثير الإطراق، كلفًا بالعُزْلَة.

---

(1) بسَم، تبسَّمَ.

(2) ومادلين هو جان فالجان بطل الرواية.

ولم يكن يملك يوم هبط القرية غير دراهم معدودة، فدخل في مصنع للتجارة كان قائمًا هناك وأحسبه دخل فيه أجيرًا. فأقبلتْ دنياه- وناهيكَ بها إذا أقبلت- حتى أصبحت فضته ذهبًا، وأمسى تراب عمله تبرًا!

ولم تكن إلَّا دَوْرَةٌ من دورات الفلك، حتى أصبح ربًّا[1] لذلكِ المصنع، فأثرى الرجل إثراء يكاد يدفعه العقل لو لم يقع تحت العيان، فأقام للأجراء دارًا، وشادَ للأجيرات أخرى، وأجرى عليهما الأرزاق.

وفرشَ الحجرات بفاخر الأثاث، وكان لا يدخل في عمله غير الصالح من الرجال والصالحة من النساء.

فاستقامتْ له الأمورُ وتقلبت به أحوال جميلة حتى أصبح ذا وَفْر كَبير!

فكانُوا يقدرون ما أودعَ خزائن المصارف بخمسة وعشرين أُلف قطعة ذهبية.

وما آلتْ إليه تلكَ الوفرة حتى أنفقَ مثليها في صالح الأعمال ومؤاساة البائسين.

وشادَ في القرية مدرسةً للذكور وأخرى للإناث، وأجرى عليهما الرواتب، ووسع في نطاق دار المرضى، وكان لا ينهر سائلًا ولا يَرُدُّ عاملًا.

فاختفَى من تلك القرية أثر الشقاء، فكنتَ إذا غَشيتَ دارًا رأيت ربَّها في هناء، وإذا طرقت حانوتًا وجدت صاحبها في رخاء، كل ذَلك كان بفضل الانكماش في الأعمال وبركة الكسب من الحلال. وما بلغَ «مادلين» ذلك المبلغ الذي ترى إلا بطرح الأثرة ومصارعة الجشع.

ولقد بلغَ من حبِّ الخير أن أقام للعجزةَ ملجأ، وللمعدمين الذين أمسوا من سقط المتاع «ولا عهد لبلاد الفرنسيس قبل ذلك اليوم بمثله».

وجعلَ في مصنعه خزينةً لمساعدة عُمَّاله الذين أقعدهم الكبر وقطعتهم العاهة.

ولم يزلْ نجمه في سعود، وهمته في صعود، حتى نَبَه ذِكْرُهُ، وعمّ خيره، ونمي خبره إلى بيت الملك. فارتاحَ الملِكُ إلى سماع ما أنهوه إليه منَ أمره ورأى أنْ يجْعل لهُ ثوابًا على ذلك العمل المبرور، فأمر بإقامته شيخًا على ذلك البلد.

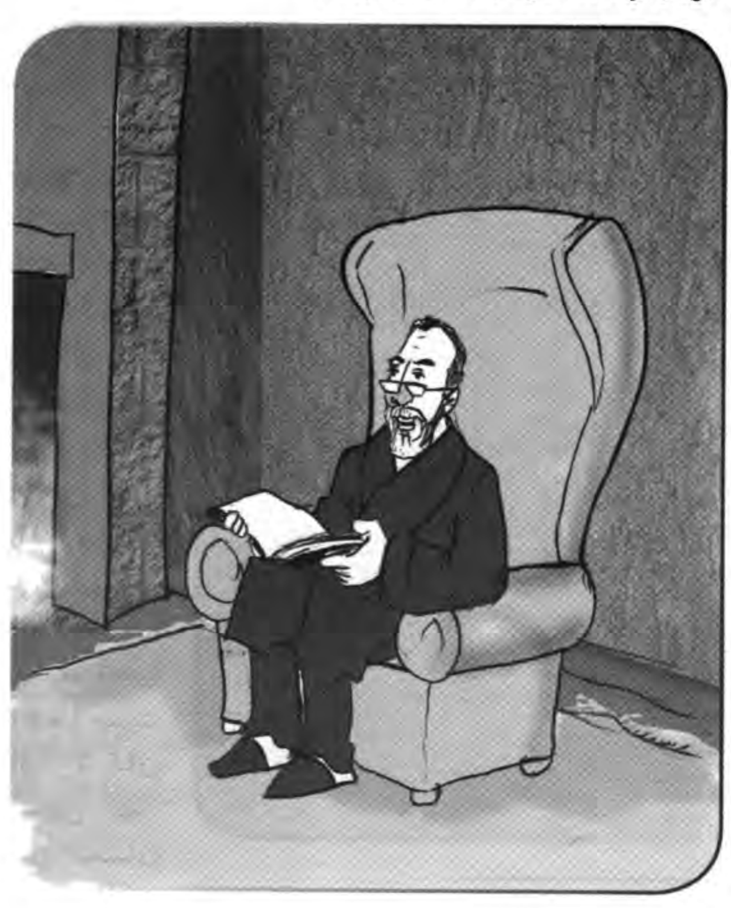
ولما بلغته إرادة الملك بالغ في الضراعة بالتماس الإقالة حتى أقالوه فعجبَ الناسُ من أمره، فمنهم من أخذها عليه، ومنهم من عدَّها له، فقال قوم: إنه النزق. وقال آخرون: إنها القناعة.

وجرتْ حركاتُ الدهر فوقَ تلك الحركة التجارية حتى اتسعتْ هالتها، فجدد الملك إرادتَهُ بإقامة «مادلين» شيخًا لبلده، وجَدَّدَ مادلين طلب الإعفاء.

---

(1) ربًا، صاحبًا ومالِكًا.

كل ذلك والرجلُ تزدادُ نَبَاهَةُ ذكره ويَسْمُو علو قدره. أحبتهُ العظماء، ودعته الأندية العالية، وحتى مشى إليه الكبير والصغير بالرجاء إلى الخضوع لتلك الإرادة فأُكْرِهَ على ذلك المنصب إكراهًا. وكانَ بعض سقاط القوم يبسطونَ فيه الألسن ولا يَحفظونَ له غيبًا، فقالوا حينما رأوه يجمع في أول أمره الأموال: إنه تاجر يطلبُ الإثراء، وقالوا حينما رأوه يستثمر ما جمعه: إنّ به لجشعًا، وزعمُوا حين بدت لهم منه كراهةَ الترف والظهور: إنه أفقي لا يألف النعيم، ولا يعرف قدرَ السَّعَادَة، وحكمُوا حينَ بدا لهم منه رفضُ الدنيا: أنه مائقٌ يَجْمُلُ به الفقرُ ولا يليقُ بوجهه الغنى. ولبثَ «مادلين» في يومه مثله في أمسه لم يغير المنصب من نفسه، ولم يلهه الاشتغال به عن الاشتغال بما هو فيه، فبقي على ما عهدنا به من مداومة الإطراق وحب العزلة عن الناس. فإذا رأيته رأيتَ شيخًا آذن ليل شَعْره بالرَّحِيل، وقد لوحته الشمس، وجال في عينه الوقار، ولاحت عليه سحنة الفلاسفة.

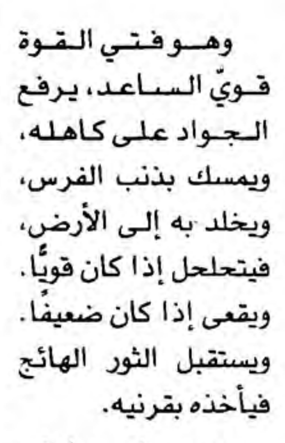


وكان يجلسُ للنَّظَر في أمور الناس؛ فإذا فرغ من ذلك انكفأ إلى حجرته فقضى لبانته من مأكله ومشربه وانكبَّ على مطالعة الكتب.

وقد رأى أن يعوض ما فاتَهُ من تحصيل العلوم في أيام صباه، فعكف على الدرس في أيام شيخوخته، وإن كان الفقر قد مَنَعَهُ في أوليات عمره من مزاولة التعلم فقد ساعدَهُ الغنَى في أخرياته على تناوله، ورأى الكتب صدرًا حليمًا وودًّا مقيمًا، فسكن إلى صُحْبتَها وارتاحَ إلى عشرتها.

وكانَ ينطلقُ إذا شمَّر النهارُ إلى المزارعَ والغابات، ومعه آلة صيد قد اتقى الله في استعمالها، فما هاج بها غرابًا ساقطًا ولا غال طائرًا لاقطًا، ولكنهُ كان يحملها لردِّ الغوائل، فيصحبها في وقت أمْنِه لتؤمنه في وقت خوفه.

وكانَ مع ذلك ماهرًا في التسديد حاذقًا في التصويب، يُصَوِّبُ على الشيء ويرمي فيضع الرمية من الهدف حيث يشاء.



وهو فتي القوة قويّ الساعد، يرفع الجواد على كاهله، ويمسك بذنب الفرس، ويخلد به إلى الأرض، فيتحلحل إذا كان قويًا، ويقعى إذا كان ضعيفًا، ويستقبل الثور الهائج فيأخذه بقرنيه.

وهو على ما فيه من القوة والبأس رقيق القلب يجد من الألم لغيره ما يجده لنفسه، فما مرَّت به جنازة إلا كان أول المشيعين لها، ولا امتحن إنسان بمكروه إلا كان أول المعزين له، وتراه عند انطلاقه إلى الجنائز يختلط

بجماعة القسيسين فينوحُ نوحهم ويرتل ترتيلهم، وكأن نفسه تسبح في غير هذا العالم، وعينه تشخص لغير ما يدركه الحس، وكأن أسلاكا من الإلهام الإلهي قد امتدت بين أذنيه وبين أسرار ذلك الأبد فجعل يلقي بسمعه إلى تلك الأصوات التي باتت تشدو بحزن على حفافي هاوية الفناء.

وكم من يد لَهُ على الفقراء، وصنيعة مع البؤساء، يغشَى دورهم وهم غير شاهدين، فَيُلْقي لهم بالنقود تحت الوسائد وفوقَ الفراش، ثم يَنْسَلّ تحت الليل كراهة أن يُرَى، كأنه يرتكب إثمًا أو يعالج اختلاس شيء.

ويعودُ ربُّ الدار فيرى فيها أثرَ «مادلين» فيظن أن اللصوص قد ارتقبُوا غيبته، فجاسوا خلال داره، فلا يزل يتفقد حاجه[1] حتى يعثر بتلك النقود فيأخذها وهو يقولُ: لقد أرادوا سلبَ نعمتي ولكن أبَى الله إلا أن أسلبهم ما لهم، وما ذاك إلا أمر نزلِ بهم فأذهلهم عنه، وكذلك كان يجيءُ بالحسنة وقد كفَى الفقير مؤونة السؤال ووفَّرَ عليه غضاضة ذلك الموقف. ولا تسلْ عند اللقاء عن طلاقَة وجهه التي كانت تستتر تحتها هموم صدره وعن محاسنته للمعدمين، فهو كما يصفونَه، غنيٌّ لم يخرجْ به الغنى عند حد التواضع، وسعيد لم تقف به السعادة على التَّبسط والانشراح.

وفي أوائل سنة 1821 م أجاب عابد «ديني» دعوةَ ربه، وقد نَيَّفَ على الثمانين من عمره، فنعته الصحف، وطار خبر نعيه حتى وقع في مسامع مادلين، فوجد عليه وجدًا شديدًا، وظهر من غده وعليه شارةُ الحداد. فتساءلِ الناسُ عن نبئه، ومشى بعضهم إلى بعض، وجعلوا يقولون: لقد كنا في ليل من الشك في أمرِ هذا الرجل حتى أضاءَ لنا حسبه الوضَّاحُ، فما هو إلا من تلك الأسرة الشريفة، ولا ريب أن نسبه يتصل بذلك العابد التقى. وأقامُوا على ذلك اليقين أيامًا حتى تعرَّض لهُ بعضهم بالسؤال فقال وقد أخذ عليه طريقه: إني أراك تحمل شارة الحداد منذ نعي الناعي عابد مدينة «ديني» فهل أنت ممن يمتّ إليه بحبل القرابة؟

فقال «مادلين» وقد كاد ينطق الحزن في أحشائه: كلا، وإنما كنت في أول أمري خادمًا عنده. وكانَ العابد قبل موته قد كف بصره، فلبث كذلك بضع سنين لا يجد ألمًا لفقدان نور البصر وقد بقي له نور البصيرة!

وبقيت أخته بجانبه لا تنحرف عن صراط طاعته، ولا تنفك عن ملازمته!

فهي لا تريم عن مخدعه إلا لإمضاء أمره أو قضاء حاجته، وكانت تحرصُ على رضاه حرص المرء على حدقة عينه، حتى رأى أنه قد استعاض بعينه عن ذلك القلب الذي بات لا يغفل عن رعايته.

---

(1) حاجه: أي حاجته.

ولبثَ ذلك البصيرُ أميرًا لدولة القلوب، وكان يقول في نفسه: لو تمَّ الكمال لشيء في هذه الحياة الدنيا لأوشكَ أمري أن يتم كماله، فإني أراني لا ينقصُني شيء من السعادة. اللهم إنكَ إنْ كنت قد استرجعتَ مني هبةَ النظر فقد جعلتَ أفئدةً من الناس تأوى إليَّ. اللهم إنَّ من أوت إليه الأفئدة كان خليقًا أن يصبح حامدًا ويمسي شكورًا. وكذلك كان أمره في آخر أيامه، وأخته لا تزال بجانبه يشاهدها قلبه وإن لم ترها عينه، وتتحسس روحُهُ روحَها في ظلمة هذه الدار الفانية حتى تعثر بها فتنجاب للقائهما تلك الظلمة ويبدو كوكب الصفاء.

نعمْ، كذلك كان أمره حتى انتقل من نعيم دنياه إلى نعيم أخراه.

وبلغ خبر منعاه «مادلين» كما ذكرنا فوجَدَ عليه موجدته وأقام على حزنه حتى انصرمت أيام الحداد.

وما زالَ الزمنُ يحلل من حقد مبغضيه، ويستلُّ الوساوسَ من صدورهم، حتى أصبح وليس في القريةِ من يرتاب في أمرهِ، فسكنت إليه النفوسُ النافرة، وعطفت عليه القلوبُ الصوادفُ، وبات موضع الحاجة، ومحل الأمل، ومهبط الثقة، ينتجعه[1] المضطر، ويستعديَ به المظلوم على الظالم، ويفدُ إليه المتخاصمان من الأطراف للمقاضاة فيصل بين المتقاطعين ويوفق بين المتدابرين، ويحكم بالتوفيق فلا ينحرف عن الحق كأن قانون الطبيعة البشرية قد طُبعَ في نفسه فطالعه ضميره وانطلقَ به لسانه. عطفتْ عليه القلوبُ الصوادف إلا قلبًا واحدًا كان يبالغ في الميل عَنْه، كلما بالغتْ قلوبُ الناس في الميل إليه!!

وكانَ هذا القلبُ في صدر رجلٍ من كبار الشُّرْطَة قد هبط تلكَ القريةِ منذ العهد القريب، فشهد «مادلين» وهو في مُبتسم زمانه، وعز سلطانه، وقد استقرَ في الذروة من الجاه، وبلغ الغاية من الغنى، فكان كلما مرّ به أحس بدبيب الكراهة في نفسه بصورة قد أعجزه إدراك مأتاها.

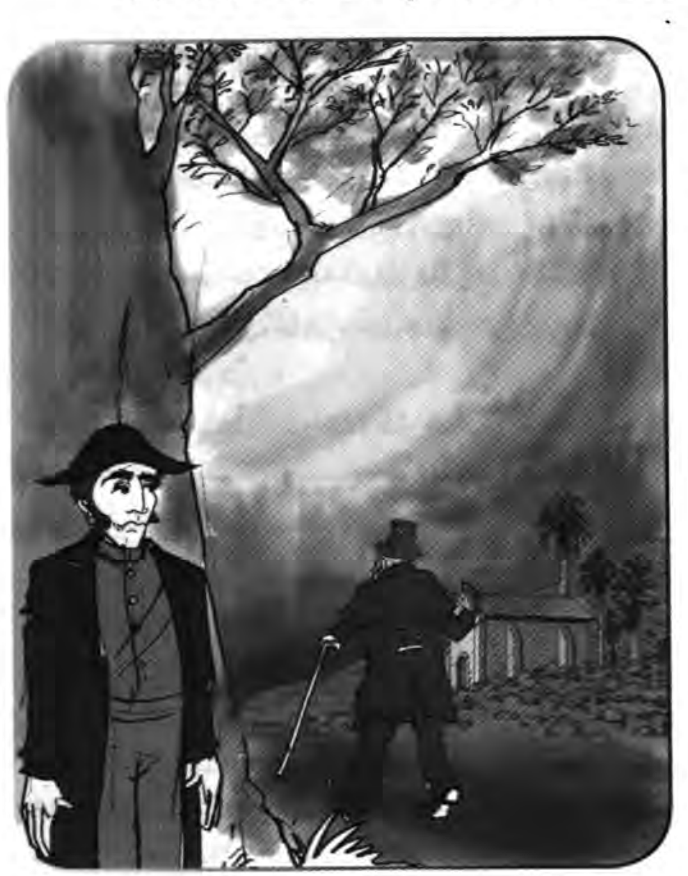
ولا عجبَ فإنَّ لبعض النفوس إشرافًا على خافيات الأمور يولد فيها من الشعور الحقيقي ما تنبسط له مرة وتنقبض أخرى.

وهو كذلك الشعور الذي يقع أحيانًا في نفوس البشر، فيحدث فيها عاطفة الميل أو النفور عند النظرة الأولى، ويقف فيها موقف المستبدِّ، لا يخضعُ لسلطان العقل، ولا يجيب نداء الضمير، فيقاطع بينها، يباين بين طبائعها، ويوحي إليها عند اللقاء، فترى النفس التي ركبت فيها طبائع الكلب، تركب نفرتها عند رؤية كل نفس، قد ركزت فيها طبائع الهِرّ.

---

(1) يطلب منه المعروف؛ يقال، انتجعت فلانًا، طلبت معروفه وإحسانه.

أقولُ ذلك ولو كانت نفوسنا مما يقع تحت الحس لرأيتَ كل واحدة منها ممسكة بذراع أختها من نفوس تلك العجماوات، ولعلمتَ أن لكل إنسان حيوانًا يمثل طباعه ويكيف أطواره، ولأدركت أن هذه الوحوشَ وتلك الأطيارَ لم تكن إلا تماثيل أعمالنا، فمنها ما يمثل الفضيلة، ومنها ما يمثل الرذيلة، وهي وإن لم تدركها الأبصار قد علمت بوجودها النفوس إلهامًا من الخالق الذي جعلها لها تذكرة واعتبارًا.



أمَّا الآنَ وقد سَلَّمْتَ معنا أيها القارئ أنَّ لكل إنسان حيوانًا يمثل طباعه، فقد سهل علينا أن نمثل لك نفسَ ذلكَ الرجل الشرطي وأعني به «جافير».

زعمَ بعضهم أن الكلبَ إذا وقع على الذئبة أولدها جَرْوًا، وأنَ الذئبةَ تخشى إن هي أنظرته حتى يشبَّ أن يعطفَ على صغارها فيغتالها، فلذلك تنحي عليه وهو صغير.

فلو أننا جئنا بذلك الجرو، وأسكناه في هيكل بشري لتبين فيه القارئ شخص «جافير».

ذلكَ هو الرجلُ الذي ما فتئ يتعقب «مادلين» ويسيرُ على أثره مسيرَ القضاء في حجب الغيب فهو إذا لمحه ماشيًا كادَ بصره ينهب مواقع أقدامه، وإذا سمعه محدثًا كاد سمعهُ يخطف ألفاظه قبل أن تبرح فاه، وكلما وقع تحتَ بصره قال في نفسه: تُرَى

أين نظرتُ هذا الرجل، وجعلَ يطالبُ الذاكرة كمن يحاول تذكار شيء درجَ في أثناء النسيان، وينتهي بقوله: ولن يغلبني هذا الرجل على أمري وإن بالغ في إخفاء أمره.

وكان «جافير» مقيمًا بتلك القرية، كبيرًا لجماعة الجواسيس من الشرطة، والشرطةُ كما تعلم قومٌ يُعْرَفُونَ بسيماهم، تلوحُ بمعاطفهم مخايل السلطة، وتهبُّ من أردانهم ريحُ الخساسة، وكذلك كان «جافير» ولكنهُ لم يكن خسيسًا.

وكانَ مولدُه بسجن النساء حيث كانتْ أمهُ سجينة، وهي من هؤلاء النسوة اللاتي يحترفنَ باستطلاع الحظوظ من أوراق اللعب، وكان أبوه سجينًا بسجن الرجال.

فشبَّ ابن السجينين في حجر البؤس والشقاء، ولما بلغ أشده نظر فرأى بينه وبين ذلك المجتمع الإنساني سدًا قد استحال عليه أن يجاوزه.

وعلمَ أن هذا المجتمع لا ينبذ وراء ذلك السد إلا أحد رجلين، رجلًا ناصبه العداوة فعمل على كيده، ورجلًا منحه الوداد فعمل لمناصحته.

وقد وجب أن يكون «جافير» أحد هذين الرجلين فشمست نفسه عن الأول وسكنت إلى الثاني.

فانتظمَ في سلك رجال الشرطة، وأخلصَ في العمل، وحرص على الطاعة حتى عهد إليه بأمر التفتيش، وأصبح كبيرًا لفرقة من الجواسيس.

وكانَ يمقتُ الأشرار مقتًا شديدًا، ويتفانى في الإيقاع بهم وإن كانَ هو من سلالتهم.

وقبل أنٍ يسترسلَ بنا القلمُ في تصوير خلقِ ذلك الرجل قد رأينا أن نصور للقارئ خَلْقَهُ فنقول:

كان «جافيرُ» ذا سحْنَة خاصة به، وكانت له لحية قد أغرى الموسي ببعضها وحرص على استبقاء بعضَها، فأخصبَ عاليها وأجدب سافلها، واستهلت ذرَاها عند العارضين، واجتثت أصولها عن العنفقة، وكان أفطس الأنف غائر المنخرين، يخال الناظر إلى غؤور منخريه وبروز شعر لحيته أنه يرى كهفين قد أقاما بين غابتين، وكان إذا تبسم -وقلَّ أن يقع منهُ ذلك- أراك ثغره أصول أنيابه، فهو إذا ضحكَ فَنَمَرُ، وإذا غَتَّ من ضحكه فعقور، اتخذتْ لها العبوسَةُ بين عينه مسكنًا، وأطلت النفرةُ من محاجره وستر شعر رأسه جبينه وحاجبيه.

ذاك خَلْقُ الرجل نصورهُ للقارئ.

وأما خُلُقُهُ فقد كان قائمًا على خُلَتين كريمتين، إكبار السلطة الحاكمة، ومقتُ المستخفينَ بها، غير أن المغالاةَ فيهما قد خرجتْ به عن حدِّ الاعتدال فأنكرَ الناسُ منه ذلك.

فكانَ يرى أن كل ما يقعُ من جرائم القتل والسلب داخل في باب الاستخفاف بتلك السلطة، ويسترسل في الثقة بكل عامل في الحكومة وزيرًا كان أو حاجبًا.

وينظر بعين النفور والبغضاء لكل من وَلج باب المخالفة ولو لم يقعْ منهُ ذلك إلا مرةً في حياته. ويقول وهو يعتقد ما يقول: إنَّ القضاةَ بهم عصمة عن الزلل فهم لا يخطئون، وإن رجال الحكومة لهم إشراف على الأمور فهم لا يخدعون. ويزعم أن التوبة لا تغسل الحوبة، وأن المرء إذا أجرم مرة عاش دهره مجرمًا لا تنفعه الإنابة ولا يلوي بجريمته العقاب.

كذلك كان يبالغ في الخلتين ولا يستثنى أحدًا في الحالتين وهو مع ما ذكرنا عنه وقور صبور كثير التفكير خاشع القلب عالي النفس مهيب في العين قد أرصد حياته لشيئين لا ثالث لهما، السهر والمراقبة.

وكان يعمل على كمال اليقين من انتفاع الناس بعمله، ويراقب الله في ذلك العمل ولا ينحرف شعرة عن أوامر الدين ونواهيه، فهو في حرفته كالراهب في عبادَته.

والويل ثم الويل لمن وقع في مخالبه ولو كان من ذوي قرابته، فإنه ليرد أباه إلى السجن إذا قبض عليه وهو فارّ، وليعارض في رجوع أمه إلى بلدها بعد انقضاء سجنها.

وليفعل ذلك وهو أروح ما يكون نفسًا وأهدأ ما يكون ضميرًا ظنًا منه أنه إنما يرضي بذلك شريعة الأرض ولا يسخط شريعة السماء.

وكان عيشه بين التقشف والعزلة عن الناس، فما صادفه إنسان مرة متروضًا، ولا لمح عليه أثر الترف والنعيم، كأنه لم يخلق لغير الكد والعناء بين المراقبة والاختفاء.

وكنت إذا رأيته في حين تجسسه رأيت رجلًا قد غاب جبينه تحت قلنسوته، واستترت عيناه تحت حاجبيه، واختفت يداه تحت كميه، وانزوت عصاه تحت ردائه، حتى إذا عنَّ له صيد أو سنحت له فرصة انتفضَ فظهر لك ما أخفى من أمره كأنما خرج من كمين أو وثب من ظلمة إلى نور.

قلنا: إنه لا عيب في ذلك الرجل غير تلك المغالاة، فهو يغالي حتى في معاملته لنفسه. اللهم إلَّا ساعات معدودة من أيام حياته كان يرى فيها نفسه راضيًا عن نفسه فيهون عليها بعض الشيء من تلك المعاملة.

وآيةُ رضاه عنها، أن يعمد إلى لفيفة من الطباق فيشعلها، وكان ذلك مبلغ ارتياحه لنفسه، وغاية ما يرضاه عن مغبة عمله.

ذلكم «جافير»، ومن ذا الذي ينكر خطر «جافير»؟؟، هو حربُ المجرمين، وفخُّ الهاربين، وفضيحة المختفين، إذا لفظ اسمه أمام أشد العتاه انقلب على

عقبيه مذعورًا، وإذا لاحَ شبحه أمام أحد الفارين تقيد في مكانه بقيد من الرهبة.

فويل لك يا «مادلين» من هذه العين التي تترسم أثرك، وتلك الأذن التي تتسقط خبرك، ولا أحسبك إلا واجدًا في نفسك ما يجده لك ذلك الرجل في نفسه.

فأنت بالذي في قلبك عالم بما في قلبه، وإن كنت قد تحفظت ما شئت، وصابرته ما استطعتَ، وتكلفتَ السكون عند لقائه، وتحاميتَ طريق صحبته وجفائه، وزكنت منه على مثل ما زكن منك، وسألت ضميرك عنه بمقدار ما سأل ضميره عنك.

ولبثت تلك الحرب الخفية قائمة بين هاتين النفسين، وكلما فتح «جافير» بابًا من الدهاء أبطله عليه «مادلين» بقوة الصبر والجلد، حتى تزعزعت عزيمة الأول ولزم بيته ثلاثة أيام، وكادَ يأكل مقراض اليأس خيوط آماله، وأوشك أن يعتقد بحلول الفشل في مساعيه وأعماله.

واتفق ذات يوم أن أحد سائقي العجلات خرج غب سماء، ومعه عجلة يجرها جواد.

فانطلق بها في طريق كثير الوحل؟ فغارت فيه قوائم الجواد وأكب لوجهه، وسقطت فوقه العجلة، فبترت عظم ساقيه، وانقلب السائق تحتها فاستقت فوق صدره فجعل يستغيث ويستنجد، وهو مشفق أن يبتلعه الوحل.

فهب الناس لجهة الصوت ووقفوا ينظرون إليه، ولا يقدم أحد على الأخذ بيده.

وأقبل «مادلين» مهرولًا فنظر الرجل تحت العجلة يسوخ في الطين شيئًا فشيئًا، وهو كلما اضطرب طلبًا للخلاص كان اضطرابه مساعدًا على وأده في الطين حيًّا، فأشار إليه «مادلين» بالسكون ثم التفتَ إلى الجماعة وقال: أيكم قويّ العضل جليد القلب يدخل تحت تلك العجلة فيرفعها بظهره وأجره على ذلك خمسة ذهبًا.

فوجمَ القوم جميعًا فقال «مادلين»: إني أرى الوقتَ ضيقًا، وأرى أجل هذا الرجل أضيق منه فلا تخنسوا عن مساعدته، ولمن يفعل ذلك منكم عشرة ذهبًا وأن أبى إلا المزيد فعشرون.

وما كادَ يأتي على تلك الكلمة حتى سمع من ورائه رجلًا يقول: إن القوم لا تنقصهم الإرادة ولكن تنقصهم القوة.

فالتفتَ «مادلين» ليرى القائل فإذا به جافير، وكان لم يلمحه عند قدومه.

فحدق فيه «جافير»، وعطف قائلًا: وليعلم سيدي الشيخ أنه ليس على ظهر الأرض من يقوَى ظهره على رفع تلك العجلة اللهم إذا كان من العمالقة أو من أولئك السجناء الذين قضوا شطرًا من حياتهم في سجن تولون.

فغض مادلين من بصره واستشعر الخوف لأول مرة، وعلم أن «جافير» لم يقل ذلك إلا تعريضًا به وتقريعًا له، ولكنه غالب نفسه حتى ملكها.

ثم التفتَ إلى الجماعة ليرَى أيهم أقدم على هذا العمل، ولما لم يجد معينًا جثم على الأرض، ولم تكن إلا جولة فكر حتى رآه القوم تحت العجلة منبطحًا على وجهه، وقد حاول أن يجمع بين مرفقيه ويقرب بين ركبتيه ليعتمد عليهما في رفع تلك العجلة، فعالج ذلك مرتين ولم يفلح فخفقَتْ قلوبُ الجماعة إشفاقًا عليه، وظنوا أنه لا محالة هالك فصاحوا به: أولَى لكَ أن لا تطرح بنفسك ذلك المطرح من التغرير وإنا نناشدك الله أن تستبقي حياتك.

وقال له سائق العجلة وهو تحت كلكل الموت: إني أدعوكَ بالله أن تنجو بنفسك فإني ميت ولا عاصم اليوم من أمر الله.

كل ذلك ومادلين صامت لا ينبس، والقوم باهتون من عمله، والعجلة لا تنفك عن الهبوط حتى تعذر عليه الخلاص، وانقطع خيط الأمل من نجاته.

وإن القوم ليحفز اليأس أحشاءهم، وإذا بهم يرون العجلة وقد تحلحلت وجعلت تهتز فوق ذلك الطود الذي رسخ تحتها، وأخذت تصعد بعد ذلك الهبوط، وسمعوا صوتًا قد صحله[1] التعب يدعوهم إلى نجدته ويقول لهم: أعينوني بقوة فقد أمكنني الله منها.

وكان ذلك صوت «مادلين»، فأوفض القومُ إليهاْ وانتزعوها من مكانها، وأفلت السائق من مخالب الموت، والموت خزيان ينظر، وكان هذا السائق يدعى «فوشلفان»، وهو من أعداء «مادلين» الذين أكل الحقد صدورهم ونهش الحسد قلوبهم.

وقد كان في أول أمره جنديًا ثم صار تاجرًا فأثرى، ثم أملق حتى صار من سائقي العجلات.

وكان يبيت وهو يتقلب على جنب الحرد من الحسد كلما فكر في «مادلين» وفيما صار إليه أمره من الثروة والجاه ويقول في نفسه: لقد قدم «مادلين» وأنا تاجر وهو أجير، فأصبح بحيث يحسد وأمسيت بحيث أكمد.

ومن هنا كان مبعث حقده عليه ومثار حسده له.

ولما ثار «مادلين» من تحت العجلة بعد انزعاجها عن مكانها وهو باهت اللون ناضح الجسد ملطخ الثياب ممزقها تحامل «فوشلفان» حتى اقترب منه وانكب على ركبتيه يقبلهما وجعل يدعو له.

---

(1) أصحله، أثقله وأضناه.

كل ذلك والقوم يبكون من هول ما شهدوا، وينظرون إلى ذلك الوجه الذي بانت فيه آثار الجهد والعناء، ولاحت عليه سيما السرور والارتياح و«جافير» يكاد ينشق غيظًا في مكانه و«مادلين» يلقي عليه نظرات مطمئنة ويلمحه لمحات معنوية.

ولما انقضى ذلك المشهدُ، وذهب كلٌّ لوجهه، أمر «مادلين» بـ«فوشلفان» فَحُمِلَ إلى مصنعه وأفرد له فيه مكانًا ووكل به اثنتين من الممرضات وأوصى بالعناية بهِ، وجعل يعوده طرفي النهار حتى أبل[1] من مرضه. ثم وجه إليه برقعة وقع له فيها بأربعين قطعة من الذهب وكتب بها أنه قد اشترى عجلته وجواده بهذا القدر من المال «وإن كان الجواد قد نَفَقَ على أثر سقوطه والعجلة قد تحطمت منذ ذلك اليوم».

ولما أبلَ «فوشلفان» من مرضه كان لا يزال يشكو بعض الألم بإحدى ركبتيه، فحال ذلك بينه وبين الرجوع إلى حرفته، فلذلك أقامه «مادلين» حارسًا لبستان «دير النساء» بباريس. وبعد تلك الحادثة بقليل وجهت الحكومة إلى «مادلين» ببراءة وظيفته. وكان «جافير» كلما لمحه حاملًا لتلك الشارة التي تأذن له بالتصرف المطلق في شئون وظيفته كادت تطير شظايا نفسه حسدًا. وشعرَ من نفسه بذلك الشعور الذي يقعُ في نفس الكلب إذا وجد ريح الذئب مختفيًا تحت ثياب ربه، ومن ثم جعل يتحامى طريقه ولا يلقاه إلا مكرهًا على لقائه. فكان إذا لقيه لقيه لقاء المحتشم المستكين، وإذا خاطبه خاطبه خطاب المتحفظ الرزين.

هذا ما كان من أمر «جافير» و«مادلين»، ولقد طال عليك أيها القارئ انتظار حديث «فانتين»، وطال عليها الوقوف أمام تلك القرية.

قدمت «فانتين» بلدتها وما نسيت ما كان من أمرها فوقفت تنظر إليها وقد تنكر لها كل شيء، ولم تر من تعرفه ولا من يعرفها، فسارت تعروها دهشة الغريب حتى وقف بها نصيبها على باب مصنع «مادلين»، فارتاحت لرؤية وجه ذلك الباب كأنما هي ترى وجه صديق لها، وعرضت نفسها على رب المصنع، فأمر بضمها إلى قسم النساء، فكانت تصيب الكفاف من الرزق لجهلها بتلك الحرفة الجديدة، وكان أجرها في اليوم لا يتجاوز حد القوت، ولكنها قد بلغت على كل حال مناها، وأمست تعيش من كسب يدها ففرحت بصيانتها لماء وجهها وحفاظها لعرْضها، وانكمشت في العمل حتى برعت فيه، وزادوا لها في الأجر فأمكنها أن َتكتري لها مكانًا صغيرًا وأن تبتاع بعض الأثاث بالقرض والنسيئة، فبدأت بشراء مرآة كانت تنظر فيها عند كل صباح إلى نضرة شبابها

(1) أبل: شُفِيَ وعُوفي.

فتطرب كلما تمثل لها عَسْجَدُ[1] شعرها، وتراءى لؤلؤ ثغرها، وكادت تنسى هموم ماضيها ولم يعد لها من هم غير التفكير في طفلتها وفيما سيكون أمرها في مستقبل أيامها. وكانت تحرص كل الحرص على إرسال النفقة في حينها، وتبالغ في كتمان أمرها وتحتجر من الناس غاية الاحتجار، وتتحفظ من أن تسقط منها لفظة تشير إلى ذكر «كوزيت» أو محل وجودها، أو أن تخوض في حديث يجر إلى ذكر الزواج، ولكن أبى النحس إلا أن يلازم طالعها، فإنها كانت كلما أرادت إرسال النفقة إلى طفلتها في كل شهر استدعت أحد الكتاب فاستكتبته كتابًا إلى أصحاب النُزل، وذلك لجهلها بالكتابة كما قدمنا، فكانت تستدعيه عند قدوم الليل والليل أكتم للسر، فولَّد ذلك بنفوس صواحبها بالمصنع بعض الشكوك، ولفت أنظارهن إلى مراقبتها، فجعلن يتحدثن فيما بينهن بأمرها ويقلن: ما لهذه الرسائل بد من سبب، وما بال هذا الكاتب لا يأتي إلا إذا أتى الليل؟ وما بال «فانتين» كاسفة البال تنزوي في طريقها عن الناس وتتحامى في المصنع الاختلاط بنا؟



(1) العسجد: الذهب، ويعني شعرها الأصفر.

ولا تعجب أيها القارئ، فإن أشد الناس مراقبة للناس من كان أبعدهم نفعًا من وراء تلك المراقبة، فهو يراقب لغير نفع يجذبه أو مال يكسبه، ولكنها غريزة فيه تثيرها الرغبة في الوقوف على أحوال غيره، فتراه ينفق المال، ويستخدم الرجال، ويمالئ كل من كانت له صلة بمن يراقبه من حاشيته وخدمه وأصحابه، ويكد ذهنه وينصب بدنه ويصرف النفيس من وقته في تسقط الخبر وتلمس اللفظ، ويجمع كيده لاستبطان الأمر، ويرصد نفسه لاستطلاع السر، فيخالط السوقة ويجالس أهل المنزلة التي هي دون منزلته، فيعقد لهم مجالس الشراب، وينفق عليهم ما يضن بإنفاق بعضه في سبيل البر وطريق الخير، ويكمن تحت الليل في زوايا الطرقات لا يبالي سقوط الجليد ولا يعبأ بوخز القر، ويجلد على احتمال تلك المشاق حبًّا في الاستطلاع ورغبة في الكشف، حتى إذا ألمَّ ببعض الأمر وانكشف له جانب السر جلس إلى أصحابه في الأندية يحدثهم وهو يميل بسالفته تيهًا ويثني عِطْفَه[1] كبرًا كأنه قد اهتدى ببحوثه تلك إلى كشف سر من أسرار الكون!!

كذلك كان حال «فانتين» مع تلك النسوة اللاتي يعتملن بذلك المصنع فإنهن قد أفرطن في مراقبتها، فعددن أنفاسها، ورقبن حركاتها، وذَهبْنَ مع الظنون في أمرها، لمحنها مرةً وقد وقف الدمع في عينها موقف الحائر فانتحت ناحية من المكان وجعلت تمسحه في خفية فتغامزن عليها بالعيون، وأصبح الشك عندهن يقينًا، ولم يكن -علم الله- بكاؤها إلا لذكرى طفلتها وما كان منها مع ذلك الرجل الذي غلبها على أمرها.

وما زلن يوالين البحث حتى اهتدين على معرفة العنوان الذي تكتب به، واجتمعن بذلك الكاتب الذي كانت تستخدمه في الكتابة، فانطلقن به إلى إحدى الحانات، وكان الرجل خفيفَ الحال، مدمنًا للراح[2] يبيع ما في فؤاده من السر بكأس من الخمر، فحططن عليه بالشراب حتى استفرغن ما عنده من أسرار تلك الكتب، فعلمن أن «لفانتين» طفلة، وأنها غادرتها بنزلٍ في قرية «منتفرمي»، وما اكتفينَ بما وصل إليهن من ذلك العلم، بل بعثن منهن رسولًا يرى الطفلة رأيَ العين، وكان هذا الرسول شيخة من ذوات الأسنان، نسجت الشيخوخة على وجهها طبقة من التشويه، فزاد ذلك في دمامة خلقتها، وكان زوجها راهبًا قد فرّ من أحد الأديار، فتزوج بها ثم مات عنها منذ زمن طويل، فلبثت بعده أرملًا إلى هذا العهد، وكانت تعيش من فَضْلَةٍ قد بقيت لها.

تلك «مدام فيكتريان» التي كانت رسولهن إلى قرية «منتفرمي»، وهي التي قالت لهن عند عودتها: لقد أزلتُ الشك باليقين، ورأيت الطفلة رأى العين، وأنفقت على ذلك مئة وأربعين قرشًا.

---

(1) العِطْفُ، العُنُق.

(2) الراح، الخمر.

واستغرقت تلك المؤامرة زمنًا طويلًا حتى استوفت «فانتين» عمر العام، وهي بذلك المصنع، وفي ذات يوم دخلت عليها كبيرة دار الأجيرات فناولتها مائتي قرش وقالت لها: إن ربَّ المصنع يأمرك بالتحول عن هذا المكان، وإن أحسنت إلى نفسك فلا تسكني القرية بعد اليوم.

فجمدت «فانتين» في مكانها، وحاولت الكلام فخانها الصوت، ونظرت إلى وجه التي تحدثها لعلها تلمح فيه للعطف مجالًا، فخرجت تمشي على استحياء وهي أسوأ ما تكون حالًا، وكان ذلك في الشهر الذي لؤم فيه صاحب النزل واشتط في طلب النفقة منها، فانكفأت إلى حجرتها، وجلست تفكر فيما سيئول إليه أمرها، وكانوا قد أشاروا عليها بمواجهة الشيخ «مادلين» لتنفض إليه جملة حالها لعلها تصيب منه قلبًا رحيمًا، فمنعها الحياء من ذلك وقالت في نفسها: لقد أمر بإبعادي لأنه عادل، وجاد عليّ بمائتي قرش لأنه كريم، وما عسى أن يفعل الرجل معي أكثر من ذلك، وقد وقع في نفسه ما أنهى إليه من أمري!

كان «مادلين» بريئًا من ذنبها، لأنه لم يكن من عادته الدخول إلى دار الأجيرات، فلم يشرف على أعمالهن، وقد عهد بذلك إلى واحدة منهن عرف فيها الاستقامة وصفاء السريرة، فأقامها رقيبة على الأجيرات، ومنحها التصرف المطلق في أمورهن، وكانت تلك المرأة بمنزلة من الأمانة والرفق في العمل وإسداء المعروف، ولكنها لم تبلغ المرتبة التي إذا عرف أهلها بوجود الذنب ذكروا العفو عن المذنب، فهي التي باشرت التحقيق في أمر «فانتين»، وهي التي حكمت عليها وقامت بإمضاء ذلك الحكم وطلبت من مادلين التصديق عليه.

كل ذلك يجري بالمصنع في قسم النساء و«مادلين» لا يعلم منه شيئًا، ولا عجب فإن أمثال هذا الرجل من أصحاب النفوس الزكية والقلوب النقية يتركون النظر في شؤونهم إلى من يرون فيه الإخلاص ولايحاسبونه يومًا على ما يأتيه من ذلك العمل.

ولما غادرت «فانتين» المصنع على أثر تلك المؤامرة لم تر بُدًا من البقاء في القرية لأنها قد ابتاعت أثاث منزلها بالقرض والنسيئة، وقد بلغ التاجر ما نزل بها فأنذرها بسوء العاقبة إن هي غادرت القرية قبل وفاء دينه، وكذلك كان حالها مع ربة المنزل الذي استأجرت فيه قاعتها على أنها قد قسمت بينهما ما أحسن به عليها «مادلين» واستمهلتهما في المقاضاة فيما تبقي عليها، وردت إلى التاجر بعض ذلك الأثاث وحفظت منه ما لم تر بدًا من حفظه، وعولت على العمل، فطرقت جميع الأبواب، والتمست أن تكون خادمًا بأحدها، فلم يكن نصيبها غير الرد والإعراض، فعادت إلى منزلها تتعثر في ذيول الخيبة، وما زالت تطالب فكرتها في استنباط عمل تعيش من ورائه حتى فتقَ لها الذهن أن تعاود حِرْفَةَ الخياطة، فكانت تخيط الأقمصة

لعساكر الحرس، فتصيب في يومها اثنى عشر صلديًا تحفظ عشرة منها لنفقة «كوزيت» وتنفق اثنين من أحراز مسكة الحوباء. وكانت تساكنها بتلك الدار عجوز من البائسات، قد مارست صنوف الشقاء، وتقلبت بها أحوال العسر والمتربة، فجعلت «فانتين» تجلس إليها في كل يوم، وتأخذ عنها دروس العيش في الخلة والضيق.

وليعلم القارئ أن وراء العيش من القليل منزلة أخرى، وهي العيش من لا شيء، وأن هؤلاء البؤساء الذين شبوا وشابوا بين شظف العيش ونكد الحياة لهم فنون وأساليب في الانتفاع باليسير من المال، فتراهم يتلمسون من وراء الدافق[1] منافع عديدة، ويقضون بالسحتوت الواحد حاجًا متنوعة. ولقد أصبحت «فانتين» بفضل تلك الدروس بارعة في فن الحياة، فاستغنت عن النار في الشتاء، وعن اللحوم في الطعام.

وعرفت كيف تجعل من ثوبها غطاءها، ومن غطائها ثوبها، وأدركت كيف تقتصد ضوء شمعتها فتأخذ طعامها على ضوء الشفق أو على أشعة النور الذي ينفذ من طاق جارها، وكانت تقول لجارتها وهي تحدثها: إني لأقضي عامَّة النهار وثلثي الليل وأنا أخيط فأكاد أصيب بذلك ما أتبلغ به من الخبز اليسير، وإني بحمد الله حزينة القلب كسيرة الخاطر، ومن كان حاله كحالي من الهم كان خليقًا أن لا يتناول غير القليل من الزاد، فأنا أتبلغ بذلك الخبز اليسير، وأتأدَّمُ بهذا الهم الكثير، وأجد منهما غذاء أمسك به النفس وأحفظ به الحياة!

وفي تلك الضائقة التي يخرج احتمالها عن طاقة البشر كانت تمر بفانتين ذكرى طفلتها، فتجد لذلك سرورًا لا يعادله عندها شيء، فيدعوها الشوق إليها إلى طلب استحضارها من ذلك النزل، ولكنها تراجع نفسها بقولها: أي ذنب جنته تلك الصغيرة حتى يقضي عليها أن تشاطرني هذا البؤس، وهب أن هذا الذي أنا فيه لم يكن بؤسًا فمن أين لي نفقة الطريق ووفاء ما عليَّ من الديون لأصحاب النزل حتى أستخلصها من أيديهم؟ إن هذا لأمل بعيد!!

وكانت تلك المرأة التي علمتها دروسُ الحياة من ذوات النفوس العالية وأهل العفة والقناعة تسدي المعروف إلى الفقير والغني، وتفعل الخير لأجل الخير، ولا تعلم من الكتابة غير رسم توقيعها وتقول: إن الله موجود ولا تعرف غير ذلك. وكم من فضائل كامنة في نفوس أمثال هؤلاء الذين نزل بهم الدهر إلى الحضيض، ستعلو بهم ذات يوم إلى عنان السماء، فإن لكل يوم غدًا.

ولبثت «فانتين» كثيرة الخجل شديدة الحياء من نظر الناس إليها وهي على تلك الصورة من خفة الحال ومظهر العوز والاحتياج، فلزمت بيتها زمنًا طويلًا، وكانت إذا

(1) الدافق: ضرب من المال ضعيف، وكذا السحتوت.

دعتها الحاجة إلى الخروج لابتياع شيء أو قضاء أمر، مشت في الطريق وهي كاسفة البال تودُّ لوساخت بها الأرض لتختفي عن أنظار المارة، وكانت تشعر كأنهم يترسمون بالنظر مواقع أقدَامها، ويشيرون بالأصابع إلى رث ثيابها فتغض من نظرها، وتحث قدميها للهروب من تلك النظرات التي اخترقت إهَابَها وأدْمَتْ فؤادها.

ولو كانت تلك البائسة في باريس لما لفتت إليها نظرًا ولا استوقفت ناظرًا، ولأرخَتْ عليها ظلمةُ الفقرِ سدولًا تحجبها عن العيون، ولكن في أمثال تلك القرى الصغيرة قلَّ أنْ يجد الناس ما يشغلهم عن مراقبة الناس. ومرت على «فانتين» ثلاثة أهلة، وهي تروض نفسها على احتمال ذلك الازدراء كما راضتها على احتمال مرة الشقاء، حتى نضب ماء الحياة من وجهها وزال ذلك الشعور من نفسها، وصارت تمشي في الطريق وهي طارحة رداء الخجل لا تبالي تلك النظرات، ولا تحفل بهذه اللفتات، وكانت تلازم ثغرها ابتسامة، الله أعلم بما يمتزج بها من مضاضة الحياة، وتنأى بجانبها عن الناس شامخة الأنف عالية الرأس.

وكانت كلما لمحتها مدام «فيكثريان» حاسبها الله وهي تمرح في قدّ تلك الخلة والضيق، وتمشي هذه المشية في الطريق حمدت مغبة عملها، وأثنت على نفسها إذ حالت بين تلك البائسة وبين الهناء، وردتها بفضلِ سعايتها إلى ذلك الشقاء، ومن الناس من لا يجد سروره إلا في ألم غيره. نفوس فُطِرَتْ على الشر، فلا يصفو لها مورد السعادةِ ما لم تَشُبْهُ شائبة من الأذى.

قلنا: إن «فانتين» كانت تقضي عامة النهار وثلثي الليل وهي عاكفة على العمل، فلم تزل تلك حالها، حتى أوهَنَ الإفراط في العمل من عَزْمِهَا، وزادَ في ذلك السعال الذي كان جاثمًا في صدرها، فاشتدت بها الضائقة اشتدادًا يعزبُ معه الصبر.

ولكنها كانت كلما مشَّطت عند الصباح شعرها بذلك المشط الذي أسقط الدهر أسنانه فكان أشبه الأشياء بثغر الأدرد، فنظرت جمال فرعها المرسل إرسال الحرير اختلست رقدة من عين الدهر ومدت يدها لمصافحة السرور.

وكانت قد خرجت من المصنع في أخريات الشتاء، فانصرم الشتاء، وانطوى على أثره الصيف، ودار الفلك دورته فإذا الشتاء التالي يقرع باب «فانتين» قرعًا ينذرها بيوم قصير وجو مطير وضباب مقيم وأفق مظلم ونهار يعثر صباحه بمسائه وليل يجهل أوله آخره وشمس ومداء وسماء مكفهرة الأرجاء، وعيش كثير المؤونة، وفصل هو حرب الفقير وهلاك الضعيف، يقل فيه العمل وتكثر النفقة فتطلب المعدة الغذاء، والجسم الرداء، ويلتمس المقرور النار، ويضيق بصاحب الكفاف رحب الدار.

فَصْلٌ يُحوِّل الأفئدةَ إلى صخور، ويرد السائل إلى جماد، قددهم «فانتين» وهي

بين الخلة والقلة، فزاد في دَيْنها وكساد حرفتها، فسقطت عليها مطالبُ الغرماء سقوط القضاء، وألح صاحب النزل - قاتَلهُ الله - في طلب النفقة والتماس الزيادة فيها حتى زهدت فانتين في حياتها وحبب إليها قرب يومها. وجاءها منه ذات يوم كتاب يذكر فيه أن ابنتها أصبحت عارية الجسد وأنها إن لم تتداركها بإرسال أربعين قرشًا لا بتياع لباس لها فهي هالكة لا محالة.

فوقع ذلك الكتاب في نفس «فانتين»، وأحزنها طول يومها، ولما كان المساء انطلقت إلى حانوت حلاق فوقفت أمامه ونزعت ذلك المشط الذي كان يمسك شعرها فانسدل على ظهرها وستر أردافها فصاحَ الحلاق: لله ما أجمل ذلك الشعر، فقالت فانتين: انظرِ كم تدفع من الثمن إذا بعتكه؟ قال: أربعون قرشًا. قالتْ: عَجِّلْ بقصِّه، فقامَ الرجلُ إلى مقصه، وأهوى به على شعرها وأعطاها الثمن، فاشترت به لساعتَها لباسًا، وبعثت به إلى طفلتها، فساءَ ذلك صاحب النزل، وأغضبه لأنه كان يطمع في الدرهم لا في اللباس، فأعطاه إلى إحدى بنتيه، وبقيت «كوزيت» في جلدها تقضقض من البرد، وترتعد من الجليد، كل ذلك وأمها تظن أنها باتت تمرح في ذلك الكساء الجديد، ولا علم لها بما تقاسيه من ذلك الألم الشديد.

وكانت «فانتين» كلما أحست بألم فراق شعرها وجدت لذلك بعض العزاءِ، لأنها لم تفقد ذلك الشَّعر إلا لتحفظ حياة تلك الطفلة.

وتمر بها ساعات تذكر فيها حسن شعرها فينقبض صدرها ويمتلئ حقدًا على ما يحيط بها، ويمتد ذلك الحقد حتى يتناول «مادلين» ذلك الذي كانت تشاطر الناس محبته بالأمس، وقد أصبح اليوم من أبغض الناس إليها لكثرة ما سمعت من أنه هو الذي أمر بإبعادها وأنه أصل شقائها وسبب بلائها.

وكانت كلما مرت أمامِ ذلك المصنع تكلفت السرورَ والابتسام، وجعلت تغني غناء رضيّ البال رضيّ الحال، تُوهمُ بذلكَ أهلَ المَصنع أنها اليوم أنعم منها بالًا بالأمس، وما خفي عن أصحاب المصنَع أمرها، فقد قالت إحدى عجائز الأجيرات حين لمحت «فانتين» وهي على تلك الحال ويلٌ لهذه الفتاة من سوء المصير!!

وما زال الشقاء يجر على «فانتين» الشقاءَ حتى حدَّثت نفسها أنْ تتخذَ لها عشيقًا جديدًا، وقررت أن يكون أول من تلقاه في طريقها كائنًا من كان.

فوقفَ نصيبها على موسيقار رقيق الحال، غليظ القلب، عاطل يتكفَّف، وسائل يستكف، لا يعرف العشق، ولا يفقه معنى المداعبة، فطارحته «فانتين» حديث الغرام، فلم تره يحن إلى شيء من ذلك، على أنه ما لبث أن هجرها بعد أن ضربها ونهرها.

فخلا فؤادها من كل حب إلا طفلتها، فكانت تراها في ظلمة ذلك اليأس كنجم

يلمع في سماء آمالها، لأنها كانت تخلو بنفسها فتحدثها بتلك الآمال التي تلوح لها بوارقها في جو الخيال. ولو وقف بؤسها عند هذا الحد لأطاقت حمله، ولكن صاحب النزل كان يزيد في ألمها ويروعها كل يوم بطلب جديد.

كتب لها أن ابنتها مريضة محمومة وأنها إن لم تسارع بإرسال قطعتين من الذهب لوقايتها وعلاجها فإنه يخشى عليها عادية الموت، ولا تسل عما حل بها حين أخذ نظرها ذلك الكتاب، فقد خرج بها الألم عن حد الإدراك، فجعلتْ تضحك وتهذي، وخرجت تطفر[1] في الطريق طفر الأطفال، وتضحك ضحك الأبله المعتوه، وتقول لنفسها: قطعتان من الذهب، اللهم غَفْرًا، ترى إن هؤلاء القوم لا يعقلون!!

ولم تزل كذلك حتى وقفت على لفيف من الناس قد التفوا حول طبيب للأسنان يعرض عليهم أسرار صناعته، وما يلتحق بعلاج الأسنان وتنقيتها، ونزع المتآكل من الأضراس وغير ذلك، فاندست «فانتين» في غمارهم وهي لا تزال على ذهولها تضحك ولا تعي، فصاح الطبيب حين لمح لؤلؤ ثغرها أتبعينني أيتها الفتاة ثنيتيك[2] بقطعتين من الذهب قالت «فانتين»: وما الثنيتان أيها الطبيب؟ قال: هاتان اللؤلؤتان اللتان تلمعان بمقدم ثغرك، فصاحَتْ «فانتين»: غفرانك اللهم إن هذا لهو الضلال المبين!! وكانت بجوارها عجوز دَرْدَاء تسمع كلام الطبيب فقالت تُكَلِّمُ نفسها: قطعتان من الذهب بقطعتين من العَظْم لله ما أسعد تلك الفتاة، على أن «فانتين» لم تكد تسمع كلام ذَلك الطبيب حتى رجعت أدراجها، وقد سترت لؤلؤ ثغرها بمرجان شفتيها، ووضعت إصبعيها في أذنيها كيلا يصل كلامه إلى سمعها، وهو مع ذلك يصيح في أثرها: أيتها الحسناءُ تمهلي في الأمر واستوزعي فؤادك يلهمك القبول، واعلمي أنك لم تُغْبَني فيما عرضناه عليك من الثمن، فإذا كان المساء فأغشينا بدارنا بمكان كذا، فوقع كلامه في أذنها رغم أصابعها، وزاد في نفورِه، فانطلقت حتى إذا بلغت دارها عطفت على جارتها العجوز وهي أشد ما تكون غيظًا، فأخبرتها خبرَ الطبيب وما كان منه، وقالت: لقد بِعْنَا الشَّعْرَ لأنه يعودُ فينمو، ولكن ما حيلتُنَا في الأسنان ومَفْقُودُهَا كما تعلمينَ لا يعودُ، وهي حِلْيَةُ الثغر، ونقطةُ دائرة الجمال، ثم غادرتها، وانكفأت إلى حجرتها، وعكفت على خياطتها، ولم تكد تستقر في مكانها حتى ندرت الإبرة من يمينها، فقامت مسرعة إلى ذلك الكتاب المشؤوم ورجعت إلى جارتها تسائلها عن معنى تلك الحمى ونتائجها فقالت لها: إنها مرض من الأمراض يعتري الكبير والصغير، وهو اليوم أكثر وقوعًا في الأطفال فقَالت «فانتين»: وهل يجرّ هذا المرض إلى القبر؟ قالت: نعم يجر إلى القبر إذا تخلت عن المريض العناية،

(1) تطفر: تنط وتقفز.

(2) أسنانك العليا.

فخرجت فانتين من عندها، ونظرت إلى الكتاب نظرةً أخرى ولبثتْ بقية يومها نهبًا للهواجس، ولما تُوفي اليوم النهار رآها بعضهم، وقد أخذتْ طريقها إلى دار ذلك الطبيب فانتزع اللؤلؤتين، وحباها القطعتين، ودخلت جارتها في صباح الغد مبكرة إليها فألقتها جالسة فوق سريرها وهي شاحبة اللون ساهية الطرف، تنطق بوجهها آثار السهر، ويدل تضعضع حالها على أثر نزال قام بينها وبين ليل كان أطول من شعرها وأسود من حظها، وعلى القرب منها شمعدان قد فنيت شمعته، وخلقت على جوانبه شباكًا من دموع أسالها اللهيب وجمدها القرّ.

وتقف جارتها أمام ذلك المنظر الذي يقطع نياط القلوب جزعًا وتنادي: ويلي عليك أيتها البائسة، تشعلين الشمعة كلها في ليلة واحدة، فما عسى يكون قد نزل بك من الأمر، ومالي أراك كأنك قد انتفضت من كفن أو أفلت من ظلمة رمس؟ فالتفتتْ إليها «فانتين»، وقد أهرمتها تلك الليلة الماضية فأخذت من شبابها، وبلغت منها ما لم يبلغه كر الغداة ومر المشي، عشرة أعوام كاملة فتقول لها: ليس بي بحمد الله من شيء بعد إنقاذ طفلتي من يد الموت بهذا الذهب، وتنظر جارتها وهج الذهب بجانبها فتصيح: اللهم إنها ثروة، فمن أين لك هذا وقد عهدتك بالأمس لا تعرفين وجه الفضة؟ فتبتسم فانتين ابتسامة تنم عن لعاب دام قد لوث ركني شفتيها، وثغرة مظلمة في وسط ذلك الثغر المضيء، فتعلمُ جارتها كما علم القارئ أن تلك الثغرة المظلمة هي مكان تينك اللؤلؤتين!!

وانطلى خداع صاحبُ النُّزُل -برئت منه المروءة- على «فانتين»، فوجهت إليه بطلبته، ولم تكن طفلتها مريضة كما يرجف، ولكنه شَرَكٌ قد مده لاصطياد دراهمها، حتى سلبها عسجد شعرها ولؤلؤ ثغرها، وأصبحت عُطلًا من الحلى والجمال، فكسرت تلك المرآة التي كانت تجد في النظر إليها بعض الهناء أيام صحبتها شعرها، وتحولت عن قاعتها بالطبقة الثانية إلى قاعة أخرى بسطح المنزل قد أعدت لسكنى البائسين، وكانت ذات سقف مسنم يرتكز وجهاه على وجه الأرض إذا دخل فيها ساكنها البائس انحنى تحت سقفها انحناءه تحت أثقال العيش وأعباء الحياة.

ولم تكن تشتمل على غير خشبة قد طُرِحَتْ على الأرض، وخلقة كانت تسميها غطاء، وكرسي قد نزع تقادم العهد أحشاءه، وجَرَّة كنت ترى الماء فيها سائلًا وأخرى جليدًا، وزهرية قد جف طينها وذبل زهرها، وفتاة قد نزعت نقاب الحياء وعافت زينة النساء تخرج في الطريق وعليها ثوب خلق رديم ممزق الأديم، قد أهملت رتق فتوقه، وأغفلت سد خروقه، وما أدرى أكان ذلك لضيق في وقتها أو لعدم اعتناء منها بأمرها، وهي تنتعل حذاءً قدْ كشر عن نابه، تحت جورب قد نصل عن خضابه، يحيط بخصرها نطاق بالٍ مرقع يكاد إذا تنفست فيه يتقطع.

وتنكفئ إلى غرفتها وقد بضع الهم من فؤادها بضعة، وعبَّست الخيبة وجه أملها، واشتد الأمر وضاق، وتقابلت حلقات الوثاق، وسطا عليها سعالها سطوة الجبار، ولزمها ملازمة غرمائه بالليل والنهار فتقضي فحمة الظلام منفرة المنام سميرة الآلام حاضرة الدموع غائبة الهجوع، وتفني شمعة النهار بين وخز الإبر ووكز الفكر، وقد قدر عليها الله الرزق فأجراه لها من سم خياطها، وهبطت أسعار الأجور فنزل أجرها في اليوم من اثنى عشر صلديًا إلى تسعة فاستحال عليها إمساك الرمق بهذا القدر اليسير، على أن طفلتها وحدها كانت تكلفها فوق ذلك، ولو وقف بؤسها عند هذا الحد لقلنا خطب يهون، ولكن صاحب النزل قد خرج عن أفق الاعتدال فأرسل يطلب منها أربع قطع ذهبية ويقول لها في كتابه: لقد منينا بأمر طفلتك وصبرنا منك على ما تعلمين، فإن لم تسارعي بإرسال هذا القدر من المال نبذنا «كوزيت» بالعراء، وطرحنا بها في مساقط القضاء، فهي إن أخطأها برد الشتاء فليس يخطئها نازل البلاء ولقد أبلّت اليوم من مرضها ولكنه إبلال يعقبه الموت إن فاتك في أمرها الفوت. فما الجرح ينكأ به الجرح بأوجع في نفس الجريح من ذلك الكتاب في نفس «فانتين» فإنها قالت بعد قدومه: اللهم إنك تعلم إنني بِعْتُ الشعر والأسنان بيعة وكس، وصبرت حتى ملني الصبر، وقد كانت لي صبابة عيشي تكفيني السؤال فما زالت ترتشف منها الحاجات حتى أنضبت، اللهم لم يبق إلا العِرْض وقد أمست تساومني فيه الأيام، فلا راد لقضائك ولا مذهب من ورائك!

***

أبى قدر الله إلا أن تمزق الفاقة ثوب ذلك العفاف، وأن لا تركب «فانتين» غير سبيل الخسار، فابتذلت خدرها وباعت عرضها، وعرض منها البؤس على هذا المجتمع الإنساني أمَةً فاشتراها، عرضها عليه في سوق الألم فابتاعها بكسرة من الزاد وكان فيها من الزاهدين فأف لتلك المدنيَّة غلبت الناس على أمرهم، وزادت في أسرهم، نفس حرة تباع بكسرة. وعرض مغبون فيه يتساومون، ولا زلنا نسمع عن هذه المدنيَّة آيات المدح والثناء وتطن في آذاننا أصوات المرجفين في أنحاء البلاد برفع الرق والاستعباد عن رقاب العباد، أين كتاب السيد المسيح؟ وأين ما جاء فيه من الحكم الصريح؟ طليتم وجه مدينتكم بطلاء من كلماته، وأفرغتم فؤادها من حكمه وعظاته! فتأول حكمه منكم الظواهر ووقف عن تناول ما في السرائر! أوهمتم الناس بانطواء أجل الرق، وفاتكم أنه وإن خف حمله عن أعناق الرجال، فقد باتت تنوء بثقله أعناق النساء!!

تملق المرأة فتجوع وتعرى، فتركن إلى الصبر والتجمل، فيضيق عن ذلك ضعفها، فتفزع إلى السعي وراء الرزق من أشرف وجوهه، فيقعد بها الدهر، فتبيع الناس

نفسها فيتنافسون في المساومة، حتى إذا ظفروا بتملك تلك النفس المعروضة في سوق الشقاء سجلوا عليها فعلتها تلك في باب الزنا، وتغاضوا عن تسجيلها في باب الرق وهو بها أحق، وهي به ألصق!!

ويل للمرأة من الرجل يسترقها، وما يدريه ما المرأة؟! هي وعاء النسل، وظرف الحمل، هي زينة الحياة، وزهرة الجناة، هي بيت الجمال، وموطن الدلال،هي مسكن الضعف، ومهبط العطف، فيا لله ما أكثر مخازي الرجال!!

ذلك مثل «فانتين» في ابتذالها لخدرها بعد أن نزلت من المكروه منزلة ينقطع العقل عن تقديرها، ويجمد الذهن عن تصويرها، وبعد أن أنذرها الدهر بالانسلاخ عن هيئة العالم، وأنذرها العالم بالخروج عن دائرة الوجود فتسكعت في الضلالة وتبسطت على الإثم وتمرغت في حمأة الغي، فخَوى هيكلها روح الشعور، وكتب اليأس علي لوحِ صدرها المثلوج قولِ ذلك الحكيم، لا رغبة ولا رهبة، فأصبحت لا تخشى نازلا، وأمست لا ترجو نائلًا وباتت لا تبالي لأنها ما انتفعت بأن تبالي. مرَّ بها زمن وهي تصابر القضاء، وتنازل الشقاء، وتعانق الخطوب وتصافح الكروب، وتصبر على ذلك صبرًا كان أشبه بعدم المبالاة من الحمام بالمنام، فلم تنتفع بصبرها ، ولم تخرج من عسرها، فما عساها تحذر اليوم وهي كاالإسفنجة سكن الماء أحشاءها وغمر أنحاءها، سيان إن طاف بها المحيط أو سقط عليها الندى!

***

توجدُ بعامة القرى الصغيرة سيما القرية التي تسكنها اليوم «فانتين» طبقة من نشء الشبان العاطلين الذين يعيشون من وراء دخلهم السنوي، وأن أحدهم ليظهر بين أهل القرية بمظهر من الترف والنعيم لن يبلغه ساكن باريس أو ينفق أضعاف ما ينفق ذلك القروي، وقد جمعت هذه الطبقة في قريتنا تلك من أمثال هؤلاء الباهلين عددًا كبيرًا، فتراهم يجلسون في صدور المجالس وقد نفخ شيطان العظمة في معاطسهم، فجعلوا يتفاخرون بما ملكت أيمانهن: فمن تيَّاه بكثرة رجاله، ومن مدل بوفرة ماله، ومن معجب بحسن سمته وهندامه ومن مولع بألتفنن في أساليب كلامه، يتحرش أحدهم برجال الشرطة فيحفظهم بتعنته حتى يجرّ الأمر إلى المشاجرة فيقال: فلان لا يعبأ برجال الحكومة، وينطلق الآخر إلى التصيد والاقتناص كي ينوّه بذكره فيقول: انطلق النبيل إلى الصيد، ومنهم من يتورن[1] ويتزين فهو أنى خطر تأرج المكان بعطره واشتغل الناس بذكره، ومنهم مدمِنُ الخمر ومدمن الجلوس في الأندية حتى يفد السائحون.

(1) تورن، أي تعطر فأسرف التعطر

نعم وفيهم المتغالي في التقليد والمولع بالجديد، والذي لا يرى نفسه ظريفًا إلا إذا قاد كلبًا وازدرى نوع النساء فتأنق في التعريض بهن واستهتر في تقريعهن.

وكان الظرفاء في هذا العهد يغالون في البزة، ويتأنقون في الزي وشارتهم يومئذ أردية زيتونية اللون مفضضة الأزرار، وأحذية تحيط بأعقابها أهلة من الحديد وبكل منها مهماز للجواد شأن الفرسان، وعلى رؤوسهم قبعات عالية البنيان كزة الأطراف فوق شعر مجعد كثيف، وبأيديهم عصى غليظة كأنها الجذوع، دع الشوارب الطوال، والزيق المرتفع، ومنديل الرقبة المرسل على الصدر.

أذكر من بين تلك الطبقة المفتونة شابًا لم ينظر مدى عمره سماء باريس ولم يبرح دهره أرض تلك القرية، نشأ بين أفراد تلك الطبقة ففعل شرواهم وذهب مذاهبهم، وكان مثله كمثلهم، دخل قليل وعقل يسير، وسفه يوازنهما ونزق يعادلهما.

اتفق أن وقف ذلك المغرور ذات ليلة أمام أحد الأندية وفي فمه لفيفة من الطباق، وكان ذلك غب سماء، وقد انتشرت على وجه الأرض طبقة من البرد.

وتمر أمامه «فانتين» وهي عارية الأكتاف وعليها ثوب قصير تتجمل به النساء في المراقص، وكانت تلك عادتها منذ نصف عام، تعتمد الليل وتركب ذلك الطريق فتقبل فيه وتدبر بعض ساعة كأنها حرسي يحفظ السبيل، أو جندي أذنب فكان عِقابه السير فوق ذلك الجليد جيئة وذهوبًا، ويتعمد ذلك المغرور كلما مرت أمامه أغاظها ويتحرى إهانتها، فيعبس وجهها بكسفة من دخان لفيفته ويرسل عليها شواظًا من الإهانة والسباب فيقول: ما أبشعَ هذا الوجه وما أخلقَ حامل ذلك الثغر الأدرد بالانزواء عن أعين الناس، وتسمع «فانتين» ما يقول وكأنها لا تسمع، فتنطلق في طريقها وتواصل سيرها فيه إقبالًا وإدبارًا وهو في مكانه يكاد يقطر غيظًا.

ويحركه ذات مرة سكونها، فينطلق خلفها انطلاق الذئب خلفَ الفريسة، وهو يغت من ضحك المغيظ، ويدانيها فيهوى بيده إلى الأرض، فيقبض قبضة من البرد وينقضُّ عليها، فيدسّه بين ثوبها وظهرها، وينتشر البرد من ملتقى الكتفين إلى مستدق الصلب، فتزأر «فانتين» زئير اللبؤة، وتنفتل انفتال النمر، وتنشب أظافرها في وجهه وهي تصيح من فرط الألم بصوت قد صحله إدمان الخمر وأبحه الحنق، ويفزع الناس لجهة الصوت فرادي ومثنى فيرون رجلًا عاري الرأس يضطرب في يد امرأة مسلوبة الشعر والشعور، والرجل يحرص على الانفلات والمرأة تحرص على إمساكه، وقد رنحته لطمًا ولكمًا، وأتحفته بأنواع السباب والشتائم، فلم تبق في اللغة كلمة تشير إلى بذاءة أو لفظة تدل على لعنة إلا رمته بها من ذلك الثغر الأدرد.

ويقف الناس حولهما صفوفًا وهم بين ضاحك وصارخ ومصفق بيديه وكلهم

يتساءلون عن مثار تلك المعركة القائمة، ويبرز من تلك الصفوف رجل طويل القامة، فيجذب المرأة من نطاقها ويصيح بها: انطلقي على أثري وترفع «فانتين» عينيها وترى شخص «جافير»، فيخفت صوتها، وتصفر أحداقها، وتتزايل أعضاؤها، وتمشي خلفه بين الذلة والانكسار، وينهز الشاب تلك النهزة فيختفي وينقضي ذلك المشهد.

سار «جافير» يخترق الصفوف، وعلى أثره «فانتين» وأخذ سمته إلى مخفر الشرطة، فلما بلغه أمر بالباب ففتح، وبالشمعة فأوقدت، وانتزع من جيبه ورقة وأنشأ فيها يسطر، وانزوت «فانتين» في أحد الأركان كالكلبة راعها مروع، ووقف حول المخفر بعض المولعين بحب الاطلاع ممن شهدوا الحادثة، وجعلوا يشرئبون بأعناقهم من وراء النافذة رجاء أن يلموا بجانب الأمر.

وكانت شريعةُ ذلك العهد تقضي بوضع تلك الطبقة من النساء تحت التصرف المطلق لرجال الشرطة، فهم يلعبون بهن ما شاء الهوى ويصادروهن في حرفتهن المنكودة وحريتهن الموهومة!!

فأكب «جافير» على الكتابة وهو أشد ما يكون غيظًا، وما نسي القارئ ما كان من وصف أخلاق ذلك الرجل الذي ما نم قط ظاهره على باطنه ولا وجد التأثر إلى نفسه سبيلًا. ولكنه قد غلبَ في هذه المرّة على أمره فلاحت بوجهه ملامح الانفعال، فأجمع كيده، ومثل أمامه مدى سلطته، ونفث في يراعه سم غيظه، فكان يكتب وحنقه في عنفوان شبابه، وجرم تلك البغي يتجسم أمام عينيه، حتى إذا فرغ من كتابته وتوقيعه نادى بثلاثة من الشرطة، وأمرهم أن يقودوا «فانتين» إلى السجن وقال لها: ستلبثين هناك ستة أشهر.

فارتعدت فرائصها، وهمت بالنهوض فخانها العزم، فترامت تزحف بجسمها على بلاط قد طلته نعال الشرطة بطلاء من الوحل، وجعلت تضرع إليه وتستدر رحمته وتقول: ستة أشهر اللهم غَفْرًا، إنَّ في ذلك لهلاكًا لطفلة ليس لها سواي من عائل فاتق الله في ضعفي وراقبه في حياة تلك الطفلة، ولو أنك ألممت بمبدأ الأمر لتضاءل في عينيك منتهاه، فاصرف نظرك تلقاء ظلامتي، فإن كنتُ قد أجرمتُ بعدها فعليَّ إجرامي، وإني لأستعدي بك على ذلك الشاب الذي وترني على غير معرفة مني به - لمحني أسبهل[1] في الطريق فجعل يتحرش بي وأنا أصابره، حتى إذا أعياه الأمر عمد إلى قبضة من البرد فدسها بين ثوبي وظهري على غفلة مني، فوجدت لذلك ألمًا أخرجني عن حد الرشد، ففعلتُ به ما فعلت وأنا بمنزلة بين الألم والذهول، وما ظنك أيها الحاكم العادل بامرأة مريضة بباغتها مباغت بمثل ذلك الأذى تحت هذا الليل

(1) اسبهل أي أقبل وأدبر في الطريق لغير شيء وهو ما يسميه العامة «ضرب بنطة».

في الشتاء؛ أتراها كانت تحلم أم تطيش، فإن كنتُ قد أدركني بعض الطيش فإن ذلك إنما وقع لفرط الألم وضعف التحمل.

ألا شَاهدٌ ممن وقفُوا على الحقيقة يأتي فيظهرُ براءتي، ألا يعودُ ذلك الشاب الذي اختفَى فأعتذر إليه من فعلي وإن كان هو البادئ بالإساءة، ألا منقذ لي من هذا السجن الذي سيجر إلى طرد طفلتي من النزل فتموت فوق العراء، فياليت شعري، كيف أغذوها وأنا لا أكسب في السجن نصف ما قرره أصحاب النزل لقوتها؟ فلك الله أيتها الطفلة المنكودة، ولي الله من بائسة نزل بها العسر إلى تلك المنزلة من الحياة، فوالله ما كان هذا الفحش من أمري، ولكن هي الحاجة ترمي بصاحبها إلى مرامي الهلاك، فلا تفرط علينا وكن من الراحمين.

تقول ذلك بصوت خنقه البكاء، وأنفس قطعها الشهيق، كأنها محتضر قد أخذه النزع، وهي عارية العنق مفتولة اليدين، وقد أشرق محياها إشراقًا ظهرت معه في أعالي مجالي الجمال، ولا بدع فإن الآلام إذا بلغتْ مداها انبعث من أثنائها نور سماوي وانبسط على وجوه أصحابها فبدلها تبديلا.

ولما فرغت من ضراعتها تماسكت حتى أمكنها النهوض، ثم دنت منه فقبلت طرف ردائه، ولو أنها ضرعت كذلك إلى رجل قد قدَّ من حجر الصوان قلبه لذاب لها رأفة، ولكنها قد صادفت رجلًا بلا قلب فهو لا يعطفه التوسل ولا ينال منه التذلل!!

أو تدري أيها القارئ ماذا كان جوابه لها بعد الذي سطرناه تحت نظرك؟ كان جوابه أن قال لها: لقد وعيتُ حديثك فانطلقي إلى السجن، فبه حكمتُ عليك، وقد استحال غير ما حكمت، فلو أن ذلك الديان يتجلى اليوم لفصلَ القضاء لماَ قضى عليك بغير ما قضيت.

قال ذلك ثم ولاها ظهره، فجمدت في مكانها وتحرك الجند وإنهم ليهمون بجرها وما تصل أيديهم إليها إذ وثبَ من جانب المخفر الأيمن رجل ملثم فحسر عن لثامه وصاحِ بهم: مكانكم أيها الجندُ فمد «جافير» بصره فإذا به يرى «مادلين» فحياهُ تحيةَ الكاره لرؤيته وقال له بصوت الكاظم لغيظه: عفوًا سيدي الشيخ - وما وقعت تلك الكلمة في سمع «فانتين» حتى انتفضت في مكانها فدفعت عنها الجند، وسرت مهرولة إلى «مادلين»، ولما تبينت وجهه صاحت به وهي تغرق في الضحك أهذا هو أنت، ثم بصقت في وجهه، وانقلبت إلى مكانها فمسح «مادلين» وجهه، وقال لجافير: خلِّ أيها المفتش سبيل هذه المرأة.

كل ذلك يجري و«جافير» ينظر وهو متهم لنظرِه، ويسمع وهو مكذب لسمعه، وقد قرعت نفسه قارعتان ذهبت أولاهما بصوابه وفَلّت الأخرى غرب إرادته، فلبث في

مكانه برهة أعوزه فيها النطق، وافترست طائر حلمه الدهشة والذهول.

نظر امرأة تبصق في وجه شيخ جليل، والمرأة من البغايا والرجل من أولي الأمر، فاتهم للوهلة الأولى نظره، وشهد بعد ذلك الرجل يمسح وجهه وهو أروح ما يكون بالاً، ويأمر بإخلاء سبيل تلك المرأة فلم يصدق سمعه.

ولم تكن «فانتين» أقل ذهولاً منه فإنها لم تكد تسمع قولة «مادلين» حتى دلفت إلى الباب، وجعلت تعالج فتحه وتتهيأ للخروج وهي تقول كمن يكلم نفسه: أيسرحونني فلم أسجن؟ ومن ذا الذي يستطيع ذلك؟ ولقد سمعتُ بأذني الأمر بالسجن، ووعيت ما سمعت، فلئن كنت قد طرق سمعي بعده أمر بالإفراج،لقد كذبتني الأذن. اللهم إلا إذا كان «جافير» هو الآمر، أما ذلك الشيخ المريب فليس له من الأمر شيء، وما أدري ما الذي حدا به إلى الحضور، أو ما كفاه طردي من مصنعه وخروجي عن أفق العفة والصيانة وهبوطي إلى تلك المنزلة، ولقد كنت أعمل في مصنعه فأصيب رزقي بين العفة والكفاف، فأبى إلا أن يكون أذناً للسعاية بي، فأخرجني حين لا موئل ولا وجه للرزق، وحملني بظلمه على ركوب تلك الطريقة، ويعلم الله أني ركبتها وأنا كارهة لركوبها ولكنها سبيل كل مضطر عديم، ولولا ما حمَّلني أصحاب النزُل من الديون واشتطاطهم في طلب النفقة لتلك الطفلة وكساد الحرفة التي أزاولها لتماسكت وإن زعزعني الدهر، وبالغت في تطفيف قوتي الأيام والليالي!

ويسمعُ «مادلين» شكواها فيضربُ بيده إلى جيبه، وينتزع منه كيسه ويجدهُ خالياً فيرده إلى مكانه ويقول لها: خبريني كم مبلغ ديونك أيتها الفتاة، فتقول له: إليك عني أيها الرجُل، فلست بمحدثة معك ذكراً، ثم تلتفت إلى «جافير» فتحاسنه في الخطب وتنتفض أمامه من قدر «مادلين»، تشرح له سوء مغبتها إن هو قد أصر على حكمه، وتستنزل عفوه وتعود به من عقابه، وتنتهي بقولها: ولا أحسبك بعد الذي عرفتَ من أمري إلا غافراً زلتي متجاوزاً عن خطيئتي، ثم تولى إلى الباب وتضع يدها على غلقه.

وتوقظُ تلك الحركة «جافير» فيعودُ إلى نفسه، ويخرج من جمود كان في أثنائه كالصنم نكسه منكس، ويصيح الجند بصوت تمازجه نغمة القادر يا ويلكم، أتفلت هذه الفاجرة من أيديكم وأنتم لا تشعرون، ومن ذا الذي أمركم بتسريحها بعد أن أمرتكم بسجنها؟ ياويلكم ردوها فلتقضين في السجن أيامها رغم المعارضين.

وكان «مادلين» مصغياً كل الإصغاء لما دار بينهما من الحديث.

فالتفت إلى «جافير» وقال له: اعلم أيها المفتش أني أنا الذي أمرتُ بتسريح هذه المرأة، فلا سبيل لك عليها منذ الساعة، فإني مررت بمكان الحادثة بعد انصرافكم، وتسقطت الخبر، فأخبرني بعض من شهد المبدأ والنهاية أن ذلك الفتى هو البادئ

بالإساءة، ولولا تهاون الشرطة لكان هو الحقيق بموقف هذه الفتاة.

فقال «جافير» وهو يتكلف الكظم لغيظه ويغالب اضطراب نفسه: إن تسريحها ليدخل في باب الاستحالة، فإنها أهانت فتى شريفًا وآذت شيخًا جليلًا، فلئن كانت قد أعذرت في الأولى فما عسى يكون عذرها في الثانية؟

قال «مادلين»: أما عن الأولى فقد صدقتَ الخبر، وأما عن الثانية فإن الأمر لمختص بي والعقاب، فمتعلق بإرادتي فإمَّا مَنّا[1] بعد وإما جزاء.

قال جافير: عفوًا يا سيدي إن الأمر لا يقتصر على شخصك ولكنه يتناول العدلَ كله، وبمثل هذا العمل وأشباهه يُنكسُ العدل رأسه، ويُخْترمُ سياج الشريعة.

قال «مادلين»: أعلم أنَّ العدل نوعان: عدلٌ يجري به الوجدان، وعدل تجري به الشريعة، ومن كان صادق الوجدان كان خليقًا بالتوفيق إلى سبيل الحق، ولقد وفقني الله إلى استبطان أمر هذه الفتاة وألهمني الوجدان براءتها فلا يستطرد بك جَوادُ العناد في سبيل إيذائها فإنك لن تنالها بسوء وأنا من الشاهدين.

قال: إني لأراني غير قادر على فهم ما أسمع وما أرى.

قال: فلتكن قادرًا على الخنوع والتسليم.

قال: إني لأخنع للواجب وهو يدفعني إلى وجوب الإصرار على سجن هذه الفتاة ستة أشهر.

قال: بل يدفعك إلى إخلاء سبيلها فلا تسجن يومًا واحدًا.

قال جافير: أما وقد وقفت بي عند حد اليأس من إقناعك فإني لا أرى بدًّا من الانحراف عن صراط الطاعة، ولا يكبرن عليك أمر مخالفتي إياك، فإني لأمادك حبل المقاومة في شأن هذه البغي، وما وقع لي قبل اليوم أن أقاوم مشيئة الرئيس، ولكنَّ إلمامي بواقعة الحال، وتثبتي من الأمر، ودخول الحادثة في دائرة اختصاص الشرطة التي أنا كبيرها، كل أولئك يدعونى إلى سجن هذه الفتاة. وما كاد ينتهي من قولته حتى تقطب وجه «مادلين» بعد ذلك الانبساط، وهبَّت من شمائله روائح السلطة، فقال له بصوت سبقته إلى مخارجه الخشونة وامتزجت بأجزائه الحدة: لقد أسمعتني أن الحادثة تدخل في دائرة اختصاص الشرطة التي أنت كبيرها، وأسمعك الساعة أن المادة التاسعة وأخواتها الحادية عشر والخامسة عشر والسادسة بعد الستين من قانون العقوبات تقضي بأن أكون القاضي المطلق،

---

(1) إما أن نمنَّ عليها بالتسريح وإما الجزاء.

فبناء على صريح تلك المواد أحكم ببراءة «فانتين» وآمر بتسريحها. وأزيدكَ بي علمًا وأذكرك بالمادة الحادية والثمانين من قانون 13 ديسمبر سنة 1799 فهون على نفسك، وابرح هذا المكان فحسبك ما سمعتَ.

فاستقبل «جافير» هذه الضربة الأخيرة بصدر رحيب كما يستقبلُ الباسل من الجنود أسنّة الرّماح، وانحنى حتى كاد يقابل الأرض بوجهه، وخرج وما ينظر ما بين يديه غمًا، ومرّ «بفانتين» فالتصقت بعضاضة الباب لتخلي له السبيل، ولبثت في مكانها كأنها بعض الأنصاب[1]، وذهلت وحق لها أن تذهل لمنظر تلك المعركة التي قامت بين رجلين: علقت بأذيال الأول نجاتها، وكمن تحت رداء الثاني هلاكها.



(1) التماثيل.

هذا يَصعدُ بها إلى مراقي الهناء، وذاك ينزل بها إلى درك الشقاء، وهي بينهما كالكرة إذا قذف بها الثاني إلى ظلمة اليأس ردها الأول إلى نور الأمل، كان أحدهما ملكًا يكلؤها، وثانيهما شيطانًا يحاول أن يتخبطها بمسّ منه، وقد أنزل الله النصر على الملك فكان من الظاهرين.

وعجيب أن يكون هذا الملكُ هو ذلك الشيخ الذي استرسلت «فانتين» في كراهته وظنته أصل شقائها، وسبب بلائها، على أن ما لبثتْ بعدَ الذي قد رأته من محاسنته لها، وعطفه عليها، وتحريه سرورها بتسريحها، ووقوفه في وجه «جافير» تلك الوقفة التي قطعت على إرادته السبيل أن أخذت تحاسب نفسَها وتقول: لي الويل لشدَّ ما كنتُ أنفر من ذلك الرجل وأحملُ له ضَبَّ الضغن، وأعزو إلى فعله سوء ما وصل إليه أمري من الفحش والتبذل، ولقد وترته[1] الساعة وترة يضيق عنها الحلم، فصفح وهو قادر على غير الصفح، ولم يفتر نشاطه عن الذود عني والمناضلة دوني، فلا أحسبني بعد ذلك إلا واهمة في أمره جاهلة مقدار خطره - أو ليس الذي قد غلبَ «جافير» على أمره بقادر على أن يحل بلفظة منه بيني وبين الهناء، فأموت في السجن حزينة وتموت بموتي تلك الطفلة اليتيمة - اللهمَّ إنّ هذا هو الخلق الكريم، وتلك هي النفس الزكية!

كذلك كانت تحاسب نفسها، وحقدها يتحلل في صدرها ووجدانها، يستل من قرارة نفسها ذلك النفور الذي سكن فيها حتى أصبح النفور ميلًا والبغض حبًّا، وحتى أدركتها الندامة على سالف فعلها وسوء ظنها بذلك الشيخ الجليل، فكاد يأتي على نفسها الخجل والحياء.

ولما بَرِحَ «جافير» موقفه الحرج التفت «مادلين» إلى «فانتين» وقال لها وهو يفيض من عبرته ويخفي من حسرته: لقد وعيتُ ما تقولينَ وما كنتُ أعلم شيئًا من أمرك، فما منعك أن تنفضي إلينا جملة حالك يوم أنذروك بالخروج من المصنع، ولو فعلت لأنصفناك، ولكن أبى الله إلا أن يجري القدر بما شاء، فأنت منذ اليوم مكفية المؤونة بي فإني كافلك وجامع بينك وبين طفلتك، ورادك إلى طاعة الله يحافظك على عِرْضك وموف ديونَك، وبالغٌ بك أقصى ما تودين من العيش، فلا تبخعي[2] نفسك أسفًا عَلى أثرٍ ماضيكَ، فإن صحَّ ما تقولين ولا أخالك إلا صادقة فيه، فإنك تخشى وجه العفاف ولم تعقي الفضيلة، وما كنت أمام ذلك المطلع على الأفئدة إلاّ طاهرة الذيل عفيفة الإزار.

وما انتهى «مادلين» من قولته حتى تمثل لها مستقبلَ حياتها فرأت جنة يميس

---

(1) رأيته وخبرته.

(2) بخع، قتل نفسه حزنًا.

فيها النعيم، وتجري من تحتها أنهار السعادة، ورأت نفسها في وسط تلك الجنة تتبوأ مقاعد العفاف، وتتكئ على أرائك الصيانة وبجانبها طفلتها الوحيدة.

وتزاحمت على نفسها جيوش الأماني فخرج بها السرور عن حد الإدراك وترامت على يد «مادلين» تقبلها، ثم غابت عن الوجود فأمر بها «مادلين»، فحملت إلى دار المرضى التي أقامها بجوار داره فأنيمت فيه وأوصى بالعناية بها وانصرف إلى عمله.

وكانت الحُمى تتمشى في عظم تلك المغبونة في نفسها، فمرّ بها قطع من الليل، وهي تهذي وتصيح، ثم أخذها النومُ فنامت حتى أظهر[1] النهار أو كاد، وشعرت عند يقظتها كأنها تسمع بجانب سريرها ترديد أنفاس، فكشفت جانب الستار فإذا هي ترى «مادلين» باسطا ذراعيه شاخصًا ببصره كالراهب المتبتل يضرع إلى شيء فوق رأسها، فأرسلت بصرها حيث يرسل بصره، فعلمت أنه يضرع إلى صليب[2] كان معلقًا بأعلى الحائط، فأكبرت رؤيته وظهر لها في هذا الموقف كأنه هيكل من النور عليه حلة من التُقَى، فكرهتْ أن تقطع عليه صلاته، وأمسكت برهة ثم قالت له بصوت يكاد يخفيه الحياء: ما الذي يصنع سيدي هناك؟ فأجابها وهو يومئ إلى الصليب، جئت أصلي لذلك الشهيد في السماء، ولو أنصف لقال لتلك الشهيدة في الأرض!! وكان «مادلين» منذ الليلة الغابرة لا ينفك عن تعهدها والسؤال عنها، فما يستقرُّ في حجرته إلا ريثما يعودُ لتنسم أخبارها، فباتَ بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها، ولا ينصرم عمرها، وانتابته الهواجس فما احتواه مضجع ولا التقى له جفن بجفن.

وننتقل بالقارئ من حجرة «مادلين» إلى حجرة «جافير»، فيرى رجلًا قد أقامه الحقد وأقعده الحرد يكاد ينشق غيظًا، ويقطر غضبًا على أثر تلك الضربة التي تلقاها بصدره الرحيب في مخفر الشرطة - ويراه، وهو ينفث نفثة المصدور، ويتململ تململ الموتور، وقد أمسك يراعًا[3] وأنشأ يسطر كلما أملت عليه الموجدة وأوحى إليه الضغن.

وفي صباح تلك الليلة بكر «جافير» إلى صندوق البريد فوضع فيه بيده ذلك الكتاب الذي سطره بحجرته وعنون غلافه إلى كبير الشرطة بباريس-وما قرأ هذا العنوان قارئ، وكان ممن يعرفون جافير وكتابته إلا تنبأ أن الكتاب لا يشمل على غير التماس الإقالة على أثر حادثة الأمس.

ولما استثار «مادلين» دفائن «فانتين» وعلم بحقيقة أمرها، وألم بأطرافِ تلك

---

(1) أظهر النهار إذا كان وقت الظهيرة.

(2) في عقيدتنا - نحن المسلمين- أن المسيح عَبْدٌ وأنه لم يُصْلب،وأن الدعاء لا يكون إلا بالله.

(3) يراعًا : قلمًا.

المؤامرة التي كانت سببًا في خروجها من المصنع، ونزولها إلى تلك المنزلة من الحياة سارع بإرسال كتاب إلى أصحاب النزل يطلب فيه إشخاص «كوزيت»، ووجهه إليهم بقدر من المال يبلغ مثلي ما كانوا يطالبونه وأنذرهم بمرض الوالدة ولزوم المسارعة بإحضار الولد.

وسقط هذا الكتاب على صاحب النزل سقوط الندى فقال لزوجه وهو يتهلل فرحًا: لقد در ضَرع تلك البقرة العجفاء «يعني فانتين»، أكبر ظني أنها ترتع اليوم في ربيع عشق جديد، فمن العجز تسريح هذه الفرصة، وما لنا لا نمسك الطفلة حتى نحتلب رسل ذلك الضرع، وهذا كتاب عاشقها الجديد ينطق عن ولع ويخبرعن كرم، وإني لأتنسم منه ريح الاضطرار، وأرى بين سطوره جداول يجري فيها الكسب وتسيل السعادة، فاحرصي منذ اليوم على تلك القنبرة، واحذري أن تطير، فإن في إمساكها إطلاقًا لأرزاقنا، ثم قام إلى دفتر فزوّر فيه كل ما زعم أنه أنفقه على «كوزيت» من أجل الطبيب وثمن الدواء، وما زال يرصد الخبيث من أرقام الحساب ما يملي عليه الطمع حتى نيف مجموع ما سطر على مبلغ ما أرسل «مادلين».

وفي اليوم التالي وجه «مادلين» إلى أصحاب النُّزل بمبلغ آخر، وطلب إليهم المسارعة بإرسال الولد فقال الرجل لزوجه: ألم أنبئك بما سيكون من أمرهم إذا نحن أحسنًا حفظ هذا الكنز الثمين؟ فانظري كيف لم يجد له عزمًا على الانتظار فثنى بإرسال النقود قبل أن نجيبه على كتابه فلنمسكن الطفلة حتى حين؟!

وكانت «فانتين» لا تزال على فراش المرض ينطفي سراجُ حياتها شيئًا فشيئًا، ويدنو منها الموت يومًا فيومًا، وقد أثارت تلك القبضة من البرد دفين دائها القديم، ففتك السعال بصدرها فتكًا كاد يهدم جدرانه، ولولا تعلقها برؤية طفلتها للقيت ربها منذ حين. وما خفي على الطبيب أمرها، فإنه أنذر «مادلين» بقرب أجلها وقال له: إني أراها هامةَ اليوم أو غد، فإن كان لها ولد فلا تحولوا بينهما، وعجلوا باستدعائه إن كان من الغائبين، فإنكم لا تفرغون من ذلك حتى تفرغ نفسها.

فجزع «مادلين» جزعًا شديدًا وأشفق أن تموت الوالدة قبل أن ترى الولد، فقام لساعته إلى ورقة وكتب فيهاإلى أصحاب النزل عن لسان «فانتين» يقول:

إذا أتاكم رسُولي حامل هذا فادفعُوا إليه «كوزيت» وهو يدفع لكم تلك الديون التي تزعمون مطالبتي بها.

وارتأى أن يكون هو الرسول إلى أصحاب النزل، فوضَع الكتاب في جيبهِ وصحَّتْ عزيمتُه على السفر، فبكر من غده إلى دار حكمه.

وجلس لإنجازِ شغله، وأراد أن لا يتركَ وراءه من خدمة الحكومة ما يشغله عن

خدمة «فانتين»، فتسلف الأعمال، وأنجز في يومه ما يطالبه به الغد. وإنه ليتصفح الأوراق وينظر في الشؤون إذ جرت جوار بالنحوس، وعدت عواد بالشرور، ووقع في حساب القدر ما لم يقع في حساب «مادلين»، فقيل له: إن «جافير» بالباب يطلب الإذن بالدخول، فوالله ما لفظ أمامه هذا الاسم حتى مرتْ به خلجة من الشك تمازجها نزوة من الألم، فتطيَّر وتضعضعت حاله، وكاد يعجز عن المداراة، ولكنه رد النفس على مكروهها فاستقرت، وأذن لجافير بالدخول، وكان إذْ ذاكَ جالسًا بقرب المدفأة ينظر في أوراق محاضر المخالفات ويعلق عليها ما شاء تعليقه.

ودخل «جافير»، فوقف وسلم سلام الخاشع المستكين، ولبث واقفًا وراء ظهر «مادلين» صامت اللسان ساكن الشخص ينتظر الإذن بالكلام، كل ذلك و«مادلين» لم يرفع بصره ولم يحرك جسمه كأنه لا يشعر بوجود ذلك الواقف.

ولو أن أحدَ أولئكَ الذين أوتوا علْمَ السحنة يأتي الساعة وينظر إلى «جافير» وهو راسخ في مكانه وكان يكون من المخالطين له والواقفين على أسرار طبائعه والعالمين بتقلبات هذا المخلوق الذي بينا نراه في لباس الجندي المحارب إذا هو في ثياب الزاهد الراهب لزكن عند رؤيته وتفرس في مخائل سحنته أن هذا الجاسوس الصادق والناقل الأمين قد نزل به نازل وحالت بينه وبين نفسه حوائل، وقال لأمر ما وقف عدو «مادلين» أمامه وقفة المستسلم المستكين، وعهدي به يتحين له الفرصة ويتمنى له الغصة! وفي الواقع فقد كانت سحنة «جافير» تنم عما في ضميره، فما مرَّ بخلجان قلبه شيء ولا سرى بقرارة نفسه وسواس إلا شفَّت عنه سحنته كما يشف الزجاج عن الماء.

قلنا: إنه دخل على «مادلين» فسلم منحنيًا، ووقف متحشمًا، وما زال واقفًا خلفه موقف الجندي في صفوف النظام، لا تنبعث له جارحة، ولا تطرف عين، وقد فارقت محاجره تلك النفرة، وانجابت عنه ظلمة الشك، فامتزج بأشعة بصره نور الإخلاص، وجال في محياه ماء الخشوع، ونطقت ملامح وجهه عن صبر لم تشُبْه مرارة، وسكون لم تعرُهُ كلفة، حتى التفت إليه «مادلين»، فرأى رجلًا تبدو عليه سيما الانكسار، وتقرأ في عينيه آية الحزم قد احتشم احتشام الجندي أمام القائد، والمجرم بين يدي القاضي فقال له: ما خطبك أيها المفتش؟

فبهت «جافير» برهة وهوصامت كأنه يدعو إليه حصاته، ثم اندفع قائلًا بصوت تسمع فيه رنة من الحزن تشوبها عزة من الشمم:

جئت أنهي إلى سيدي خبر جريمة قد وقعت منذ اليوم.

قال مادلين: وما عسى تكون تلك الجريمة؟

قال: إن أحد عمال الحكومة الأدنياء، قد رمى بعض سراة القضاة في شرفه، وطعن عليه في سمعته، فدفعني الواجب إلى رفع الأمر إليك: قال أتعلم من هما؟

قال: ما أعلمني بهما، أما المقترف فأنا، وأما المقترف عليه فأنت، وما وقع في سمع مادلين الخبر، حتى وقع في نفسه شيء من الضجر.

فتململ في مكانه واندفع «جافير» في حديثه فقال:

إني لأطلب إليك رفع أمري إلى الحكومة لأنال من عقابها ما يكفر عن خطيئتي، ولا تعجبن لعدم التماس الإقالة، فإنني إن فعلتُ ذلك خرجت خروجًا لا يلحقني معه العار، ولكنني خليق بأن أنزل منزلة المجرم الأثيم فأخرج ملومًا مدحورًا، ولقد كنتَ معي بالأمس غائب اللين حاضر الجفاء وأنت من الحق أعزل فلتكنه معي اليوم وأنت شاكي سلاح الحق ثاو بحصن الفضيلة.

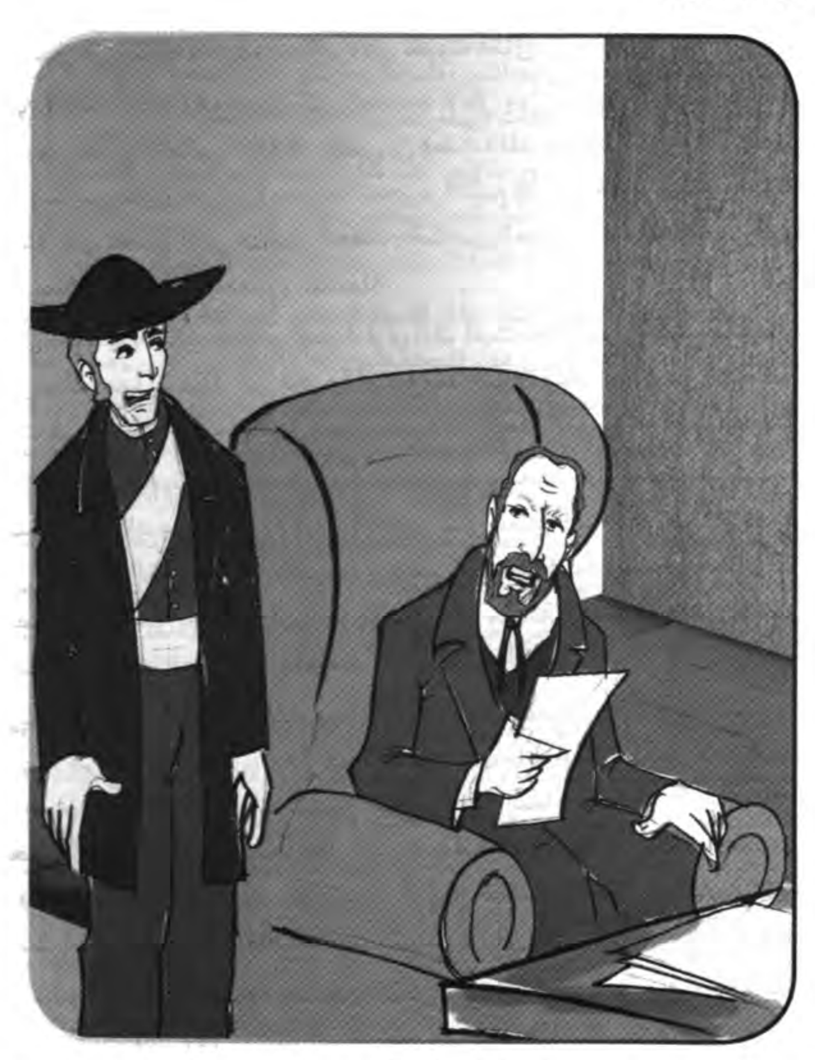
قال «مادلين»: لقد جعلتني بحيث أرى أنك أتيت عظيمًا وارتكبت جسيمًا ولا أذكر بيني وبينك أمرًا يدعوك إلى قول ما أسمع منذ اليوم، ولقد أطلت في اتهامك لنفسك وبالغت في وصف إجرامك فما عسى تكون تلك الفعلة التي تزعم أنك فعلتها؟

قال جافير: رميتك في شرفك وخدشت وجه سمعتك، فالتمست مِنْ كبير الشرطة بباريس إمساكك وسجنك وذكرتُ له في شقة رفعتها إليه أنك مجرِم قديم، وأنك ضالة الشرطة التي ننشدها منذ حين، ولقد كتبت ما كتبت وقسطي ممتلئ من المرة الصفراء، وغضبي يفور فوران المرجل على أثر حادثة تلك البغي التي غلبتني عليها، ووقفت دونها تلك الوقفة التي قطعت على إرادتي السبيل.

ويرجف قلب «مادلين» عند سماع قوله «مجرم قديم»، ولكنه يتماسك واستطردَ «جافير» في حديثه فقال: وما حملني على اتهامك أيها الشيخ إلا آيات شهدتها وعلامات تحققتها - رأيتك شديد العضل قوي الساعد سديد الرماية إذا رميت، ولمحت بإحدى فخذيك فدعًا وقد تبينت منك الأولى يوم العجلة وما نسيت ما كان من دخولك تحته وإنقاذك حياة ذلك الشيخ الفاني، وتحققت الثانية بتتبع آثارك وتسقط أخبارك، وشهدت الثالثة في مشيتك فألقي في روعي أنك «جان فالجان».

وتسقط شعبة من مهجة «مادلين» لذكر ذلك الاسم، ويندر من أنامله اليراع الذي كان يمسكه فيقول وهو يغالب اضطرابه: ومن هو ذلك الرجل؟ فيجيبه جافير: هو أحد أولئك الشطار الذين يعيثون في الأرض، ولقد رأيته منذ عشرين حولًا في سجن تولون، وهو أشبه الناس بك، ثم زعموا أنه بعد انصرام أيام سجنه عالج السرقة في بيت أحد العباد، وجنى في الطريق على غلام صغير، فاغتصب منه ما أدري أي شيء، ثم إنه اختفى بعد ذلك فجدَّت الشرطة في طلبه، وجَدَّ في اختفائه، حتى

إذا شجر بيني وبينك الخصام في أمر «فانتين» وخرجت من موقفي أمامك بذلك الخذلان حملني الغيظ منك على أخذك بهذا الرجل، ومثّل لي الحنق أنك «جان فالجان»، وكانت تلك الآيات التي ذكرتها لك من أكبر البواعث على اتهامك، فلا تكن معي من الراحمين.



قال «مادلين» وهو يبتسم ابتسامة- الله أعلم بما يكمن في أثنائها من المضض - وماذا كان جوابهم على كتابك؟

قال: كان من جوابهم على كتابي أن رمزني بالنزق والجنون وحسبوني محمقًا، ولقد أصابوا في رأيهم كما أصبت عن الخطأ في رأيي فيك.

قال: لقد أحسنوا في جوابهم وأحسنت في رجوعك عن وساوسك. قال: وأعجب من ذلك أن الشرطة قد أمسكت طريدها وعثرت على ضالتها، ووقع «جان فالجان» في قبضة الحكومة وهو اليوم بالسجن ينتظر حلول العقاب.

فأخذت «مادلين» الأرض[1]، وصاح من فرط ما به وما يريد أن يصيح وكيف كان ذلك؟

قال: قبضوا عليه، وقد ظهر حائطًا بإحدى الحدائق، واقتضب فرعًا من التفاح، فسيق إلى المخفر والفرع لا يزال في يده، ثم أودعوه سجن الاحتياط، وكادت تختفي حاله، وتدخل جريمته تلك في غير باب العقاب التأديبي لولا أن أراد الله سوء العاقبة.

فاتفق أن سجن الاحتياط هذا كان عتيق البناء يريدُ أن ينقض على من فيه فأمر قاضي التحقيقَ بتحويل أهلَه إلى السجن العام، وكان بذلك السجن رجل من أهل التشطر الذين شبوا وشابوا في أعماق السجون قد أكل سجن تولون شطرًا من عمره وأوشك هذا السجن أن يأكل شطره الثاني - شهدوا منه في آخر أيامه شيئًا من الاستقامة وحسن السيرة، فأقاموه سجانًا ولما جيء بأهل سجن الاحتياط ولمح بينهم سارق العود صاح به ألا ترى أني أعرفك أيها الرجل ألست «جان فالجان» رفيقي بالأمس في سجن تولون.

فقال الرجل: اتق الله يا أخي فما أنا بصاحبك الذي ذكرت وإنما أنا «شاماتيو».

ثم ظهرت عليه الحيرة وعراه الدهش وتظاهر بالبله والجمود «وقد يحسن أمثال هؤلاء أنواع المكر والخداع»، فبعث كلام السجان الشك في نفوس الشرطة ففحصوا عن أمره ورجعوا لوح أعماله فاهتدوا إلى معرفة الأرض التي نبت فيها والحرفة التي كان يزاولها، فإذا هو مشذب للشجر قد اختفى أثره وانقرضت أسرته وكان آخر عهد الناس به في قرية «فافيرول»، وأجهدت الشرطة نفسها في الوقوف على أثر تلك الأسرة فلم تفلح، فعمدوا إلى البحث عن من كان معه في السجن بذلك العهد فعثروا على اثنين ممن حكم عليهم بالخلود في السجن، فأشخصاهما إلى حيث يوجد، فلم يلبثا أن عرفاه كما عرفه ذلك السجان.

وصادفت الشقة التي رفعتها بشأنك فراعهم من هذا الأمر فكتبوا إليَّ ما كتبوا، ورموني بالنزق والتسرع، فكبر عليَّ الأمر وقلت في نفسي: لعلهم خُدعُوا في أمر هذا الرجل، فتالله لأذهبن لأراه رأي العين، فرغت روغة فإذا أنا هناك، فنظرت «جان فالجان» ورأيت نفس الرجل الذي شهدته في سجن تولون منذ عشرين حولًا، ولم يعد عندي مجال للشك ولا مسرب للوسواس، وعلمت أني جنيت عليك جناية يضيق عنها

(1) الأرض هي الرعدة.

العفو، فلو أنني كنت موفقًا في العمل وكنتَ أنت مكان ذلك الرجل لسجل عليك الخلود في السجن، وإنك لتعلم كيف يكون عقاب العائد إلى الجريمة سيما أن كان من أولئك المراقبين.

قال «مادلين» وهو يتعلل بالتشاغل بالنظر في بعض الأوراق ويقهر نفسه على التجلد والثبات: ما لنا ولهذا الحديث فإن بنا من الاشتغال بشؤوننا ما لا نفرغ معه إلى الاشتغال بأمر الغير - اذهب يا جافير إلى فلانة التي تبيع الخضر بزاوية المكان الفلاني ومرها أن ترفع ظلامتها إلينا، ثم أمره بأوامر أخر فقال «جافير»: وَدَدْتُ لو كانت لي في الوقت فسحة فأقوم بإمضاء أمرك فإني على عزم الرحيل في هذا المساء لأشهد غدًا مع المشاهدين، فإن غدًا ليوم سيكون له ما بعده يبرم فيه أمر «جان فالجان»، ويعلو الحق على الباطل وتفلت الناس من شر ذلك الشيطان الرجيم.

فاسود في عين «مادلين» ما بينه وبين «جافير» وقال وهو يتكلف السكينة: أفي غد يخاصمون هذا الرجل، قال: نعم - قال: وكم يمتد أجل ذلك الخصام؟ قال: يوم أو بعض يوم قال: حسبك، ثم أذن له بالخروج فلبث «جافير» في مكانه، وقال: إني لأطلب إليك الاقتصاص مني.

فرفع «مادلين» رأسه وقال: إني أرى فيك حصافة وأرى ذلك عقلًا، ومن كان مثلك كان حقيقًا بالتكريم، وكان سبيله أن يُعَانَ على أمره وأن يؤخذ بيده في زلته، فلقد عنّ لنا أن نقرك في وظيفتك ورأينا الأمر أيسر مما في نفسك فدع عنك هذا الإغراق في الطلب واستغفر لذنبك إن كنت من الخاطئين. فرفع إليه «جافير» طرفًا قد جال في إنسانه الإخلاص ونطق عما يكمن في نفسه من الوجدان.

وقال بصوت قد استمد السكون من جأشه واستعار الرقة من شعوره: إنني لمجرم حقيق أن يؤخذ بجريرته فلا أرى فيّ موضعًا للسماح.

قال مادلين: إن كنت قد أجرمت فما وقع إجرامك على غيري، وما كان لأحد أن يخاصمك، وأنا من الصافحين.

قال: عجبتُ لمثلك كيف يصفح عن مثلي وقد حاولت الإيقاع بك، وعملت على كيدك وسلب نعمتك، فخنت فيك الاستقامة، وعققت الفضيلة، وأحفظت العدل، ولو أني فعلت ذلك عن غير رغبة في الانتقام لوجدت لنفسي السبيل إلى جميل العذر وقلت: إني شرطي، وللشرطي أن يشتبه ولا تثريب عليه إذا أخطأه التوفيق، ولكني فعلته متعمدًا، ورميتك متقصدًا، وأني أشهد أنني كنت داني القسوة نائي الرحمة لا أعرف التجاوز عن الخطيئة ولا أعرض عن تلبيب كل من انحرف قيد أنملة عن صراط الشريعة فكيف أرضى اليوم لنفسي ما كنت أأباه بالأمس على غيرها ونفسي كما تعلم

أكثر النفوس حرمة عليّ وأولاهن مني بحسن المناصحة، أرأيتك كيف يجمل بي أن أنصب بدني في سبيل إصلاح الغير وأنام عن تقويم ما أراه بنفسي من الاعوجاج إني إذن لمن الظالمين؟! على أني لا أريد أن يخرج بك كرم طباعك عن سبيل السداد فأنتصر منك بك كما انتصرت بك تلك البغي من ذلك الشاب، ولا نلبث على هذا القياس أن تشتبه علينا الأمور فيختلط السيد بالمسود والعبد بالمعبود فكن ما شئت رءوفًا بالعباد واجمع إلى تلك الرأفة صحبة العدل فإن في ذلك ردعًا للنفوس وعزًا للشريعة وخذني بإقراري ولا تطمع مجرمًا في غير العقاب فلكم كنت أقول لنفسي وهي تجد في طلب الظالمين: جدي أيتها النفس فوالذي أنت بيده لئن انحرفت شعرة عن سواء السبيل لأكونن بك أول الموقعين.

قال مادلين: وقد فعلت به تلك الكلمات فعلها سننظر في أمرك ثم مدّ إليه يده للسلام فتقهقر «جافير» وهو يقول عزيز علي أن تصافح يدك الكريمة تلك اليد الأثيمة، ثم ركع أمامه خاشعًا واستقبل الباب، ولما بلغه انفتل إليه ثانيًا وقال: سأقوم بشؤون وظيفتي حتى يأتي الخلف، ثم ولى وجهه وغادر «مادلين» في مكانه يلقي بسمعه إلى وقع تلك الخطوات المطمئنة.

***

لم تكن تلك الحوادث التي نسطرها للقارئ الكريم بواضحة الأثر في القرية التي وقعت فيها، ولكن بعض ما علق بالأذهان من حدوثها قد ترك لها شبه الذكر بالنفوس.

فلو أننا أغفلنا ذكرها لخرج الكتاب وفيه من الفراغ ما نلام معه على الإتيان بما يسده، فها نحن أولاء نذكر ما وصل إلى علمنا من خبر ذلك الأثر وإن كان فيه بعض ما لا يحتمل الوقوع، ولكننا نثبته هنا إرادة الوصول إلى الحقيقة.

ذهب «مادلين» في عصر اليوم الذي وقع له في صباحه مع «جافير» ما وقع إلى «فانتين» يعودها وكان من عادته أن يغشاها في حجرتها فوقف في هذه المرة وسأل عنها قبل الدخول ممن كانت تمرضها. وكان ببابها اثنتان من الممرضات الراهبات تدعى إحداهما «بربيتي» والأخرى «سمبليس»، وكانت الأولى من سكان الأطراف بالريف ثم أصبحت راهبة لا لرغبة في الزهد أو نزوع إلى خدمة الدين ولكن لمجرد الاحتراف بما تصيب منه الرزق فدخلت في بيت الله دخول الخادم في بيت المخدوم واحترفت بذلك كما تحترف سواها من النساء بحرفة الطبخ ولم يدعها الوجود في الدير إلى فوق ما كانت عليه من الخشونة والتقشف بطبعها شأن سكان الأطراف الذين لا يعرفون الترف ولا يميلون إلى النعيم، ومن قابل بين حال الراهب وعيش الفقير وجد بين تقشف الأول وخشونة الثاني نسبًا قريبًا وصلة غير مقطوعة، فلو

شاء الناسك أن يصبح راعيًا وأراد الراعي أن يمسي ناسكًا لوجد كلاهما إلى قصده سبيلًا ممهدًا وما هو إلا أن يدخل أحدهما في ثوب صاحبه.

وكانت تلك الراهبة شديدة القبض على دينها ذات لون يضرب إلى الحمرة، وإقدام في الأمور، وصلاح في العمل، دائمة التسبيح، كثيرة الترتيل، وحشية اللهجة وكان بأخلاقها بعض العهدة، فهي جافية الطبع تغلظ القول للمريض وتمزج له الأدوية بتلاوة الأوراد والأدعية وتدعو للمحتضر دعاء يمتزج به الغضب كأنها تستعجله قبل حينه بما يرجمه فوها من ذلك الدعاء.

أما الثانية: فكانت ذات لون يغلب عليه البياض، فهي بجانب أختها كالشمعة بجانب الذبالة، ولقد وفق «فانسان دي بول» إلى وصف الراهبات في تلك الكلمة التي جمعت بين عزة الحرية وذلة العبودية فقال: «التواضع قناعهن، وخوف الله شعارهن، والطاعة حرزهن، قد اتخذن البيع للتهجد، ودور المرضى للتعبد، وللمخارف الطرقات، والمريضات الحجرات» ذكرنا تلك الكلمة الجامعة في سياق الحديث عند ذكر «سمبليس» ونزيد عليها فنقول: يقف الناظر إلى تلك العذراء موقف الذاهل إذا سأله عن عمرها سائل فقد كتم وجهها سر ماضيها، ولم يشأ أن ينم على آيتها فلم تنطق ملامحه عن أثر لزوال الشباب ولا عن أثر لقدوم الهرم، وهي قليلة الاكتراث كثيرة الأناة، قد جمعت في طباعها بين اللين والجفاء فإنها لتلين حتى يكاد يعقدها العاقد وتشتد حتى يخافها المعاند، كثيرة الصمت قليلة تزويق الكلام، وتكره الفضول في الحديث فلا تنطق إلا بمقدار، وتحب الصدق حبًا بغض إليها الكذب في الجد والمزاح».

تلك هي صفات «سمبليس» وما كتبنا غير ما أملاه علينا لسان فضلها، وقد اشتهرت بذلك في عالم الدين حتى ضرب أحد الرؤساء بصدقها المثل في كتاب بعث به إلى رفيق له فقال: إنه ليجري على لسان أكثرنا تقى وأبعدنا عن المظنة شيء من الكذب فيحمل منه ذلك على سبق اللسان بما لم يجر به الوجدان، ولا يدخل من باب الإمكان أن تسقط من «سمبليس» سقطة من هذا النوع فتكذب في شيء كائنًا ما كان، فإنها تعتقد أن الذي يمين في الصغيرة لا يلبث أن يستطرد به جواد المين في الكبيرة، وتزعم أن الكذب من أسماء الشيطان فهو عندها أحد اثنين إما إبليس وإما الكذب.

فلعل ذلك البياض الذي نراه بوجهها هو أثر ما أودعه الله من النور في سريرتها، سريرة لو تمثلت لك أيها القارئ لرأيت لوحًا من البلور لا يعلق به الذر ولا يقف عليه الغبار. تلك هي الراهبة التي كانت تمرض «فانتين» وتبالغ في محاسنتها وهي التي أوصاها «مادلين» بالعناية بها وسألها عنها قبل الدخول في هذه المرة.

ولما غادرها ودخل على «فانتين» وجدها ترتقب رؤيته ارتقاب المقرورشروق الشمس، فقالت حين لمحته وهي تغالب كيد الحمى ويغالبها أين «كوزيت»؟

فقال وهو يبتسم: إنها قادمة على الأثر، ثم جلس عندها يلاطفها حتى استوفى عمر الساعة، وكانت لا تلوح بوجهه وهو يحادثها سيما الارتياح لما وقع في نفسه من كلام الطبيب الذي كان ينذره بقرب حينها.

ولما قضى لبانته من النظر إليها انكفأ إلى حجرته فتناول مرسمة وخط بها في ورقة بعض الأرقام ثم خرج وأخذ سمته إلى دار رجل يكري الخيل والعجلات فغشيه في منزله وطلب إليه أن يكريه جوادًا أصيلًا.

– فقال الرجل: وما تصنع به؟

قال أطوي عليه عشرين فرسخًا.

– قال: إنها لشقة طويلة فلعلك تبتغيه مشدودًا في عجلة.

– قال: نعم.

– قال: وكم يكون ثواؤك بعد الوصول؟

– قال: ربما تجشمت السفر في اليوم التالي.

– قال: لتطوي في الجيئة ما طويت في الذهوب.

– قال: نعم.

– قال: إن عندي جوادًا كهمك أيها السيد وهو الأبلق الصغير، وقد كان صعب الشكيمة لا يستقر فوق منكبيه راكب ولا يدانيه إنسان، فما زلت به حتى رضت جماحه، وأسلست قياده، فهو اليوم يسابق الأفكار إلى المقاصد ولكنه يرغب عن السرج وينزع إلى الجر فمن شاء أن ينتفع به فليرغب عن ظهره إلى جره.

– قال مادلين: أتراه يحسن العدو ويطيل الشوط.

– قال: إنه لينهب المسافة التي تريد قطعها نهبًا، ويطويها خببًا، ولا يجد لذلك تعبًا، على شريطة أن تنفس عنه في أثناء ذلك بعض التنفيس، وأن يكون معك من يشارفه عند أخذ علوفته ليرد عنه غارة أولئك الخدام بالنزلات، وأن لا تحمل معك في العجلة شيئًا ثقيلًا.

دع رفق القائد الذي يقوده، وعنايتكَ بالإشراف عليه، وأما أجره في اليوم فلا ينقص عن ثلاثين فرنكًا وذلك سواء في السفر والإقامة.

قال «مادلين» قبلنا شرائطك فابعث بهما غدًا عند تنفس الصباح، ثم ألقى إليه ثلاث قطع من الذهب.

وقال: هاك أجرهما ليومين، وخرج من عنده، ولكنه ما لبث أن عقب إليه وسأله قائلاً:

كم تقدر ثمن العجلة والجواد إذا ساومك فيهما مساوم؟

قال: أتنوي ابتياعهما؟

قال: بل أريد أن أقف على مبلغ الثمن خشية الطوارق في الطريق.

قال: أربعًا وعشرين قطعة من الذهب.

قال: هاكها، ثم خرج ولم يعقب، ولبث صاحب الجواد في مكانه يحز الودج أسفًا على ما فاته من طلب المضاعفة في الثمن، وجعل يقول: ليتني قد طلبت إليه أكثر من ذلك القدر فإني لأجد منه ربح الاضطرار ولكنها فرصة عرضت فسرحتها عني بوادر العجلة.



وذهب «مادلين» إلى مخدعه فلبث فيه بعض ساعة ثم أخذ مضجعه ونام، وشباب الظلماء في عنفوان، وكان له صراف يقطن في حجرة بأسفل مخدعه فلما انتصف الليل أو كاد شعر هذا الصراف بحركة فوق رأسه قد قطعت عليه نومه فاستيقظ وجعل يتسمع فسرى إليه صوت وقع لأقدام تقبل وتدبر في الحجرة التي فوقه، فتبينها فإذا هي أقدام سيده وما وقع له قبل الليلة أن يسمع في حجرة مادلين حركة قبل الصباح فعجب لوقوع

ذلك في مثل هذه الساعة من الليل وقال لعلها لأرق نزل به وزاد في عجبه أن سمع صريرًا بأدراج الدولاب فاستوى في سريره قاعدًا وطرد عن عينيه ما علق بهما من كسل النعاس.

ونظر من النافذة فلمح على الجدار الذي يقابله انعكاس أشعة فترسمها بالنظر فإذا هي مرسلة من طاق الحجرة التي لسيده، فأدمن إليها النظر، فألفاها حمراء تضطرب على الجدار اضطرابًا كأنما كان مصدر انبعاثها نارًا تشب لا سراجًا يضيء.

وكانت لا تلوح بها صورة، ولا يتراءى فيها خيال، فعلم أن زجاج النافذة التي باتت تنبعث منها كان مرفوعًا، ولما تحقق ذلك أهوى برأسه إلى الوسادة وجعل يعالج النوم من جديد.

فاستغرق هزيعًا من الليل ثم تنبه فإذا هو يسمع وقع تلك الأقدام المطمئنة ويرى تلك الأشعة ولكنها قد عرتها الصفرة وعراها السكون فأيقن في هذه المرة أنها لم تكن منعكسة عن غير ضوء السراج.

وإليك أيها القارئ ما وقعَ منذ الليلة في حجرة «مادلين» وما لنا لا نقول في حجرة (جان فالجان)، وما غاب عنك أننا لا نعني بهذين العلمين إلا مسمى واحدًا.



كلمة في سريرة الإنسان

نظرنا قبل اليوم نظرة في مرآة تلك السريرة، ثم صورنا للبصر ما لمحته عين البصيرة، وها نحن أولاء ننظر فيها النظرة الثانية وإن كان من وراء ذلك هزة للنفس ورجفة للفؤاد.

يقف أحدكم على شاطئ البحر المحيط فتكبره عينه وتعظمه نفسه، فإذا انتقل بنظره إلى السماء أصغرت عينه البحر، وأكبرت نفسه السماء، وإنه ليتضاءل في عينه المشهدان، ويصغر في نفسه الكونان إذا ما نظر بعين الوجدان في مرآة سريرة الإنسان - فإنك لا تجد مشهدًا يحرك النفوس وتقف دونه مدارك الأفهام كذلك المشهد-فهو إذا أضاء ذهب سناؤه بالبصر، وإذا أدجى أعيت ظلمته الفكر، وقلَّ أن تستقر فيه عين البصيرة على شيء تلمّ بكنهه أو تخترق حجاب سره لامتداد أمده وفرط غموضه. فلو أنك حاولتَ وصفًا لأدنى سرائرِ البشر، وعمدت في ذلك إلى قرض الشعر والاستعانة بالخيال، لأعوزك الوصف وأعجزك الوصول، اللهم إلا إذا نزعت إلى جمع ما قيل من القصائد والأناشيد منذ خط القلم إلى أوان العدم وأذبت الجميع في بوتقة الفكر، ثم استللت منها سبيكة شعرية يتناول حسنها ما وراء النفوس ويجلو رونقها صدأ الخواطر.

فالسريرة هي ميدان الشهوات، ومهبط المخزيات، بل قارورة الغرور وتنور الأحلام، وموطن المطامع، ومسرَح الأباطيل، ألا ترى أنك لو ظفرت بأحدنا وقد لاحت عليه سيما التفكير والانشغال، ثم نظرت في صورته وكنت مما يكشف لهم الغطاء عما يجول في قرارة النفس وخلجان الفؤاد، أما كنت ترى تحت ذلك السكون العميق حربًا قائمة وخيالات مشتبكة، نعم إنه ليتمثل لعينك في ضمير هذا الفؤاد، ويتراءى لك بين دفتي ذلك الحيزوم ما سطره «هومير»، وذكره «ميلتون» وتوهمه «دانتي»، ولقد طال بنا الوقوف أيها القارئ على باب ذلك المشهد العظيم، ونحن نتهيب طرْقَه ونكبرُ الدخول فيه، ولكنا سنشدّ منا، ونقدم على فتحه، وموعدنا الجزء الثاني إن شاء الله تعالى.



الجزء الثاني



عاصِفة تحت جمجمة
أو «فورةٌ في النفس»



قدّمنا بين يدي القارئ ما كان من أمر «جان فلجان» منذ ابتزّ ذلك الغلامَ قطعتَهُ الفضيّة، وقد رأى كيف حال[1] هذا الرجل إلى رجل آخر، وكيف فعلت في نفسه كلماتُ العابد أفاعيلها فاختطفته إلى المعبود، وأخرجته من مسْلاخ[2] الشّرَّة[3] والضغينة وأسكنته في إهاب من الفضيلة.

بدأ في المبالغة في الاختفاء والتنكر، وثنّى ببيع تلك الآنية الفضيّة، ولم يُبق منها على غير الشّمعدانين[4]، ولعله أبقى عليهما ذكْرَةً لذلك الصّنيع.

وجعل يَنسَلُّ في سرّ[5] من الناس من قرية إلى قرية حتى مسح أرضَ فرنسا ودوّخ بها كلّ مكان، وألقى عصاهُ بقرية «منتراي سيرمير»، وأدرّ الله له أخلاف[6] الرزق فأثرى، ثم مكّنَ لنفسه حتى جعلها بمنْجاة من المطاردة.

ولبث ما شاء الله يرى أن السعادة في يقظة الضمير، فكان كلما بَضَع[7] الندمُ على ماضيه من فؤاده بَضْعَةً شعَرَ في نفسه بوفْر تلك السعادة، ولقد تكفّلَتْ حسناتُ الشطر الثاني من حياته بغسل حَوْبَات[8] الشطرَ الأول.

وكان رأسه مُضطَرَبًا لفكرتين لا ثالثةَ لهما: أن يُخفىَ اسمه، وأن يَقِفَ حياته على الفرار من المخلوق والرجوع إلى الخالق، وقد امتزجت هاتان الفكرتان بعقله امتزاجًا حتى حالتا إلى شيء واحد، أصبح له السلطانُ المطْلَقُ على إرادته فاستقرّتا في قَرَارَة نفسه وتناولتا ما وراء وِجْدَانه، فهما اللتان دَعَتَاهُ إلى الانزواء فلبى، وإلى البرّ فمضَى، وإلى التقشف فأطاعَ.

وَتمُرُّ به لمحاتٌ يقع فيها بينهما العراك؛ فتدفعه الأولى إلى أمر وتُثْنيه الثانيةُ عنه، ولكنّهُ ما كان يُحْجِمُ لمِحةً عن إيثار ثانيتهما على أولاهُما، فهو يؤثر الفضيلة وإن جرّت إلى هتك ستر، على طمأنينة نفسه وثلوج صدره في اختفاء أمرهُ.

ألم تَرَ إليه كيف غامر بنفسه يوم العجلة فأنقذ «فوشلفان» و«جافير» يُلقِي عليه

---

(1) تحول. (2) جلد. (3) الشر. (4) فارسي معرب.
(5) أي خفاء.
(6) الثدي للمرأة والأطباء للكلبة والأخلاف للناقة. (7) قطع. (8) الحوبة، الذنب.

نظرات تكاد تخرق شغاف قلبه؟ وكيف لَبِسَ الحداد على العابد وإن طارت حوله في ذلك الشبهات؟

فقد قام بنفسه أنّ أول فرض عليه إنما يجب القيامُ به لغير شخصه.

على أنه لم يَشْهَدْ مشهدًا لهذا العِرَاك كان أشَدَّ هَوْلًا وأعظم مرَاسًا من ذلك الذي مَرّ به حين دخل عليه «جافير» ولَفَظَ أمامه ذلك الاسمَ الذي دَرَجَ في أثناء النّسيان فاضطربت له نفسُهُ من داخل الجلد، واسْتَخْذَى عند سماعه وعجب لذلك الجَدّ الذي لا يفارقه العثار، وهجم عليه أمْرٌ لا قِبَلَ له به، فمرت به تلك الهزّات التي تُؤْذِنُ بِفَوْرَة النفس، فانحنى انحناء الدّوْحة تُدانيها العاصفة أو الجُنديّ يَتَهَيّأ للاقتحام.

وهَمَّ وهو يُنصت لـ«جافير» أن يطرح رداء التنكر ويطير إلى ذلك السجن الذي أودعوا فيه «جان ماتيو» فيقتلعَهُ منه ويَحُلّ محلّهُ، ولكنه لم يلبث أن عاودته الأثَرَةَ فأكبر هذه النزعة النبيلة وتراجع أمام تلك البُطولة.

ولو كان ممّن تزكو[1] عنده العوارفُ لزَكَتْ عنده عارفة[2] العابد، ولغَيرتْ منه تلك السنُون التي طواها بين الزهد والتّوبة، ولعَبَر يمشي قُدُمًا بقدم مطمئنّة وصدر مثلوج إلى تلك الهاوية المفتوحة أمامهُ، فهناك عند قرارها قد ألْقيت مفاتيح الجنة التي كان يَنْشُدُهَا.

نعم كان الأخْلَقُ به أن يكون ذلك الرجلَ، ولكن لم يكُنْهُ، وإليك ما كان يجول في نواحي نفسه.

غمَرَهَ عند الوهلة الأُولى شعورُ المحافظة على النفس، فخفّض من جزعه، وتصامّ[3] عن نداء ضميره، وأهاب[4] بحلمه حتى إذا ثاب إليه أضمر في نفسه وهو ينظر إلى «جافير» أن يتلوّم[5] بعض التلوّم في الحكم على مصيره.

ولبثَ سَراةَ[6] يومه وعلى ظاهره من السكون طلاء، وفي باطنه من الجزَع صلاء[7]، فلم يفكّر في ذات غيبه[8]، ولا في الأخذ بالحيطة مما عسى أن ينزل به من العوادي.

ولا بدْع فقد تخوّنه الحزم، وقَرَعه «جافير» بقارعة أطارتْ صوابَهُ وزلزلتْ أركانَ نفسه، وكان مبلغُ علمه بحالته أنه أصبح تحت كلْكلِ كارثة لا يدري متى تُقلته.

انكفأ إلى حجْرَة «فانتين» يعُودُها وجلس على مقربة من فراش آلامها وأطال

(1) تزكو، تزيد، والمعنى تحفظ الجمائل.
(2) زكت العارفة أي أثمر الجميل.
(3) أصابه الصمم فلم يعد يسمع نداء الضمير.
(4) صاح.
(5) يتأنى.
(6) طول.
(7) الطلاء، الهدوء، والصلاء، الشدة والنار.
(8) ذات الغيب أي المستقبل.

الجلوس، فقد كان عَلَى نيّة سفر لا يَعْرف أَمَده، عَلَى أَنّها نيّةٌ مُبْهَمَةٌ لم يضرب فيها رأيًا ولم يستشر عزمًا، فقد مّرت به الفِكَر أبابيل[1]، وهو لفرط خبَاله لا يكاد يميز بين صُورِهَا.

وما أدرى أكانت به نفسُهُ، أم كان به ذلك السجينُ أم تلك المحتضرةُ، أم وليدتُها المنبوذةُ بذلك النُّزُل، فكان يقول في نفسه: ما ضرني ألّا أريم[2] مكاني فأرقب مواقعَ القضاء في هذا الحادث، وأنا وَادعٌ لا تسمع إليَّ الخطوبُ ولا تلتفت الظنون وهذه عجلة «سكوفير» تحت يدي فمتى أحسستُ الشرّ ركبْت عليهت النجاة.

حضرَ بعد ذلك وقتُ طعامه، فأصابَ منه إصابةً مقَدّرةً، ثم دخل مَخْدَعَهُ وهو مزهُوبٌ به، فخلا إلى نفسه وأنعم التفكيرَ وجعل يقلّب وجوه الرأي فتَعاظمَهُ الأمرُ وأخذَتْ عليه أفواهُ السُبل وسُدَّت مسارحُ النجاة.

ساورَتْهُ المخاوفُ وفَاعَتْهُ[3] الأوهام، فقام إلى الباب فاستوثق منه إلى المزْلاج[4] فأثبته حتى ظنَّ أنه في مأمن من الطارق والطارئ، ثم أقام خلفه المتاريس طلبًا للمزيد في الأمن، وأطفأ السراج لأنه لم يكن يسكن إلى النور، ثم قال في نفسه: ألا أزال مَرْئيًا «عن أي عين يا تُرى كان يريد أن يتوارى»؟

يا وَيله؛ إن ذلك الذي كان يَجِدُ في الفرار منه، ويقيم في طريقه الحوائل، ويَستجدُ بالظلام مازال معه في حجرة واحدة ذلك هو ضميرهُ، وتلك هي عينه.

ولعله كان يعالج خُدْعة نفسه حين ظنّ أنه كان في عُزلة وأمن، وأن الباب والمزلاج يحولان بينه وبين ما يخشى.

فجمع أشتات نفسه حتى خال أنه صَار جَميعَ الفؤاد، ثم عَصَب رأسَهُ بيديه، واعتمد بمرفقيه عَلَى منْضدة كَانت أمامه، وأنشأ يحدث نفسه:

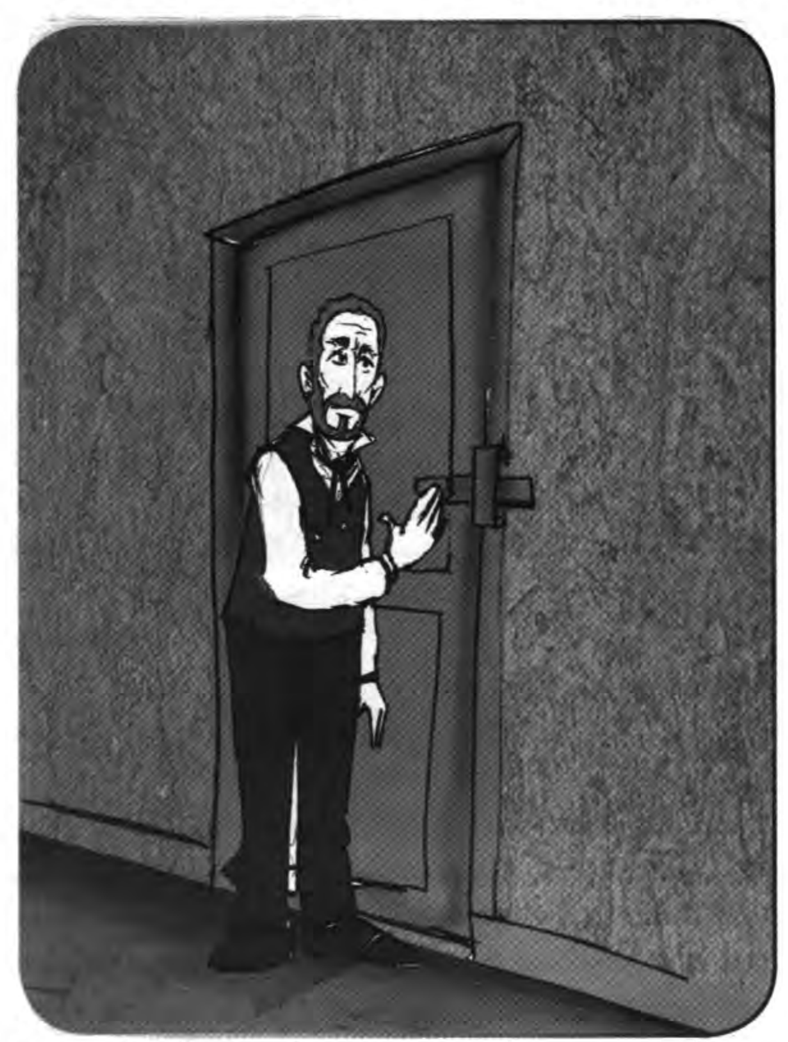
أين أنا؟ وما عسى أن يكون ما أنَا فيه؟ تُرى هل كَذَبتني العينُ حين رأت «جافير»؟، وهل خانني السمعُ حين أفرغ فيه اسمِ ذلك الرجل «جان متيو»؟ أتُراه يُشْبهني إلي حَدّ أنْ أخذوه بي، فويلُ لي، لقد كنتُ بالأمس آمِنًا في سِربِي وأرَاني اليوم في قلق لا أدري متى ينطوي أجلهُ!!

فانظر عَلَى أيّ سيّالٍ من الألم قد بات يتململ هذا البائسُ الذي ضاق مُحيطُ عقله عن جَوْلات تلك الأفكار التي تدافعت في رأسه كَالأمواج حتى إنه ليُدافعها عنه باليدين، وكَان يحاول أن ينتزع من كلّ أولئك يقينًا يَجدُ له بَرْدًا عَلَى قلبه ولكنه لم

---

(1) جماعات.
(2) أبرح.
(3) فعلت فعل الأفعى.
(4) المزلاج، الأرجوحة.

ينتزع غَيْرَ الْحيرةِ والمضض. وَكَاد يلتهبُ رأْسُهُ فقام إلى النافذة ففتحها ونظر إلى السماء فإذا بها ضَريرةُ النجم[1]، ساقطة النواحي[2]، فعاد وارتمى عَلَى مقعده.



ومرَّ به قطْعٌ من الليل وهو عَلَى تلك الحال، ثم أَطافَتْ برأْسِهِ صُور مبهمةٌ أخذت تتجمع وتتبَيَّن حتى لَفَتَتْ إليها تأَمُّلَهُ فلمحها بعين الحقيقة لمحة أَلَمَّتْ ببعض أطرافها فعاد إلى نفسه بعْضَ الشيء، وبدأ يشهد على نفسه أن الحالة التي نزل إليها إنما هي من صُنْع يده، حَالٌ حقيقة باللوم لا يلابسها المرئ[3]، ولا يستقر عليها العَيُوفُ.

(1) يحجبها السحاب. (2) شديدة الظلمة.

(3) ذو المروءة.



ومن نظر في أمر هذا البائس، وَقَرَ في نفسه أنه عَلَى زهده وتقشفه لم يأت حتى الساعة شيئًا مذكورًا اللَّهم إلا ذلك الثُّقْبَ الذي ثقبه ووأدَ فيه اسمه ووَدَّ لو نسجت عليه الأيَام طبقات من النسيان لا يَنْفُذُ إليها شعاعٌ من الذكرى.

فكان إذا خطر له أن سيأتي يوم يذكر فيه هذا الاسم ذاكرٌ نسف ذلك الخاطر نفسه في نهاره ونَزَفَ أنفاسه في ليله وأغرى به سُهادًا تُقضُّ[1] عليه معه المضاجع وتَطَارِحُه الوساوس، ولطالما كان يقول لنفسه: إن هذا اليَومَ إذَا أوفى عليه لَيَذْهبنَّ بما يحيط به من راحة ونعيم، حتى إنه لَيُشْفِقُ أن يذهب بتلكَ النفس الجديدة التي رَبَّهَا[2] بالتقوى وتعهدها بالإحسان.

(1) تمتلئ عليه قضًا وقضيضًا أي حصى.

(2) ربها ورباها بمعنى واحد.

نعمْ لقد غمرَ هذا الفكرُ شعوره، وشغل أرجاء نفسه، فلو أن قائلًا قال له: إن هذا اليومَ لا بُدَّ آت، وإن تلك الكلمَةَ «جان فلجان» لابد أن تَثِبَ من مكمنها وتتراآى أمامك في هيكل نوْرانيّ يهتك ستار الظلمة الذي أسْدَلْتَهُ عَلَى نفسك، فإذا جاءك هذا اليوم فلا تَبْتَئِسْ به، فلن يَضيرَك أن تَسمع ذلك الاسم فإنه سيرفعُ منك، ولا يهولنَّك أن ترى ذلك النور فإنه سيزيد في الظلمة التي تَنْشُدُها، ولا ذلك الستار الممزق فإنه سيكون أكْتَم لسِرّك، ولا ذلك الزلزال المروّع فإنه سيصبح أدعَم لبنائك، فاكْشف عن حياتك تَبلُغْ مناك من كتمان أمرك، وقِفْ أمام طيف «جان فلجان» وقْفَةً تخرج منها أنبلَ نفسًا وأنبهَ ذكرًا وأجمل أمرًا.

لو أن قائلًا قال له ذلك لنأى عنه بجانبه، ولظن أنه يعالج المستحيل، عَلَى أن الذي كانَ يظنه داخلًا في باب الاستحالة قد دخل في باب الإمكان وجرت به الأقدار فوقع. أخذ حُلمُهُ يتكشَّف رويدًا رويدًا، وأخذ هو يزداد علمًا بحقيقة أمره.

خُيِّلَ إليه أنه قد أفاق من خَفْقَة – وما أدري من أي خفقة أفاق –، وأنه قد رأى نفسه ينزلق في جوف الليل عَلى منحدر عنه فأثبته الخوفُ وقيَّدَه الوهم، وأنه قد رأى تحت راية ذلك الليل خَلْقًا[1] أراد أن يتبيَّنه فتنكرت له معارفُهُ حتى أنكره، فألْقَى في رُوعه أنَّ الأقدار قد شُبّهَ لها ذلك الْخَلْق فظنته «جان فالجان»، فأخذته به وساقته ظلمًا إلى تلك الهاوية التي لم يكن لها بُدّ من أحد رجلين: إما هو، وإما ذلك المأخوذ به، فعجز عن المقاومة، وترك الأقدار تجري على أذلالها[2].

ولما تجلّى له نورُ الحقيقة أنشأ يصارح نفسه ويقول: إن مكاني في السجن لا يزال بحمد الله خاليًا يُطالعني منذ ذهبت بوَرقَة ذلك الغلام، وإني لأشعر كَأَنَّ قوةً باطنَةً تسوقني إليه فهو مُدْركي وإن أمْعَنْتُ في الهَرب، ولَشَدَّ ما يُرْمِضُني[3] أن يقيموا فيه بديلًا مني، وإن هو إلا عاثر قد رَمى به نحس طالعه في أيديهم فأخذوه بي فأصبحتُ بفضل ذلك آمنًا في سربي، فأنا مقيم هناك في لباس «جان ماتيو»، وأنا مقيم هنا في لباس «مادلين»، ولكن أيَسَعني في مُرُوءتي أن أترك هذا البائس يُدْفَنُ في السجن كما تدفن التوابيتُ دفنًا لا قيام معه، ولكن تحت جنادل الخزي والعار، أم كيف يَجْمُل بي أن أتَدلّى هنا في النّعم وهو يتدلّى هناك في النّقَم؟!

وعَلَى أثر ذلك تحركَتْ نفسُهُ حركة يقعد عنها الوصْفُ، حركةً لا تمر بنفس الحي في مدى حياته غير مرات معدودات، فقد اختلجت[4] سريرتُهُ اختلاجًا بَعَثَ ما كَانَ كامنًا في فؤاده من الهواجس.

---

(1) مخلوقًا. (2) أعني تجري في أعنتها. (3) يقضي على الرمضاء.
(4) أخاف.

وَقَعَ ذلك على أثر مزيج قد جُمِعَ في نفسه من الفَرَح واليأس والازدراء، تلك هي إحدى ضحكات السرائر.

قام بعد ذلك إلى المصباح فأضاءه من جديد، وطرح عن مَنْكِبَيْه رداء الفزع، فلما سكتَ عن الروْع قال لنفسه: مالي أراني على غير استواء وأنا بمنجاة من المكروه وكنت أفْرَقُ[1] من طريق واحد طالما قَدَّرَت أن تَدْهمَني منه الدواهي، ولكنه قدْ سُدَّ بحمد الله فأصبحَ «جافير» لا يجدُ إليَّ سبيلًا وأصبحْتُ في مأمَنٍ من شر ذلك الرجل الذي رُكِّبَتْ فيه غريزةُ كلْبِ الصيدِ، فكم وَقَفَتهُ عَلَى أثري حتى كادَ يكشف عن أمري - على أنها قد خانته هذه المرة فجرَّته على أثر غيري، فلينقلب على عقبيه، وليشتغل به عني، وليدعني أسْتَرْوِح روائح الأمن، فقد طال عهدي بها، وليقبض على «جان فالجان» الجديد، وليبرح المدينة متى شاء، فكل أولئك لم أكن عنه مسؤلًا، فحسبي ما كابدت[2] من ألم وعانيتُ من جزع، فلو أن رائيًا رآني الساعة لما شكَّ في أني قريب عهد بالإفاقة مِن سُقْم أو بالإفلات من براثن حادث!

وإذا تأنقت الأقدار في مكروه ذلك الإنسان فتلك مشيئتها، وأنَّى للمرء أن يدفع القدرَ عن غيره إذا هو أعجزه أن يدفعه عن نفسه، وإنِّي لا أرَى مُبررًا لما كنتُ فيه من الجزع، فإن الأمل الذي كنت أتنسمه طِوال السنين، والشيءَ الذي كان يملأ عليَّ أحلامي قد ظفرتُ به.

ذلك هو الأَمنُ وهو بغيتي، فما لي لا أشكر الله على تلك النعمة، فلعله قد ارتاح لي، وتقبل مني، وأراد أن أجري في طريقي، فقد أخذتُ نفسي بصحبة الفضيلة ورددتُها إلى التُّقى حتى قرَّت، ورُضتُها على البرِّ حتى سكنت، فكيف أنسى يوم دخلت على ذلك العابد فَنَفَضْتُ إليه جملةَ ما مرَّ بي فأفرغ في أذني كلمات وعيتُها حتى الموت؟ فلأمضين على هذا السَّنَنِ [3]فتلكَ مشيئةُ الله - صحت عزيمته على ذلك بعد أن سكن خَلَجانُ سريرته، وبعد أن كادَ يستلُّ خيط نخاعه من طول ما سآءَل نفسَه وفكَّر.

لبث غير بعيد، ثم قام يتمشى في مَخْدَعه، وما شاع في نفسه سرور، ولا قَرَّ له قرار كما كَان يتوقع أن يكون، وما هي إلا بعض الخَطوات حتى عاوده ما كَان فيه.

(1) الفرق: شدة الخوف.

(2) المكابدة: الشدة.

(3) السَّنَن: جمع سنة، وهي الطريق.



والفكر كالبحر، فمن استطاع أن يردَّ البحرَ عن العود إلى شاطئه، استطاعَ أن يردَّ الفكر عن العود إلى مَنَاطه، وعلةُ البحر في ذلك يعرفها الملاح وهي المدّ والجزر وعلة الفكر يعرفها المذنبُ وهي الندم، فسبحان من يثير النفسَ كما يثيرُ البحرَ المحيط.

نعم عاد إلى ما كانَ فيه من حوارِ نفسه، فكانِ هو المناجي، وكان هو المُصْغي، وكم حاول ألَّا يكونهما ولكنَّ قُوَّةَ باطنَةً ساقته سوقًا وألَحَّتْ عليها بوحيها: أنْ فكّرْ في ذلك الذي سيقَ إلى الموت قبل اليوم بألفي سنة.

وقبل أن نجري بك شوطًا بعيدًا أيُّها القارئ، يجملُ بكَ أن تصبرَ قليلًا على الإسهاب في أمرٍ لم نر بدًّا من بَسْطِهِ.

من المألوف أن يناجي المرءِ نفسه، وليس بين أهل الفكر من لم يَطْعَم تلك المناجاة، وإنها لسرٌّ منْ أجملِ الأسْرَار وأخفاها، ينتقل فيها الحديثُ من الفكر إلى السريرة، ثم ترده السريرة إلى الفكر، فإذا علمت هذا حَلالَك أن تفهم الأسلوب الذي طالَ ترديدهُ في هذا البابِ من قولنَا - ثم قالَ - ثم صاحَ - قال لنفسه - كلمَ نفسهُ - صاحَ في باطنه - وصيحةُ الباطنِ لا تقطعُ سكوتَ الظاهر، فقد تقع ضَجةٌ في الباطن يتناول الكلامَ فيها كل ما في الجسم من عضو وجانحة غيرَ الفم.

تلك حقيقةٌ من حقائقِ النفس وإن لم يقع عليها الحسُّ أو يدركها اللمسُ.

تساءل أين هو من الأمر؟ وما عسى أن يكون ذلك العزم الذي اعتزمه؟ فأقرَّ في نفسه أن كلّ ما أصر عليه إنما هو باطل، وأنَّ الاستسلام للقدر في هذا الموطن لَمنْ إحدى الكُبَر! وكَبُرَ عليه أن يدع ذلك القدر في وهمه، وأولئك الناسَ في ضلالتهم، وهاله أن يجَمُدَ عن الحق وهُمْ في البُطْل يتدفقون. ورسخ في اعتقاده أن السكوت في مثل هذه المواطن إنما هو اشتراك في الإثم، وأن الإحجام عن المفاداة خليق أن ينزل به إلى أحط منازل الآثام.

منذ سنين ثمانٍ لم يذق ذلك المسكينُ طعم هذه المرارة، فتزلزلت نيَّته التي نواها، وجلس إلى نفسه يحاسبها وهو أقْسَى ما يكون، وجعل يقول: إن لكل حي غايةً يعمَلُ على إدراك مداها، وقد كانت لي غايةٌ أرى أنّي قد بلغتها فلم أخفق مَرَّةً في التنكر وخُدْعَة الشُّرْطة، ولكنها غاية خاوية من رُوح الفضيلة، أمِنْ أجلها يا ترى فعلتُ ما فعلَتُ؟ لقد كان خيرًا لي أن أعمل على بلوغ المقصد الأَسمى فأنْجُو بالروح لا بالجسد، وأنزل منازل الأبرار، فلن أعُقّ نفسي بعقوقي ذلك العابدَ، فما لي أفتحُ باب الماضي على مصراعيه، وقد أمرني العابد أن أوصده؟ فسوأةٌ لي. لقد أصبحت لصًا تتعوذ منه أبالسة الشطار[1]، فإنهم ربما سلبوا المرء متاعه ولم يختلسوا نفسه، فكم من سليب قد نجا بحُشاشته.

أمَّا أنا فقد سرقتُ من ذلك البائس وُجُودَهُ، وابتززت حياتَه، وسَلبتُ راحته، واغتصبتُ حتى مكانَهُ تحت الشمس، وما كانَ القاتل بدُوني في قُبح الصنيع، على أني لم أحسن القتلة فهو اليوم في سجنه ميّت حيٌّ!!

ذلك لعمري أبشع ألوان الإجرام، فما لي لا أفتديه بنفسي فاسترد ذلك الاسم وأعود كما كنت «جان فالجان» المجرم الأثيم.

فإذا طبْتُ بذلك نفسًا بُعثتُ بين الخلق من جديد، وخرجت من هذا الجحيم خروجًا لا يَعقُبُهُ رجوع، فإذا فررْتُ منه إلى السجن فإنما أفرُّ من جحيم الرُّوح إلى

(1) الشطار، اللصوص.

جحيم الجسم، وشتَّان ما بين العذابين، ولئن لم أفعل لأكونن من الخاسرين، وليس بمُغْنٍ عني ما قَدَّمته بين يدي آخرتي من عمل دنياي، إذا مَا عدل بي طبعي إلى الخَوَرِ[1] فحال بيني وبين ما اعتزمته. وهذا العابدُ ما فتئ أراه كأنَّهُ حيٌّ وكأنَّهُ مني أدنى[2] ظلام، يَنْهَبني بنظره نهبًا، وكأنَّهُ يؤثر أن يراني في لباس «جان فالجان» وإن كان من نسج الإجرام على أن يراني في لباس «مادلين» وإن كان من نسج التقوى، وإذا جاز على الناس تنكري فلن يجوز عليه.

فما نظروا إلا إلى الوجه وما نظر إلا إلى الضمير، فقد استحال إلَّا الذهابُ إلى «أراس» وإنقاذُ ذلك المكذوب عليه، ولئن أقدمتُ على ذلك لأُقْدمَنَّ على ما يُحجم عنه الناس. تلك هي المفادة وإن عَزَّت على النفس، وذلك هو النَصر وإن كان أليمًا، فلنخطُ هذه الخطوة فقد شاء القدر ألَّا أكون نقيًّا في نظر الله حتى أكون دَنسًا في نظر الناس. رفع عَقيرَتهُ بذلك وهو لا يشعر، ثم قام إلى كتبه فنسقها، وإلىَ وثائق ديون كَانَتْ لهُ على المعْسرين من التجار فألْقى بها في النار ثمَ كتابًا وغلَّفه.

ولو أن أحدًا كان معهُ في الحجرة لاستطاعَ أن يقرأ هذا العنوان «مسيو لافيد بمصرفه شارع أرتو»، وقامَ بعد ذلك إلَى خزانَة أسراره فأزعج منها دَرْجًا التقط منه محفظة. ولو رأيتَهُ على تلك الحال، وهو يَعالجَ هذا العمل، وقد خرجَ به التأمل عن حدّ الشعور بما يحيط به لما خفي عليك ما كانَ يخفيه في قرارة نفسه، ولرأيتَ أنه كان يحرك شفتيه، وتارةً يرفعُ رأسه ويقف بنظره على الحائط وقفة المستطلع كمن يحاولُ كشف سرّ أو استجلاء غامض.

ضَم إليه الكتابَ الذي كتبه، والمحفظةَ التي التقطها، وعاد إلى السير في مخدعه وفكره لم يبرح رأسه، ولم ينحرف عن مجراه، فكان كلما تنقّل ببصره رأى أمامَهُ لوحَ المقدور، وفيه سَطرٌ قد خُط بأحرف من النور: اذهب فأمطْ عنك اللثام وانتسبْ.

وعلى الأثر تراءت له الفكرتان اللتان جعلهما مِلَاكَ حياته، وقد سكنتا في هيكلين متباينين، أخذا يدنوان منه تحت الليل «وما نسي القارئ أن أولاهما لم تكن غير التَّنكر، وأن ثانيتهما لم تكن غير التوبة والرجوع إلى الخالق»، فجعل يقارن بينهما ويقيس ويقدّر حتى خَلَصَ إلى الحكم بأن الأولى إنما ركِّبت من الأَثَرة[3] وحب العاجلة[4] فهي إذن من وَحي الشيطان، وأن الثانية إنما صُوِّرت من الاحتساب وحب الآجلة فهي إذن من وحي السماء، ورأى هذه وهي تنهض من الظلمة وتلك وهي تنبعث من النور، فَرُزق التمييزَ بين نزغة الشر ونزعة الخير.

---

(1) الخور، الضعف.
(2) أقرب.
(3) حب الذات.
(4) وحب الدنيا

ثم اشتبكتا أمامه في نزال، فجعل يفكر في أمرهما، وإنه لكذلك إذ نظر إليهما بعين عقله فإذا بهما قد أخذتا تربوان[1] وتعظمان حتى صارتا في تماثيل العماليق، وفي هذه اللمحة أحَسَّ في باطنه، وفي ذلك الملكوت النفسي الذي لا يُعرف مداهُ نضالاً قد قام بين مَلك من الملائكة وشيطان من الشياطين وسط كتائبَ من الظلمة والنور، وكان يُؤَتَّ[2] إليه أنه في حراسة ذلك المَلَك فشدّ[3] منه أنْ رآه من الظاهرين[4]، ومَرَّ كأنَ لم يكن ذلك الجازع، وأيقن أن السريرةَ والقدر قد أوفيا على ساعة الإبرام في أمره.

فقال في نفسه: لقد أوضحَ العابدُ سبيلي في الطَّوْر الأول من حياتي الجديدة، وها هو ذا «جان ماتيو» يُوضِّحُه لي في طَوْرِهَا الأخير. وعاودته حُمَّى الفكر بعد أن هدأتْ هَدْأةً، فمرت برأسه ألْفِ فكرة وكلها تصيح به أن امْضِ في عزيمتك، ولكنه لم ينج في أثنائها من خَلْجَة شَكٍّ مَرَّت بنفسه، فقال أراني متعجلاً في الأمر، وما كان «جان ماتيو» ممن يُعتدُّ بهمَ إن هو إلا لصّ من السارقين.

ثم عاد فقال لنفسه: إذا كان هذا الرجل من السَّرَقة كما يزعمون فإن عقابه لا يتعدّى عمر الشهر في السجن، فما له كُتبَ عليه أن يطوى فيه حياته؟ فلولا أنهم أخذوه بي، وحَلّ به شؤم اسمي الذي لبسه كَارهًا لما حشروه في زمرة المجرمين لانتزاعه تفاحتين أو ثلاثا من شجرة لغيره، وما كان نائب الملك ليصنعَ به ما صنعَ لولا أن علم أن له سوالفَ غير محمودة وأنه يحمل ذلك الاسم الممقوت. ثم خطرَ له أن يذهبَ فيكشف عن نفسه لعلهم يُمهرُون هذه البطولة بالعفو عنه.

دع تقديرهم لحسن سيرته وما خلّف وراءه من الخيرات في هذا البلد.

ولكنَّ هذا الخاطر لم يلبث أن محتْهُ ابتسامةٌ مُرَّةٌ قد خَطَفَتْ على شفتيه فقد قال لنفسه على الأثر: إن قطعةَ الفضة التي انتزعتُهَا من ذلكَ الغلام انتزاعًا سَتُلْبِسُنِي ثوبَ المجرم العائد، وعقابي على ذلك لا يحتمل التأويلَ فهو سجن الأبد.

ثم نفض عنه غرور دنياه، وقطع ما بينه وبين الأرض، واتّجه إلى السماء يستنزل المعونة والعزاء، وقال: سبيلي أن أقومَ بالواجب فلستُ أتوقع شرًا مما أنا فيه، فهبني تركتُ الأقدارَ تجري على أذلالها، ولبثتُ في القرية بين سيجانٍ من العز والشهرة وحسن الأحدوثة التي أعلم دون غيري أنها متبَّلة بالجريمة، فأيّ نفس زكية ترضى بأمثال تلك النعم إذا ما عَلقَتْ بها اللعنة، على أنني إذا طبْتُ نفسًا بالاحتساب، وقضيتُ العمر في السجن مقيدًا مغلولاً في لباس من العار لا يستمطر رحمة القلوب، بلغْتُ بذلك مرتبَة الرضي.

---

(1) تزيدان وتكبران. (2) يخيَّل. (3) قوّاه. (4) الغالبين.

وهذا أمر قد فَرَغَ منه القَدَرُ وما خُلقْتُ لأنْقُضَ في الأَرضَ مَا أُبرِمَ في السماء.

فأنا اليوم بين أمرين: إمَّا فضيلة تحتها عار، وإما عار تحته فضيلة.

وتعاقبتْ عليه الأفكار، وأطافتْ به الهواجس، فما نهنهت من عزمه ولاكفّتْ من غَرْبه، ولكنَّها كدَّت ذهنه وأفظعته بكرّاتها حتى وَهَي[1] عن احتمالها، فجعلت عروقه تطرق في صفحتي وجهه كالمطارق، وإنه لكذلك إذْ آذَنَتْ ساعة البَيْعة بانتصاف الليل، وأجابتها ساعَةٌ بإحدى دور المدينة، فجعل يَعُدُّ الاثْنَتَي عشرة دقةً للساعتين، ويقارن بين جَرس[2] الجَرَسَيْن، فذكر على الأَثَر أنه رأى عند أحد باعة الفلزَّات[3] جرسًا عتيقًا معروضًا للبيع وعليه اسم «أنطون ألبين».

ثم أحسَّ البردَ فزاد في نار المدفأة، وغاب عنه أن يُغلق النافذة، ثم وقع في ذهوله من جديد، وحاول جهدَهُ أن يذكر ما كان يجول في نفسه قبل انتصاف الليل فغمرهُ النسيان، ولكنه لم يَنْشَبْ أنْ خرجَ منه إلى الذكر فقال: لقد ذكرتُ أني عقدت النية على الذهاب وإماطة اللثام. وخطرتْ له ذكرَى «فانتين» فلمحَ بين ظلمات هذه الهواجس وميضَ نورٍ لم يكن يتوقع رؤيته فتغيرت حوله وجوهُ المناظر.

وصاح: ويْلٌ لي؛ لقد أعماني حب الأَثَرَة فلم أفكّر في غير نفسي، وأراني قد قَصَرتُ همّي على أمرين: إمَّا التنكّر وفيه نجاة الجسد، وإمَّا الظهور وفيه نجاة الروح.

ولقد خاصمتُ نفسي إلى نفسي فكنت قاضيًا قد جمع بين العزة والهُون، وكنت مجرمًا قد ضمَّ بين النُّبل والخسة. وهذا لعمر الله لون من ألوان الأَثَرة، ولو ملتُ إلى الإيثار لبدأت بغيري. فهبني ذهبتُ اليوم، وكشفتُ عن نفسي فساقوني إلى السجن وخلوا سبيل «جان ماتيو» فماذا يحَلُّ بعدي بهذا البلد الذي أغاثه الله بي فأقمتُ فيه المصانع، وأيقظتُ الصناعة، وشَيَّدْت دورًا للعاملين وأخرى للعاملات وكَفَلْتُ الأيتام، وحبستُ الأرزاق على الزَّمنَي[4]، وكنت لهم بمنزلة الوقود من التَّنُّور، واللحم من القدْر. فهم يستمدون مني حياتهم، وأنا محور تجارتهم وموئل عُفاتهم ومثابة أرزاقهم، وبي أخْصَبَ عيشُهم واخضَرَّت أعوادُهم ولم يكونوا من قبل شيئًا مذكورًا.

دعَ تلك البائسة المضعوفة التي أصبحت هامَةَ[5] اليوم أو غد بعد أن ابتَذَلَتْ خدْرَها وَهوت من سماء طُهْرها، وأنا الذي أخْرَجها عن أفق العفة وكنتُ أذُنًا للسعاية بها، فطرحتها من المصنعَ حين لا موئل ولا عائل، فأكلتْ بثدييها وكنتُ لها من الظالمين.

---

(1) ضَعُفَ. (2) الجرس صوت يجرس.

(3) الخردوات أوما ينفيه الكثير من خبث الحديد.

(4) محل. (5) يقال فلان أصبح هامة اليوم أو غد أي حضر حينه.

وتلك الطفلة المنبوذة، وقد عاهدتُ الأمّ على نجاتها، فما أصنع بعهدي معها إذا نزحْتُ اليوم فماتت الأم وأصبحت الطفلة تحت رحمة الاتفاق، يقذف بها القدر فتَلَقَّفُها الغيرُ، فلننظر ما ينجم من الضرر في حالتي اللبث والذهاب.

ثم وقفَ عند هذه النظرة فعراهُ ضرب من الحيرة أعقبتهُ رعدةٌ مَرَّتْ كأن لم تكن، فتمكّن من نفسه وقال: ليذهَبْ ذلك الرجل إلى السجن فقد سرق، ومالي أحسنُ به الظن فأدفعُ عنه الإثم، فلأمكثَنّ هنا وأُثمّرُ هذا المال، فإذا أحسنتُ عليه القيام ولدَلي في مدى عشر سنين ألْفَيْ ألْف أنفقُها في وجوه البرّ، وليس بي أن أعمل لنفسي فلستُ ممن يتربّحون في الجميل، فإذا استبحر البلدُ وماج بأهله ولدَتْ القرية مَدينَةً، وولدت الدسكرة[1] قريةً، وأطلع العَرَاءُ ضيعة،[2] فتَحْيَا الصناعة وتنمو المصانع، وتكثرُ المناسج، وتسْعَدُ الأسَر، فيموت البؤس وتموت بموته الآثام، فلا قتلَ ولا سَرقة، ولا فسقَ ولا فجور، وتَنعَمُ تلك البائسةُ بقرب طفلتها.

لقد كنتُ مُحَمقًا حين قطعْتُ بالسفر، وما كَانت آفتي في ذلك إلا الأثَرةُ، ولو أنني ذكَرْتُ غيري لما هممتُ بركوب ذلك الخطر، وإنها لضَلّةٌ قد ثَنَي الله عنها عناني.

أأستحيي نفسًا أثيمةً وأميت أنفس زكيّة وأتوقعُ على هذ أجرًا!!

بَسْلٌ[3] عليَّ أن تموتَ «فانتين» وهي على ظمإ إلى رؤية طفلتها، وأن تهْلكَ الطفلة ولا تعرفُ لها أمًّا.

كل ذلك من أجل مجرم لا أراه إلا خليقًا بما حلَّ به من العقاب، ولا أحسبُ إلا أنه ربّ سوالفَ في السوء، فلا يضيرُه أن يقطع المرحلة الأخيرة من عمره سجينًا كان أو طليقًا. ولو أن لتلك الطفلة كافلًا غيري لما حَزَبَني الأمر، فإذا أجرمتُ باللبث هُهنا فعَلَيَّ إجرامي، وإن هي إلا غمزاتٌ من النّدم أجدُ لها مسًّا في الفؤاد، فلأصبرنّ على سعيرها ففيه نعيمٌ لأناس ليس لهم دوني من وَلِيّ، وها أنذا وطّنتُ النفْسَ على عيش ظاهرُه الرحمةُ وباطنُهُ العذاب، ذلك هو عين الاحتساب.

ثم طفِقَ يمشي في مخدعه وقد تبسَّطتْ في هذه المرة نفسُه، ورضي عن عُقْبَاه، وشَحذ عَزيمَتَهُ على المُضيّ فيما رَسَمه.

إنما تُلْتَمَسُ الحقائقُ في دياجير أغوار الفكر، فمثلَها كحجر الماس لا يُلتقط إلا من ظلمات المناجم بين سوادين من فحم وليل - خُيِّلَ إليه أنه هبط إلى تلك الأغوار فسلكَ في أشَدّها حلوكةً وأبعَدها مَدًى، ثم جعل يتحسّسُ بيَدَيه في تلك الدُّجيَّةَ[4] حتى ظفرَ بحجر من ذلك الماس، أو بحقيقة من تلك الحقائق، وإنه ليَقْبِضُ عَليه إذ

---

(1) أي الأرض المزروعة أو الأفدنة.
(2) المعروفة بكلمة عزبة.
(3) أي، حرام.
(4) مفرد دجى.

تفجَّرَ منه نورٌ كَاد يُعشي بَصَرَهُ، فصاح ها أنذا قَد وجدتُها وها هو ذا في يدي مفتاح طلسَمِهَا. فأنا «مدلين» وسأكونه ما حييت، فلا يسرُّني أن أكون «جان فالجان» ومالي أَقولُ «جان فالجان»، وأنا لا أعرف خَلقًا قد ركِّبَ عليه هذا الاسم، فإن كان حيًّا كما يزعمون فليتولَّ أمر نفسه، ولا أحسب هذا الاسم إلا طائرَ شؤم له سبحاتٌ تحت الليل، فإذا عَنَّ له رأسٌ قد انتواه القَدَرُ وقف فوقه فاضطرب ثم انقضَّ عليه فطاح به.

ثم نظر في مِرْآةٍ له صغيرة وقال: لقد رَفَهَتْ عني هذه العزيمة فصرت بعْدَها غيري قبلها.



ثم خَطا خطوات ووقف يخاطب نفسه: لتَصْنَع العواقبُ صَنعها فقد قُضي الأمر واستحال غير الإقدام، على أني لا أزال أرى آصِرَةً من الولد تربطني بهذا الاسم فمن الكَيْس قطعُها، وأشياءَ في هذا المخدع ربما وَقفَتْهُم على أثري ومهّدت السبيل للشك في أمري، وهُنَّ وإن كُنَّ صوامتَ فإنهنّ أفصَحُ عند الشهادة لسانًا من الناطقين، فمن خطل الرأي أن أبْقي عليهن.

ثم ضربَ بيده إلى جيبه فأخرج كيسًا التقط منه مفتاحًا أولَجهُ في ثقْب قُفْل لا يكاد يُرى لدقته، فَلَكم خدعَ مكانه عينَ الناظر لكمونه بين خطوط دَكناءَ رُسمَتْ متناسبةَ الأوضاعِ على ورق كُسيَ به الحائط، فانفرجَ الحائط عن مَخْبإ كانت تواريه مرآة مُضَلِّلةٌ نُصبَت بين زاويةَ الجدار وحجاب المدفأة لتصرفَ عينَ الناظر، وكان

في ذلك المخبإ أهدامٌ بالية ومعطف أزرق وسراويل[1] رَثٌّ وَجِرابٌ عتيق وعصا غليظةٌ مُقَمَّعة بالحديد.

ذلك هو متاعه الذي كان يحمله يوم مرّ بمدينة «دني» سنة 1815، وكان يُخفيه عن نظره هربًا من ذكرى السجن، ويُظهر الشمعدَانين حبًّا في ذكرى العابد. ثم رمى البابَ بنظرة عَجْلَى كأنه يَخشى الغِرَة رغم الوثوق من الإيصاد[2]، وأَهْوَى كاللمح على ذلك المَتاع دون أن يُسْعده بنظرة منه فاحتضنه وألْقَى به في النار، ذلك المتاعُ الذي طالما قَدّسه ولم يبال الخطر في الإبقاء عليه.

وما هي إلا لمحةٌ حتى أشرقَ المكانُ بنور أحمر رَقَصَتْ أشعتُه على الْجدارِ الذي يُسامته، فعلم أنَّ النار قد أتت على متاعه إلا عصاه فقد بقي فيه ذِماء[3] دَلَّ عليه شَرَرٌ كانت لا تزال ترمي به إلى وسط الحجرة.

وسَطَع ريحُ الجراب وهو يحترق بما فيه من الْخُلقان، وظهرَ على أثره في المَوْقد شيءٌ لَمَّاع لو دانَيْتَه لَرأيت أنه لم يكن غير تلك القطعة الفضيّة- قطعة الغلاَم «سافويار»، ووقع نظرُه على الشمعدانين، وقد أضاءَتْهُما النارُ فانعكس لهما على الموْقد، ما أدْري أيُّ لون من ألوان الأشعة، فصاح وهاذان أيضًا لا معناة[4] للإبقاء عليهما ثم ألحقهما بمتاعه فلم يلبثا أن صُهرَا وحالا إلى سبيكة مُنكرة - ثم خطا إلى الموقد فانحنى عليه واصطلى قليلا وتنفس وقال: نعم الدفءُ.

ولم يكد يَخْمَدُ مَغَبَّة أمره حتى شَعر كأنّ صوتًا في داخله يصيح به: «جان فالجان»، «جان فالجان»، فقفَّ[5] شعرُ رأسه واستُطير فؤادُه، وكان كمن يَسمعُ صوتَ الويْل، ثم أخذ يتسمَّع وإذا به يناديه: هنيئًا لك لقدْ أكملت صنعك - أتلفت الشمعدَانين - نجوتَ من ألم الذكرى - نسيت العابد - نسيتَ معه الماضي - سُقت «جان ماتيو» إلى الهلاك - هنيئًا لك لقد نجوتَ - فكن شيخًا وقورًا ودع اسمك يحمل البلاء إلى غيرك فيمضي فِدَاءً لك - كن عريض الجاه خِصْبَ الفِناء، عُلْ من شئت من الناس، واكفُل من شئتَ من الأيتام.

ولا تنس وأنت مستقرّ في الذروة من الجاه ومتَدَلّ في الجزيل من النعم أن تذكر ذلك الذي يلبس في السجن لباسَك، ويخْطرُ في قيودك وأغلالك، فَلْيهنئْكَ ما قدمت يداك. فتفصَّدَ جبينه عرقا، ووقف ساهمَ الوجه، سادرَ البصر قد شُدَّتْ أهدابهُ إلى بقايا الشمعدانين، كل ذلك والصوتُ لا ينقطعُ عن مناداته «جان فالجان» إنك لا تعدمَ

---

(1) جمع سروال.
(2) الإيصاد: الإغلاق.
(3) بقية حياة.
(4) يقال معنى الشيء ومعناته ومعنيه.
(5) قف شعر رأسه أي وقف.

أن ترى حولك قنابل[1] من الناس ترتفعُ أصواتُهم بالدعاء لك والثناء عليك، فلا تَنْسَ وأنت في مَظْهَرِ سُلطانك ذلك الصوتَ الخفيَّ الذي لا يحجبه عن سمع الله حجاب، واتقِ دعوةً تَنهَضُ من ظلمة السجن إلى جوانب العرش فتحجُبُّ في طريقها دعواتهم، وتقطع عليها سبيل العروج إلى السماء، فتمسي ومالك غيرُ اللعنة من خلاق[2] ولبَئس عُقبى الدار. وأخذ ذلك الصوت الذي كان يُحدّثه كالهامس في أذنه يعلو ويعظم حتى صار له دَويٌّ كاد يَفتق طَبْلَتي مَسْمَعَيْه، وبعد أن كان يشعر أنه صوتٌ من أصوات الضمير قام بنفسه أن الذي يُكلمه لم يكن غيرَ حيّ من الأحياء تَحتويه الحجرةُ فرمَى بصَرَهُ يطلبُه في أركانها وصاح وهو لا يعي: من المتكلم، ثم ضَحك ضَحكَةَ مَنْ به مَسٌّ - وقال: لَشَدَّ ما وَهِمْتُ فليس هنا غيري.

وما كانت الحجرة خالية كما كَذَبَ نَفْسَهُ، ولكنَّ الذي كان فيها لم يكن ممن تَقَعُ عليه العيون، ثم عاوَد المشي بخُطى رَتيبة[3] تبعث الأسى وتثير الشجَن فكانت تقطع عليه سلك التفكير، وتقطع على ذلك النائم تحت حجرته غِرارَه[4] فيثب من فراشه مروَّعا مذعورًا.[5]

على أن هذا المشي كان يُروّح عنه ويُثْمِلُه في آن، وقد تَدفعُ الملماتُ صاحبَها إلى الحركة رجاءَ أن يُصيب في طريقه من يَشُدُّ منه برأي أو يُنَفّسُ عنه بنُصْح.

وأجازت به آونةٌ نَكِرَ فيها نفسه ومكانَه، ثم نبّهه فزع مَلأَ جوانب صدره، فتراجع مخذولًا أمام كلتا العزيمتين اللتين اعتزمهما وبدا لهُ قُبْحُ ما أضْمَر، فأيقن أن لا خير في الأولى ولا أجرَ في الثانية، وقال: ما أشأم هذا الاتفاقَ الذي رمى «بجان ماتيو» بين أيديهم فأخذوه بي وأنْظَرني ههنا حتى مكّنتُ لنفسي فَمَلَكتُ يومي وبلغتُ من الثروة ما بلغت، ثم التفتتْ نفسُه التفاتةً إلى حاضره وأخرى إلى ماضيه وقال: «اكشفْ عن نفسي»، قالها ونفسُه تكاد تسيل جزعًا.

فسلام على عيش لَبستهُ مُضطرًا وخلعتُهُ كارهًا، فلقد آن للنفس أن تودّع ما هي فيه. فتستبدل[6] الإذلالَ بالإجلال، والضيقَ بالسّعة، والنصَبَ بالدَّعة، وللعين أن تستبدل عُبوس السَّجان ببسمات الشكر عند الإحسان، وللأذن أن تستبدل رنَّات السلاسل بتغريد البلابل عند إقبال الربيع في وشيه البديع، وللرِّجلِ أن تستبدلَ الحَجْلَ في

---

(1) جماعات. (2) أي نصيب.

(3) الشيء الرتيب هو الذي يقع متشابهًا على وتيرة واحدة.

(4) الغرار النوم القليل. (5) الروع، شدة الخوف.

(6) يقال استبدل الطربوش بالعمامة إذا أراد ترك العمامة فالباء تدخل دائمًا على المتروك قال الله تعالى، ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾.

القيود بالتنقل بين المروج[1] والنجود[2]، وللأنف أن يستبدل ريح صدإ الحديد بأريج الزهرات والورود، وللجَنْب أن تستبدل خشونةَ المضاجع بلين فراش المخَادِع، وواهًا من وحشة سجن الوَحْدَة والتقلّب في ألوان الشدّة، وفي ذمَة الله أيُّتها الدار فما كان أخْصَبَ أيّامَك وأقْصَر أعوامَك، وأنت أيَّتُها الخادم العجوز فما كان أيْمنَ صباحَك وأبْرك صلاحَك، وقد آن لي وأنا العاثر المجدود أن أستدبرَ عيْشًا أخضر، لأستقبل عيشًا أغبر، وألْبسَ رداء أحمر، نَسَجَتْه يد البلاء الأكبر، وخاطَهُ الشقاء لمن يسوقه القضاء، اللهم غَفْرًا، أفي مثل هذه السنّ وقد نَيّفْتُ على الخمسين أرَدُّ إلى السجن وأنا أعلمُ الناس بما فيه من عذاب وهُون؟ ألا أنّي لو كنتُ في عهد الشباب لاضطلَعْتُ بخَطْبه، أمّا وقد أخذت مني الأيامُ فلا طوق لي على مُصَابَرة الشدائد.

يَنْهَرُني الحرسُ، أخاطَبُ[3] بالكاف، تأخذني سياط السجانين، دع عصا كبيرهم، أمْسي عَاري القدمين في حذَاء من الحديد، أمرٌ ساقي لمطرقة القَيْن الكشاف في الصباح والمساء ليَبْلُوَ قيودَها ويمتحن أغلالها، أصبح هدفًا لأعين الزوّار فكلما مرّ بي أحدهم قالوا: هذا هو «جان فالجان» الشهير الذي كان شيخًا «لمنتراي سيرمير»!

فإذا جاء الليل عادوا بنا إلى السجن ونحن نَسْبَحُ في غدران من العَرَق وقد كَدَّنا المُوَكّلون بعذابنا، فندخلُ اثنين اثنين بين أيْد تعملُ في أقفيتنا وسياط تقدح في ظهورنا، فما أمَرَّها من حياة، إني أكاد أتهم القدَر، أتراه تجرَّد من الروحانية وانغمسَ في البشريّة فحلَّ في هيكلِ[4] شرير حَضَرتْ في استنباط الأذى قريحتُه، وأقفر من الرحمة فؤاده. ثم رجع إلى هواجسه الأولى، ووقف عند تلك العقدة التي أعياه حلّها.

أيقيمُ هنا فيصبح شيطانًا أحَلَّته الجَنّةُ؟ أم يذهب إلى هناك فيصبح مَلكًا أحَلَّهُ السَّعير؟

فتأوهَ، وقالَ: ربي كيف الخلاصُ، ثم اكتنفَ نفسه العذاب، وشاع فيه الألم وأخذ فكره يختلط عليه، فمر به ما أدري أيُّ صنوف البلَه، ولعلّه أثرٌ من آثار مواقع اليأس في النفوس، وذكر وهو فيما هو فيه كلمةَ «رومان فيل» فقال: تُرى متى سمعتُ هذه الكلمة؟ سَمعتُها منذ عهد بعيد في أغْنيَة صغيرة تقعُ في بيتين من الشعر، وإني لأحسبُ «رومان فيل» اسمًا لغاب صغير بضاحية من ضواحي باريس يؤمه العشاق من الشباب في شهر أبريل، يجنون زهرات الزنبق. وسرَى اضطرابُ باطنه إلى ظاهره فجعلَ

(1) في هذه الصفحة وحدها قد أضفنا كلمات من عندنا دعانا إليها حسن المقابلة في المعاني واطراد القول.

(2) جمع نجد أي المرتفع من الأرض. (3) علامة الاحتقار. (4) منظر وشكل.

يترنح في مشيته كأنهُ وليدٌ قد خرجَ من الحَبْو إلى المشي، فتُركَ يمشي وَحْدَه فهو لا يكاد يتماسَكُ، فجعل يكافحُ أشدَّ الكفاح ليثوبَ إليه رشدهُ ويخرج من ذلك البله، حتى إذا تمكن من نفسه أو كاد، أرادَ أن يعزم العزمة الأخيرة، إما الكشْفُ عن نفسه، وإما السكوت على حاله، ولكنَّه لم يُرْزق التمييز. وطاحتْ هواجسُه بثمرات فكْره، وأخذت تصوراته المبهمة تضطربُ أمامهُ ثم تحولتْ بالتعاقب إلى دُخان تذهب به الرياح، فأحس أنه أنَّى وقف أو وَقَفَتْهُ الضرورةُ فإن بضْعةً منه هالكةٌ لا محالة، فعليه أن يَشْهَدَ إما احتضارَ سعادته وإمّا احتضار فضيلته، وعاود التردد فعاد إلى موقفه الأوَّل. هكذا كانت تضطرب هذه الروح المعذبة تحت سيَّال من الكرب والبلاء.

قبل عهد هذا البائس بثمان عشرة مائةً من السنين، هناك عند تلك الزيتونةالمباركة التي كانت تعبث بها هُوجُ[1] رياح الأبد- وتحت ذلك الفلك الحالي بالكواكب - كان ذلك السِّرُّ الغامضُ الذي أعجز العقول إدراكُ كنهه- ذلك الذي حل في صورة قد رُكّبت من الكمال والهُدَى، ومن آلام هذا الورى- يَعَافُ هو أيضًا شرب الكأس المرهوبة التي طالما نحَّاها عنه بيده كلما خالها تفيضُ بكسَفٍ من ظلمات، تسلسلت منها ظِلالٌ تجزع عند وِرْدها النفوس.

أَلْوَانُ الأَلَمَ في النَّوْمَ

أقبلَ السحرُ وهو لا يزالُ يمشي في حجرته فاستشعرَ التعَبَ، فلقدْ مرت به خمس ساعات في التعاقب لم يُنَفِّسْ فيها عن نفسه ارتمى على مقعد، وما هو إلا أن احتواه حتى غطَّ في النوم، وسنحت له رؤيا شبيهةٌ بتلك الرُّؤى التي تُمثّل للمهموم في نومه ما كان عليه في يقظته، مغاليةً في تلوين وجوه الألم، ولقد نال منه هذا الحُلُمُ ما لم تَنَلْهُ اليقظةُ، فلم يكد يُفيقُ حتى خط بيده ما كانَ مركوزًا في نفسه من وَحي ذلك الكابوس.

وليس من الأمانة أن نمرّ به ولا نذكره فيصبح تاريخ الليلة وهو أبتر - ونحن مثبتوه هنا لم نخرِم منه حرفًا.

---

(1) جمع هوجاء وهي الرياح الشديدة.



الـرُّؤيـا

رأيتُ كأني في قَفْرٍ[1] لا نبتَ فيه، وكأنني كنت بحيث لا لَيْلَ ولا نهَار، وكأن أخي كان يماشيني في ذلك القفر، ذلك الأخ الذي طويتُ معه عهدَ الحداثة ثم افترقنا وطال الأمد حتى نسيته.

سِرْنَا وقدْ رَمَانَا الطريقُ ببعض السَّابلة، ثم خضنا في حديث جرَّ إلى ذكر جارة كانت لنا في ذلك العهد - كانت تعملُ أمام نافذةٍ مفتوحة تُطلُّ على

(1) القفر: الصحراء الموحشة.

الطريق، وكأننا ونحنُ نتحدثُ في ذلك القفرِ نجدُ مَسَّ البرد المصبوب علينا من تلك النافذة.

وهَفَا بِنَا فَارسٌ في لونِ الرَّمَاد على فرس في لون التراب، عاري الجسدِ، أصلع الراس جميعًا، حتى أن الناظر إلى جمجمته ليكاد يَعدُّ فيها فروع أوداجه، بيده مِخصَرَة في لدونة فرع الكرم وفي ثِقل عود الحديد، هفا بنا ولم يسلم.

فقال لي أخي: اعطف بنا على هذا الطريق الأجوفِ، وكان طريقًا سماؤه في لون أرضه لا يرى السالكُ فيه أجمةً ولا خضراء، وإني لأحدّثه وأنا لاه عنه بما أنا فيه، إذا به قد راغ روغة واختفى، ثم رُفعتْ لي قريةٌ فَيَمَّمْتُها فخرصت[1] عليها أنها قريةُ «روما نفيل»، فركبتُ أولَ طريق لَقِيني فإذا به قفر، عدلتُ عنه إلى ثان فلما بلغت الزاوية التي تربطه بأخيه إذا أنا برجل قائل عند حائط[2]، فسألته عن اسم القرية التي أحَلَّتْني فلم يَنْعم بالجواب، وفُتِح بابُ دار ولجَ[3] فيه ذلك الرجلُ فتعقبته فإذا أنا برجل قائم وراء البابَ فسألته لمن البيتُ فأعرض عني ولم يُجب، وكان للدّار بستان دَلَفْتُ إليه فإذا أنا برجل قائم تحت شجرة فسألته لِمَن البُسْتَانُ فأعرض عني ولم يُجب، فَهِمْتُ على وجهي في تلك القرية التي أقفرت من الإنس سُبُلُهَا وفُتِحَتْ أبوابُ دورها فما رماني الطريق بإنسيّ، ولا أحسستُ حركةً في دارٍ من تلك الدور، غير أنّي كنتُ أرَى عند كل جدار وخلف كل باب وتحت كل شجرةٍ رجلًا قائمًا قد أخذ نفسه بالسكوت.

فانحدرتُ إلى المزارع فلم أكد أنقلُ فيها بعض الخُطَى حتى رأيتُ وقد نظرت خلفي زمرةً[4] تتعقّبني، وإذا بكل أولئك الذين رأيتهم قيامًا قد ترسموا أثري، ورأيت كأنهم يمشون الهُوينا، ولكنهم على تريثهم كانوا أوسعَ مني خُطًى وأخفَّ حركةً، وما هي إلا لمحة حتى لحقوا بي وتكنّفوني وكانوا جميعًا في لون التراب، فسألني أحدُهم وأحسبُه أولَ رجل لقيته عند هبوطي القرية.

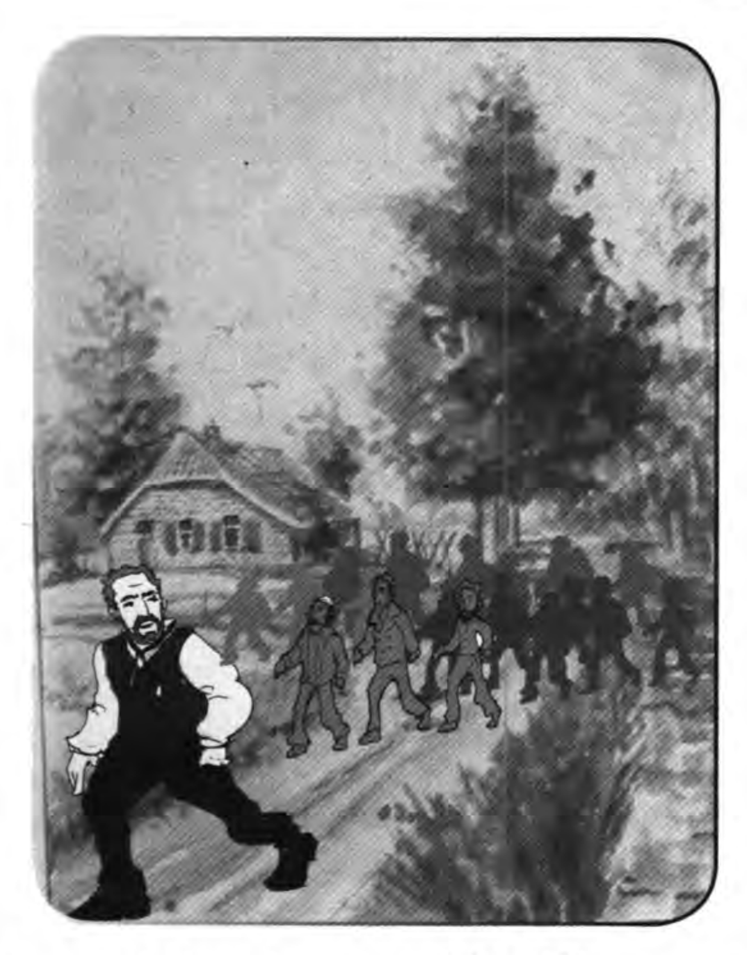
---

(1) أي تظنيت خمنت حزرت.

(2) قائل، من القيلولة، وهي شدة الحرِّ وقت الظهيرة، والحائط، الحديقة والبستان.

(3) ولج، دَخَل.

(4) الزمرة، الجماعة.



أين تمضي ويلك، أولَسْتَ قدمْتَ من عهد بعيد؟ وبينا أتهيأ للجواب إذا بهم قد اختفوا جميعًا. ثم هَبَّ من نومه وكأنه قطعة من الجليد، وقد خمدت نار المدفأة وذابت الشمعة إلا قليلا، وكان الليل لا يزال ليلا، فقام إلى النافذة ونظر نظرة في السماء، فإذا بها لا تزال ضريرة النجم، وكانت النافذة تُطل على فناء الدار والطريق.

وبينما هُو ينظر إلى السماء إذا به قد سمع صوتًا جافيًا وضجّة عنيفة على وجه الأرض، فخفض بصره، فرأى نجمين أحمرين يَشعّان أشعة تترامى في جوف ذلك الليل، وكان لا يزال في بقايا خباله، فقال: لقد دُفعَتُ الليلة إلى عجائب، تُرى أعافت النجومُ سباحتها فوقنا فهوت تسبح تحتنا، ثم قامت ضجّةٌ ثانية كان من أثرها في نفسه أن عاد إلى صوابه فنظر نظرة أخرى فإذا بالنجمين الأحمرين لم يكونا غير مصباحي عجلة قد شُدَّ إليها جوادٌ أبيض فسأل نفسه لأمْرٍ مّا بكّرت هذه العجلة.

وفوجئ بطَرْقٍ على الباب، فأزعجته هذه الفُجَاءَةُ وصاح بصوت خشن من الطارق؟ تلك أنا يا سيديَ الشيخ فعرفَ صوتَ خادمه العجوز، فقال: وما تريدين؟ فقالت: إنها الساعةُ الخامسة يا سيدي. قال: وما شأنيَ بذلك؟ قالت: لقد حضَرتْ العجلة. قال: أيّةُ عجلة؟ قالت: تلك التي تقدّم سيدي بتهيئتها في هذه الساعة، وها هو ذا السائق يطلب لقاءك. قال: ويحك أي سائق؟ قالت: سائق السيد «سكوفير». وما كادَت تذكر هذا الاسم حتى احتوته رعدة وكأن برقًا من الذكرى قد خَطَف أمام عينيه، ثم سكت سكوتًا طويلًا ولو رأته الخادم وهو على تلك الحال لتمشّي قلبها في صدرها من هول ما ترى. وعاوده البَلَهُ فجعل يلهو وتعبث أنامله بتلك الشباك التي نسجتها الشمعة من دموعها، وخاطرت الخادم بتذكيره. فقالت، سيدي الشيخ: كيف أجيب السائق؟ فقال لها: قولي له إني سأوافيه الساعة.

***

وكانَ البريدُ بينَ «أراس» و«منْترَايْ سيرْميرْ» يُحْمَلُ في ذلك العهد على عجلات ذات تُرْسَين مطوّقين بجلد أسمَرَ، وفيَ كلَ عجلة مقعدان؛ مقعد للسائق، ومقعدٌ للمسافر. ولم تكن تلك العجلات التي انقرض اليوم نوعها على شيء من الرُّواء.

وقد كان أيسرَ عاب[1] بها أنها حدباء.

فإذا لاحت للناظر عند مُطَّرح البصر وهي تزحفُ تحت الأفق زحفًا حَسِبَ أنها من تلك الدوابّ التي دقّتْ خصورهاَ وثقُلَتْ أعجازها.

وكان البريدُ الذي يغادرُ «آراس» في كل ليلة لا يبرحها حتى يوافيها بريدُ «منْترَاي سِيرميرْ». وفي هذه الليلة نفسها كان البريد الهابط إلى «منتراي سيرمير» من طريق «هيدسَان» قد صَدَم عند منعطف الطريق عجلةً صغيرة قد شدَّ إليها جوادٌ أبيض وفيها إنسان مُدّثر، فرجّتها الصدمةُ رجّةً أشفقَ معها حاملُ البريد على ذلك الرجل فسأله الوقوفَ، ولكن الرجل قد انطلق في طريقه وهو يركُضُ جَوَادَهُ ملْءَ فروجه، فقال حامل البريد: ويلٌ له، لقد استطرد به الشيطان، ولم يكن ذلك الذي مرّ يعدو غير صاحبنا الذي بات على حال حقيقية بالرحمة، فلو أنك سألته إلى أين تمضي؟ ومالك هكذا تُسرع؟ لأجاب. لا أدْري!

إنه خرجَ تحتَ مشيئة الاتفاق، فإما إلى «آراس» وإما إلى غيرها، ومَرّت تهوي به العجلة في جوف الليل وكأنَّها مدفوعةٌ إلى هاوية، وكانَ يشعرُ أنه قد بات نَهْبًا لقوتين متباينتين لا قِبَلَ له بهما، هذه تدفعه وتلك تجْذبه، ولا يعلم إلا الله وحده ما كان يجول في مناحي نفسه، ومن ذا الذي سَلِمَ من أن يضلّ ولو مرّة واحدة في ظلمات

---

(1) أي عيب.

مغاور الغيب. فسارَ وما عزم عزمًا ولا وقف عند رأي رَضيَهُ ولا سكنت سريرته لأمر أبرمه، فكان في أخرى هواجسه مثْلَهُ في أولاها، ما زالَ واقفًا حيث كان، ثم عاوده ما كان يتمشى في نفسه حينَ ركبَ العجلة فقال: مهما كانت العاقبة فمن العجز ألّا آخُذَ بالحيطة، وليس للمرء أن يقطع بوقوع أمر من الأمور، ولكن له أن يطرحه تحت نظر فكره فيستبطنه بحثًا واستقراءً، ومن نَصَبَ نفسَهُ للحكم على الأشياء وهو غير مُكْثب[1] فقد أخطأ مواقع الرأي وأطْلَعَ من الذرّ جبالًا، ولعلّي إذا لقيت «جان ماتيو» وجدتُ الأمر أيْسَرَ مما في نفسي ورأيته أهلًا لما نزل به، أما «جافير» فما كانَ ليكيدَ لي وقد صرف الله عنّي عنانه وصبّه على «جان تاميو» فصّوب إليه الظنونَ والشبهات، ونعوذ بالله من عنادها، فإنها ما نزلت بصدر إلا تَعَصّي على صاحبه انتزاعها فلا خوفَ إذًا عليَّ من ذلك الداهية، ولا أكْذبُ نفسي فالساعة مرهوبة، ولكنّ باب الرجاء لا يزال مفتوحًا، ومصيري لا يزال بحمدِ الله في قبضة يدي أصَرّفه كيف أشاء، واشتد به بعد ذلك القلق فكان يُؤْثِرُ في قرارة نفسه أن يعود على أن يذهب.

وكَان كلّما انقبض صدره صبّ سوطَه على ذلك الجواد الذي كانَ يُحْضرُ[2] إحضارًا، يطوي في الساعة فرسخين ونصف فرسخ، وجعل كلما اندفع في طَريقه نمَتْ عنده شهوةُ الرجوع.

ولما تنفّس الصبح أو كاد، كان في الفضاء، وقد اختفت مدينة «مونتراي سيرمير» فنظر إلى أفق قد ابيضتْ ذُؤابَته وبرزتْ صحيفةُ وجه فجر وَلَدَتْهُ ليلةٌ من ليالي الشتاء، إصبْاحُها، أشبه الأشياء بإمْسائها، لا تكاد تُرَى تبأشيره، ولكنَّ أخْيلة[3] التلال والأشجار قد أضافت إلى ما كان في نفس هذا البائس ما يعلم الله من ضروب الحزن والأسى، وكان كلّما مرَّ بدار من تلك الدور المنعزلة على لُقَم[4] الطريق قال في نفسه: ما لهذه الدار بُدٌّ من ساكن ينام ملء جفونه.

وكان لخبب الجواد وجَرْس جُلجُله ووقع العجلة على البلاط إيقاعٌ حسن، ونَغَمٌ مُتماثل يُدْخل الأنسَ على نفسَ الخليِّ ويزيد في أسى نفس الشجيّ[5].

فبلغ قرية «هيدسان» وقد أضحى، فوقف أمام نُزُل رجاءً أن يُنفّسَ عن الجواد ويَعْلفَهُ، وكان جوادًا كما قال عنه صاحبه من أصل بولونيّ، عظيمَ السّلَيل[6]، سحيرًا، أدكّ[7]، أهْنَع[8]، مفتوح اللّبان، دقيق عظم الساق، صُلْب الحافر، فهو وإن لم يكن

---

(1) أي قريب.
(2) أي يجري جريًا سريعًا.
(3) جمع خيال.
(4) جوانب.
(5) الشجي، المشغول، وفي المثل ويْل للشجي من الخلي.
(6) أي، كبير الرأس.
(7) كبير البطن.
(8) عريض الكتل.

أصيلًا كان عُصلُبًا[1] متينًا، فعْلَ فيلَ كرامِ الخيل، فطوى خمسة فراسخ في مدى ساعتين، وما نَضَحَ كَفَلُه بماء، ولا رَمَتْ أعطافُه بحميم.



وكان لا يزال مشدودًا إلى العجلة حين حضر غلام النزل يحمل إليه العَلف، وحانت منه التفاتَةٌ إلى العجلة اليسرى فصاح بالرجل، أوَ أنْتَ على سفر بعيد، قال: مالك ولهذا! قال: هل قطعت شُقّةً طويلة؟ قال: خمسة فراسخ. فأجاب الغلام وهو يُدْمِنُ النظر إلى العجلة، لئن كانت قد قطعَتْ بك خمسةَ فراسخ، لمِنَ المحال أن تقطع بك ربع فرسخ آخر، انظر إلى ما حَلّ بها من العَطب، فوثب الرجل ونظر حيث ينظر الغلام، فقال الغلام وهو يحاوره: أوْلَى لك[2] فما كان أخلقَها أن تطرحَكَ وجوادَك في حفرة من حفر الطريق، ثم أشار إلى مكان العطب فإذا العجلةُ اليسرى قد اخترمها

(1) أي قوي الأعصاب.

(2) نجوت وما كدت تنجو هكذا شرحها لنا الشيخ محمد محمود الشنقيطي مضغ وهو من العرب للشيخ والقيصوم.

البريد حين صدمها في «منتراي سيرمير»، فقصفَ إصبعين من أصبعها وكادَ محورها يُفْلتُ المُحَوَّى[1] فقال الرجل: ابغْني نجارًا له خصِّيصاءُ بهذا العمل. فقال: إنه على خطوتين منّا، وكان النجار على عتبة داره، فجيء به، فجعل ينظر إلى العجلة وقد انقبضت أسارير وجهه كأنه مُطَبّبٌ ينظر إلى ساق مُهَشَّمة، فقال الرجل: أتعالج إصلاحها في الحال؟ قال: نعم - قال: ومتى أسافر؟ قال: غدًا، فأجاب الرجل غدًا وقد ملكه الدَّهَش، فقال النجار: إنَّ إصلاحَها يستوفي عمْرَ النهار كلِّه، فهل أنتَ منْ أمركَ على عجل؟ قال: أحْوَجَني الساعة إلى السفر. قال: وَدِدْتُ لو تَهيأ لك ذلك. قال: أصلحها ولك حكمك[2]. قال: ليتني أستطيع ذلك فأفوزَ بوعدك، قال: إني مسوق إلى السفر فإذا أعياك إصلاحها فابغني غيرها، ثم قال: أهنا مركبة للكراء، قال: عندي مركبة يَقبضني عن إكرائها ما أَراه بعجلتك من العطب، ويلوح لي أنك غير حريص على مال غيرك. قال: بعْنيها. قال: أمَّا البيع فلا. قال: إنّي نَديُّ الكفِّ وإن اشتَطَّ البائع. قال: تحت يدي عَجلة لأحد الفلاحين يستخدمها في السادس[3] والثلاثين من كل شهر فإن شئت اكتريتَها على شريطة ألا يراك ربُّها وأنت منطلق بها، ولكنها عجلة عاتية لا يستقل بها جواد واحد، ومَنْ لك السَّاعَة برأسين من الجياد؟ قال: من مرابط خيل البريد. قال الرجل: وما وجهك[4]؟ قال: مدينة «آراس» قال: أوَحَتْمٌ منْ الحَتمْ أن تبلغها اليوم؟ قال: نعم. قال: ألا يستوي عندك أن تبلغها في فجر هذه الليلة؟ قالَ: لا، قال: هل تحمل جوازًا للسفر؟ قال: نعم. قال: إنك إذا تهيأ لكَ أن تحصلَ على جوَادينْ من مرابط خيل البريد فما أنت ببالغ «آراس» قبل الغد، فإن خيول البريد في هذه المراحل منثورة في المزارع، ونحن في إبَّان الحرث وهم يجمعون له الخيل أنَّي أصابوها، فإذا لجأ سيدي إلى ذلك كان عليه أن يلبَثَ نصفَ يوم عند كل مرحلة، دع ما يَعْرضُ له من العقبات، قال: أُسَرِّحُ جوادي هذا من عجلتي وأمتطيه فابْغني سَرْجًا. قال: وَهل يصبر جوادُك على صحبة السرج؟ قال: لقد ذكَّرْتَ مني ناسيًا إنَه لا يصبر على صحبته. قال: هل من سبيل إلى جوَاد نبيل يبلغ بي «آراس» مِن غير تنفيس؟[5] قال: إنك لن تظفَر به، وهبكَ وجدتَه فإن رَبَّهُ[6] ليضن به ولو ملأت يديه ذهبًا.

فشاعَ السرور في نفسه، وقال: إن للعناية لَيدًا فيما أرى أوَليستْ هي التي أتلفت العجلةَ وقطعتْ عليَّ السبيلَ، وقد أنْذرَتْني فلَم يَلوني إنذارها عن القصد والتمست المخرج مما أنا فيه، فما ثناني بَرْدٌ ولاقَعَد بي نَصَبٌ ولا أرهقتني نفقةٌ فأصبحتُ وقد

---

(1) المحوى المسمار القلاووز. (2) أي ما تشاء من الأجر.

(3) مثل يضرب عندهم للمستحيل كقولنا عند قيام الساعة يريد أنه لا يستخدمها مطلقًا.

(4) الوجه القصد، الجهة السبيل.

(5) أي في مشوار واحد كما تقول العامة. (6) ربَّة، أي صاحبه.

عَذَاني اللَّوْمُ، فإذا استحال عليَّ المُضيّ في طريقي فتلك مشيئة القدر، ثم تنفَّس ملءَ رئتيْه تنفُّس الحُر الطليق، وخُيِّل إليه أن السهم الذي ضَلَّ نَصْلُهُ في فؤاده قد انتزعه منه نَازِعٌ، فوجدَ لذلك رَوْحًا لم يجده منذ رأى وجه «جافير». وقال: لقد علمَ الله أني صنعتُ ما يكادُ يخرج عن الطوْقِ فأخطأني التوفيقُ، فلا أملك من أمري بعد هذا كله إلا الرجوعَ على هذين النعلين.

ولو كان حديثه مع النّجار في خَلْوَة لما وصل إلى أذن حيّ، وللبث مكتومًا، ولكنه كَان على الطريق المعَبّد، ومنْ شأنِ مثله أن يَلْفتَ المارّ الذي يستهويه حُبُّ الاستطلاع فيقف ناشرًا أذنيه لتَسقُّط الخبر، فلا يكادُ المحدّثُ يمر في حديثه حتى يرى حوله حلْقةً من الناس، وما منهم إلا هو فارغ لذلك، وكذلك وقع «لجان فالجان»، فبينا هو يحاور النّجار وإذا بطائفة من السَّابلة قد التفَّت حوله، وكان بينهم غلام لا تكاد تأخذه العين قد تسلَّل من الجماعة، وطَفقَ يَعْدُو حتى اختفى، وما كادَ يَهُمّ «جان فالجان» بالرجوع حتى عاد الغلامُ يصطحبَ امرأة عجُوزًا.

قالت العجوز: إنَّ غلامي هذا نقل إليَّ أنَّك في حاجة إلى مركبة، وما كادت ترمي بتلك الكلمة حتى نَدِيَ بالعرق جبينه، وشعَر كأن اليد التي سرّحته منذ قريب توشك أن تقبض عليه من جديد، فلبث غير بعيد ثم أجابَ: نعم أيَّتها المرأة الصالحة فأنا في حاجة إلى مركَبَة أكتريها ولكنهم يزعمون أني أحاول المحال، قالت: لقد وَجَدْتَها. قال: أين؟ قالت: عندي، فاحتوته قُشَعْريرَةٌ وقال في نفسه: كان الذي خفْتُ أن يكون، وكانت مركبةً عتيقة من الخيزُرَان قد علاها الوَحَل وأكلها الصَّدأ وفعل فيها الجوُّ فعْلَهُ، ولم تكن بأحسنَ حالًا من مركبته المعطوبة. ولكنها لم تأبَ على ما فيها أن تُقلَّهُ إلى «آراس» فلم يجد عنها مَزْحَلًا، فاكترَاها على حكم ربَّتها وشدَّ إليها جوادَهُ وانطلقَ في سبيله، وبينا كانتَ العجلةُ تجري به كان يجري في نفسه حديث غريب، لقد أحْسَسْتُ منذ هُنَيْهَة سرورًا بعثَتْهُ تلك الحوائل التي قامت بيني وبين المضي في طريقي وأرى الساعةَ أنه سرور كاذب، الويل لي، أيسرني الإحجامُ عن مقصد أنا الذي وَجَّهَ نفسه إليه مختارًا، والقعود عن سفر أنا الذي حمل نفسه عليه مسوقًا بإرادته. ولم يكدْ يمضي في طريقه حتى سمعَ صوتًا يُهيبُ به أن قفْ، فأوقفَ العربَة ارتجالًا، وقد عَرَتْهُ هزَّةُ المحموم المختلج، ولعلهَا إحدَى هزَّات الأمل، وإذا بغلام العجوز يناديه. أنا ذَلك الذي هيأ لك الحَصولَ على العجلة، قال: وما تريد؟ قال: أجري على ذلك. قال وقد فارقَتْهُ تلك الأريحية التي طالما كانت تهزه إلى إسداء الجميل: أعْزُبْ ولا كرامة، ثم ساطَ الجوادَ فانطلقَ يعدُو وأراد أن يعوّض ما أضاعَهُ من الزمنِ في «هيدسان»، فحط على جوادِه بالسوط فلقى عناءً من الجر وكانَ قد

خرج به غب[1] سماء فكابدَ من الوحل وثقل المركبة ما كَاد يأتي على قواه، فلم يطو غير خمسة فراسخ في مدى ساعات أربع حتى بلغَ «سانت بول»، وهناك نفَّس عنه في نُزُلهَا وقاده إلى الاسطبل ووقفَ يعلفه. وأقبلتْ ربَّة النزل فقالت: ألا يأكل سيدي؟ فقَال: ما أحوجني إلى الطعام، وتبعها وكانت امرأةً صبوحةَ الوجه فارهَة الجسم، وأقبلت خادم فهيأتَ له الخوانَ وهو يسارقها النظر، وقد وجد لها في نفسه محلًا. فأهوى إلى الخبز فمضغ منه لقمة واحدة وكفَّ يَدُه، وكان على المائدة التي بجواره سائق عجلة يأكل. فقال له: ما لهذا الخبز مُرًّا؟ وكان ألمانيًّا فلم يَفْقَهُ قوله ولم يُجبه، وانكفأ بعد ذلك إلى الاسطبل يراقب الجواد فلما فرغ من علفه شَدّه إلى العجلة وانطلق به إلى مدينة «تنك»، وكانت على خمسة فراسخ من «آراس».

فسارَ وقد غرقَ في هواجسه، وجعل يتأملُ وجوه الشجر وسطوح الأكواخ ومناظر الخلاء التي كانت تلوح له كأنها قد وقعت في غشية أو سُبَات.

وإن لوجوه الأرض لتَسْلِيَةً تُرَفِّهُ عن النفس وتَصرفُها عن التفكير، ولكنه قد مرَّ بألف وجه منها وما زال كاسف البال وفاته قولهم: مَن سافر فقد تجدد، وما يدريك لعلّه كان يقارن في نفسه بين تقلب الأجواء وذلك الوجود البشريّ الذي لا يستقر فيه شيء على حال! فكل ما فيه قد جبلَ عَلى الفرار منا، ألم ترَ إلى الليل والنهار كيف يتعاقبان، وإلى الشروق والغروب كيف يتناوبان؟ والمرء يرى ما يمرّ به فيُسرع باسطًا يديه ليمسكه فيَفلتَه، وكل حادث ينتابنا إنما هو لَيَّةٌ في طريقنا لا تلبث أن تُسْلمنَا إلى الكبَر، وكلما أحسسنا تلك الهزات الخفيّة وقف بنا النظر علي باب الغد وما وراءه غير الغَامض من الغيب، دع جواد الحَياة الذي يستطردُ بنا زمانًا ثم يقف على غِرَّةٍ من راكبه، فيأتي من جوف الغيب من يُرَجِّلُهُ عنه ثم يُسَرِّحُهُ.

وطَلَعَ والشَّفَقُ على مدينة «تنك» في آن، وكان النهار قصيرًا فانطلقَ حتى إذا مَرَّ برصَّاف يَرصفُ الحجارةَ، قال الرصَّاف وهو ينظر إلى جواده: أرى جوادًا مكْدُودًا، ثم نظر إلى الرجل وقال: لعلك تريدُ «أرّاس» قال:نعم. قال: إنك لن تبلغها على هذا الجواد. قال: كم بيني وبينها؟ قال: سبعة فراسخ. قال: إن دليل البريد لا يقول بقولك. قال: إنهم يُصلحون الطريق على مقربة منا فلا يتسنّى لك المضيّ فيه، وما أخْلَقَك بالعروج على طريق آخر، فعليك أن تَتَيَاسَرَ ثم تركب طريقَ «جارنس» ثم تَعْبُرَ النهرَ هناك فإذا بلغت «كامبلان» فَتيامَنْ واركب المحَجَّة إلى «أراس».

قال: أخشى الضلالَ في هذا الليل البهيم[2]، قال: أَولَستَ من أهل هذا البلد؟ قال: إنّي غريبٌ. قال: عُدْ إلى «تنك» واقضِ الليلة في نُزُلها واستبدل بهذا الجواد

(1) أي عقب مطر.

(2) الليل البهيم: شديد الظلام.

الذي نزح التعبُ قواه جوادًا يُقلُّكَ إلى «أراس» قال: استحالَ غير السفر في هذه الليلة. قال: استأجرْ جوادًا ودليلًا، فعَمِلَ بمناصحته، وقفل[1] إلى «تنك»، وعادَ يعدو بجواد جديد يصحبهُ غلام من النزُل.

وغاب في أحشاء ليل قد كسرَ على الأرضِ جَنَاحَيْه، وكان الطريقُ وعْرًا، والعجلةَ تُجَلْجِل[2] فوقَ نُكَت[3] الأرض، وهو فوقها مُقَلْقَلُ الشخص يُهيبُ بالغلام إيه إيه، ولك ضعْفُ الأَجْر، فصاح الغلامُ لقد عُطِبَ العريش، فكيفَ نَمضي ونحنُ بينَ طريق وعْر ولَيْل خليق أن تصدّنا محارمُهُ[4] عنَ السُّرَى، فهل لك أن تعودَ إلى «تنك» وأنا الضمينُ أن تَبلغ «أراس» عند مُنْبَلَج الصباح. فقال: أمعك حبل وسكين؟ قال: نعم، فأهوى إلى شجرة فاقتضب منها فرعًا أقامهُ مقام العريش وانطلق في سبيله.

وكانَ الوادي في ظلام دامس والضبابُ «دان مُسِفّ[5] فُوَيْقَ الأرض هيْدَبُهُ» ينبعثُ من التلال كأنه كسَفٌ مِّن الدخَان، وقد شاعَ في سواد السحب بياض، وهبّت ريح البحر في جوانب الأفق فكان لهبوبها أشبهُ الأصوات بصوت الأثاث عَبَثَ به عابث.

فتمَخَّخَ البردُ عظامَهُ[6]، وكان طاويًا منذ العشيّة فذكّرَهُ القُرُّ والطَّوى تلْكَ الليلةَ التي قضاها منذ سنين ثمان في ضواحي مدينة «ديني»، وقد ذكرها كأنه يذكر أمْسَ الدابر. وسرَى إلى سمعه جَرْسُ ساعة على بُعْد، فقال للغلام: ما هذه الساعة؟ فقال: إنها الساعة السابعة، وسنبلغ «أراس» في الثَّامنة، فليس بيننا وبينها غير فراسخ ثلاثة.

ونزلت برأسه فكرةٌ لم يَسْبِقْ لها فيه النزول فقال: الويل لي، ما أضيَعَ ما جَشَّمْتُ[7] نفسي في يومي هذا من التعب أما كان الأخلق بي أن أعْلَم علْمَ تلك القضية وموعدَ النظر فيها، ثم قَدَّر في نفسه تقديرًا لذلك الموعد وقال: إنَ الجلسات لا تعقد قبل الضحى، والنظرُ في هذه القضية لا يفتقر إلى الكَثير من الزمن، إن هو إلا سؤال وجواب فشهادة أو شهادتان، فكلمة للمُدَافع، فحكم لا يتعدى التغريم، ولعَلّيّ أبلغ الجلسة قبل الفوات، كل ذلك والغلام يسُوط الجواد فعبر النهر وجاز مدينة «مونت سان ألواي» وقد سطت غياهب الظلام.

«وَلْنعُد بالقارئ إلى «فانتين» في الوقت الذي تجري فيه هذه الحوادث كانت

---

(1) قَفَلَ، رجع.
(2) أي تتحرك مضعضعة.
(3) الحفر الصغيرة التي تنشأ عن وقع العصا أو العقب.
(4) أي مخاوفة.
(5) مأخوذة من قول الشاعر، دان مسف فويق الأرض هيدبه. يكاد يدفعه من قام بالراح يصف سحابًا قريبًا من الأرض.
(6) دخل البرد إلى العظم من شدته.
(7) جشمت نفسي، حَمَلْتُها.

«فانتين» رضيّةَ البال، وكانت قد طوت ليلة مذكورة، كابدت فيها من الحمى ومزعجات الأحلام ما يَهُدُّ الحيْلَ. ولما أصبحت كانت لا تزال تَهذي، وعادها الطبيب فوجدها في فَوْرَةٍ من النفس فطلبتْ إليه أن يُنذرها عند قدوم «مادلين».

ولبثت في تلك الضحوة كاسفة البال لا تكاد تفتح فاها[1]، وجعلت تلهو بطيّ غطائها طيات مقدرة، وتحرّك شفتيها كأنها تَذْرَعُ[2] بفكرها مسافةً من المسافات، وقد غارت عيناها، وجَمَد بصرُها، وانطفأ ضياؤه أو كاد، وكانت تفتح بين الفَيْنَة والفينة عينيها عن مثل لمعة الكوكب، ولا عجب فإذا دنت ساعة الشدة فإن مَددًا من السماء يملأ نفوس أولئك الذين فقدوا مدد الأرض.

وكلما سألتْها الراهبة كيف أنتِ؟ قالت: أحمدُ الله ولا أطلب إلا رؤية «مادلين».

منذ بضعة أشهر وفي ذلك الحين الذي ابتذلَتْ فيه «فانتين» خدْرَها فتمزقت عفتُها، وغاض حياؤها، كنتَ ترى «فانتين» وكأنها ظلّ «لفانتين»، أمّا اليومَ وقد فني جسمُها فقد كنت ترى «فانتين» وكأنها طيف «لفانتين» «والظل للجسم والطيف للروح»، ولقد كان لتشويه خَلْقها أثر في تشويه خُلُقها، فانظر إلى تلك المرئيَّة التي لم تشهد غير خمسة وعشرين ربيعًا، كيف هبط أكثر لحمها فتجعّدَ جبينها ورَهَلَ[3] خدّها، وشحَبَ لونها[4]، وبرز مَنْكباها، وتجرّدت عظام نحرها[5]، وانبرت أعضاؤها، وأصبح جلدها وكأنما طَلَاهُ بالطين طالٍ، ونبت شعرها الأشقر وقد نصل لونه وجالت فيه طلائع المشيب، فأفٍ من المرض فإنه يرتجل الشيخوخة وإنه لأنجبُ مطايا الكبَر.

وعند الظُّهر عادَها الطبيب فسأل عن «مادلين»، ولما علم بغيابه حرّك رأسه حركةً أعربت عن الأسف.

وكان «مادلين» يأتي في عصر كل يوم وما تخلّفَ مرّة عن ذلك الموعد، والوفاء من شمائل الطيبة، وقد كان الرجل طيِّبًا.

وعاودتها عند العصر فورةُ النفس، فسألت عن ساعة زمانها عشر مرات في مدى عشرين دقيقة، ثم استوت فجأةً في سريرها، تلك التي كانت لا تنبعث لها جارحة من المرض والهُزَال.

ثم شبّكت ذراعين قد أنحلهما السَّقَمُ وأرسلت من صدرها تنهدًا خُيِّل معه إلى الراهبة أنها رفعت به عن صدرها ثِقلًا ،ورمت الباب بنظرة من يرقب قدوم إنسان،

---

(1) فاها: فمها.

(2) تقيس بالذراع.

(3) أي استرخى اللحم.

(4) شحب: تغير إلى الأسوء.

(5) النحر: أعلى الصدر والمراد الرقبة.

ولكنّ الباب لم يَزُرها بأحد، فلبثت برهة وهي تنظر إليه، وكأنها معلّقةُ الأنفاس والراهبة لا تَجْرؤ على سؤالها، ثم ألقت برأسها على الوسادة، ومرت الساعة تِلْوَ الساعة ولم يزرها زائر.

وما رآها على تلك الحال راءٍ إلّا علم بما يجول في فكرها ولكنها صابرتْ آلامها فلم تَشْكُ ولم تتوجّع.

وسمعتها الراهبة قُبيل الغروب وهي تقول بصوت خافت: إنني هَامَةُ اليوم أو الغد فما كان أخلقه اليوم بزورة الوَدَاع، ثم طَفقَتْ تغنّي، وكأنَّ صوتها نفحة منَ نفحات النسيم، أغنيةً عتيقةً تدعى بأغنيةَ الأرْجُوحَة، كانت تَتَنغَّمُ بها «فانتين» لإنعاس طفلتها في عهدها الأول، وقد كان صوتُها يقطرُ حزنًا وإيقاعها مشجيًا لا يملك السامع معه الدموع من أن تسيل، فبكت حتى تلك الراهبةُ التي درَجَتْ على الزهد والتّقَشف.



ولما أعتمت[1] علت وجهها آيات الذهول، وأرسلت الراهبةُ صَبيةً تسأل عن «مادلين»، فعادت على الأثر وأسرّت لها أن «مادلين» قد سافر وحيدًا في فجر هذا اليوم ولا يدري خَلْقٌ بالوجه الذي يريده.

وقد رآه قوم على طريق «أراس»، وزعم قوم أنه قد ركب طريق «باريس»، وكان هو هو، لم يلمحوا على ظاهره ما ينمّ على باطنه، وبينا هما يتسارّان على مقربة من سريرها وقد استدبرتاه وإذا «بفانتين» وكأنَّ نافضًا من الحمَّى تمازجه حركةُ المُعَافَى في بدنه قد حرّكها في سريرها.

فهبّتْ رغم ذلك الهزال المروع هزال الموت وجثت على ركبتيها، واعتمدت على الوسادة بمرْفَقَيْهَا، وأرْهَفَتْ للسمع أذنيها وفرّجت برأسها ما بين سجْفَيْ كلَّتها[2]، وصاحت بهما: إنكما تخوضَان في حديث وإن «لمدلين» فيه لشانًا، ونادتهما بصوت تخالطها البَحَّة والخشونة كان من أثره في نفسيهما أنْ ظنَّتا أن المتكلم رجل من الرجال، فالتفتتا مذعورتين فقالت لهما: ما لكما لا تنطقان؟ فقالت الصبية بصوت خافت: إن البوَّابة تقول إنه لا يعود الليلة، وقالت الراهبة على أثرها: اهدئي أنت ونامي، فاجابتهما بصوت فيه رنة من الجلال ونبرةٌ من الأسَى، إنه لا يعود، أراكما تتسارّان في شيء تحاولان كتمانه عني، ولابدَّ لي من الوقوف عليه، فألقت الصبيةُ في أذن الراهبة كلمات فاحمرَّ وجه الراهبة وهالها أن تكذب، ثم ترددت بعضَ الشيء، وقالت في نفسها: إنْ أنا صدَقْتُها في مثل هذا الموطن فقد قتلتها، وإن أنا كَذَبْتُها فقد قتلتُ كرامتي، ثم لبثتْ غيرَ بعيد. وقالت «لفانتين» بصوت المتمكن من نفسه: إنَّ «مادلين» قد سافر منذ اليوم.

فاستوت المريضةُ في سريرها وسَرتْ بنفسها عبقة من السرور، ومرّت بعينها خطفة من بارقة الأمل وصاحت، إنه سافر ليرى «كوزيت» ثم ضَمَّتْ يديها واستقبلت السماء بوجهها وأخذت تصلي، ولما فرغت من صلاتها قالت للراهبة: الآن حلَا لي النومُ إمضاءً لأمركِ فلا تُنْزلي أمري على الجُرأة عليك إذا رفعتُ صوتي في الحديث، فما فاتني أن ذلكَ كان خروجًا عن أفق الأدبَ، وإنما استخفني السرور، ثم أخذت مَضْجَعَها بَعْدَ أن لثمتْ صليبها وقالت لها الراهبة: اهْدئي ونامي، فضمت يديها الناديتين على يدي الراهبة التي هالها وَفْرُ العرَقِ الناضح من جسم المريضة.

وأنشأت «فانتين» تقول: سافرَ إلى باريس، وما كان أغناه عن ذلك و«مونت فورمي» على يسار ذلك الطريق فلعلّه يتحرّى مفاجأتي بذلك النبإ السارّ، فقد قال لي بالأمس حين جرَّ الحديث إلى ذكر «كوزيت» وقد وُفُّوا أجورهم، فحبَسُها عني افتياتٌ على أولى

---

(1) المراد به: وقت العتمة وهو المساء. (2) الناموسية.

الأمر، فلا تُومئي إليَّ بالسكوت، فأنا الساعة في عافية لا عهد لي بمثلها وسعادة لا حدَّ لها، أوَلَسْتُ خليقة بعد أعوام خمسة أن أرى وجه طفلتي ولا أحسبها وقد بلغت السابعة إلا صبيةً حسناء، ولقد صَبَرْت عَلَى بعدها طوالَ السنين، وللصبر حَدٌّ، ولو أنَّ لي عُمْرَ الأبد لهانَ ذلك البعاد!

فما أطيَبَ عُنْصُرَ ذلك الرجل الذي غامر بنفسه في ذلك البرد القارس لإنقاذ طفلتي ولعلّه يعود في الغد من «مونت فورمي»، وهي بلدة قد قطعْتُ طريقَها على قدمي منذ عهد طويل فكان بعيد الشقة عليَّ وإن كان يَسيرًا على العَجْلَان، فيا تُرَى كم بيننا وبينها؟ فأجابت الراهبة التي لا علم لها بتلك الشقة: إنه سيعود بإذن الله في الغد، فقالت: سأرى بُنيَّتي في الغد إنّ الأمل بلقائها قد ألبسني ثوب العافية، فلستُ مريضةً كما تزعمون، ولكني مفتونة، فلو أني دُعيت الساعة إلى الرقص لأبْدَعْتُ فيه، وكانت في هذه الآونة ورديَّة اللون قد ابتسمت قسماتُ وجهها فكنتَ ترى ذلك الوجه وكأنه قد جمّع من البَسَمات، وما أشْبَهَ سُرورُ الأمهات بسرور الأطفال!

ثم ألقتْ برأسها علَى الوسادة وجعلت تدورُ بعينيها في أرجاء الحجرة، وقد بدَت عليها سيما الارتياح، فأطبَقت الراهبة الستائر على كلّتها[1] رجاء أن يأخذها النّعاس، وعاد عند العتمة الطبيب، فلم يُحسَّ حركةً في المكانَ فعزَا ذلك إلى نوم المريضة فخافَتَ[2] من مشيته ودنا من سريرها وأزاح الستار، فرأى على ضوء الساهرة[3] وجهًا هادئًا وعينين لم يُرَنِّقْهُمَا النوم فابتَدَرَتَه قائلة: إنهم سَينيمونَها هنا بجانبي على سرير صغير، فعجبَ الطبيبُ من أمرها، وظنها تَهْذي، فانتحى بالراهبة ناحية، فنفضت إليه جملة الأمر، ثم عاد إلى سرير المَريضة. فقالت: إذا تيقظتْ بُنَيَّتي ألقيتُ عليها تحيّة الصباح، وإذا نامتْ صنع بي تنفسُها الهادئُ مالا يصنعه الدواء، فأتَّجهُ إلى العافية، فقال لها الطبيب: يَدَك فمدتْ يدها وهي تبتسم وتقول: ألا ترى أني نجوت؟ فدُهش الطبيب حين جسَّ نبضها ورأى الحياة تجري فيها جريانًا! فقال: إنه من صنعَ السرور الذي أدخله على نفسها الأملُ بلقاء بنيَّتها، ثم أوصى بالسكوت، وأمر بدواء يُلَطِّفُ من حدّة الحمّى إذا هي عاودتها في ليلها وقال للراهبة عند انصرافه: إذا أسعدها الطالع برجوع «مادلين» في الغد فقد نجت.

وكم من سرور مسح من مرض، وإنه لسرٌ من الأسرار التي سيكشفها العلم في مقتبل الزمان.

---

(1) جسدها وحجرتها. (2) أي مشى على أطراف أصابعه.

(3) الساهرة وجمعها سواهر كلمة قد وضعناها مكان القرابة عند العامة.

ولما كانت العتمة، وقف المسافر الذي تعقبناه على باب النزل «بآراس»، وسرَّح الجواد الذي استأجره، وقاد بنفسه الجواد الأبيض الصغير إلى الإصْطَبْل، ثم عاد إلى النزلُ وجلس في إحدى قاعاته وارْتَفَقَ[1] على منْضَدَة، وكان قد استوفى عمْر يوم وليلة في سفر كان يُقَدّرُ له نصْف يوم، وما كان ذلك من صنعه ولكنه صنع القَدرَ.

ولو أنك قرأتَ ما في نفسه لتجلتْ لك فيها آياتُ الرضى، ودخلتْ عليه في هذه الأثناء ربَّةُ النُزل وقالت: أيرغب سيدي في العشاء والنوم؟ فأومأ لها برأسه إيماءة الرفض، ودخل على أثرها غلام الإصْطَبْل وقال: إن جوادك مكدود[2]، فابتدره قائلًا أوليس في طَوْقه[3] السفر غدا، قال إنه لا يستطيع الحركة قبل يومين، قال: أينَ مكتبُ البريد فَقيدَ إليه، فأخرج جواز السفر، وطلب العودة إلى «مونتراي سيرمير» في نفس البريد الذي قدم معه، وكان المقعد المجاور لمقعد السائق لا يزال خاليًا، فأجيبَ إلى طلبه ودفع النفقة وأُنذرَ بالسفرِ قبيل السَّحَر.

ثم غادر النُزل، وجعلَ يمشي في المدينة، ويتنقل في طرقاتها على غير هدى، وكَبُر عليه أن يسألَ المارَّة، فعبر النهر وخلَصَ إلى زقاق ضيِّق، فضلَّ السبيلَ، ومرَّ به فلَّاح يحمل فانوسًا[4] فبدا له أن يسأل عن الطريق، ثم نظر إلى الخلف والأمام كراهة أن يسمعه إنسان، ولما أمن ذلك سأله أين دار المحكمة؟ وكان الرجل من ذوي الأسنان[5]، فقال لهُ: يلوح لي أنك غريب، فاتَّبعني فإن طريقي عليها،

(1) اعتمد بمرفقه. (2) مكدود، أخذه الكد، وهو التعب.
(3) طاقته وقدرته.
(4) الفانوس في الأصل النمام وقد استعمل للشمع لأنه ينم عليه. (5) كبير السن.

فانطلقا حتى إذا كانا على كثب من الغرض أنشأ الفلاح يحدّثه: إن كنت ربَّ قضيَّة فقد جئت بعد الفوت، على أني لا أزال أرى ضَوءًا بنوافذ قاعة الجلسة ولعلها لم ترفع، فإن كُنت شاهدًا فقد جئت في الوقت. قال: إنما جئتُ لاستشارة مُحام فقال الفلاح: هاك البابَ فإذا دخلت فارْقَ الدّرجَ.

فمضى الرجلُ على إرشاد صاحبه فإذا هو في قاعة فسيحة قد غَصَّتْ بالناس، وطائف من المحامين هَنًّا وثَمَّ يتهامسون. وإن رؤيتهم وهم في ملابسهم السود لممَّا تنقبض لها النفس، فَقَلَّ أن تخرج كلمةٌ من أفواههم يستروح منها السامع روائح الرفق أو يجدُ ريح البرّ فلا يكاد يسمع إلا نعيبًا يؤذن بحلول العقاب.

فإذا مررت بهم حَسبْتَ أنك أمام خَليَّة دُونها خلايا النحل - خَليَّة تَطنُّ فيها العقول طنينًا حتى ليُؤَتَّى لك، وقد أخذتك الوحشة أنك في معبد مظلم تَعْمُرُه الأرواح. وكانت القاعةُ على ترامي أطرافها لا يُضيئُها إلا سراج واحد، فمشى الرجل فيها وقد شدّ منه ذلك الظلام الذي عَجَز عن تبديده السراجُ، فلم يستحي أن يسأل أوَّل محام لَقيَهُ فيمَ القوم؟. قال: قُضيَ الأمرُ، فارتاع، وقال: قُضيَ الأمر، نطقها بمرارة لفتتْ إليه المحامي. فقال: ألَعَلَّكَ قرابةٌ[1] له؟ قال: لا شأنَ لي ولا قرابة. فهل حُكم بالإدانة؟ قال: استحال غير ذلك. قال: أتراه سجن الأبد؟ قال: نعم. قال: بصوت لا يكادُ يُسْمَعُ لقد عُرفَت إذًا شخصيَّتُهُ. قال: أيَّةُ شخصية؟ لقد كان الأمرُ جليًا، امرأةٌ قتلتْ ولدها فحَقَّ عليها العقاب قال: أعَن امرأة تتكلم؟ قال: نعم. قال: ما لهم وقد فَرَغُوا من أمرها لا يزالون في مقاعدهم. قال: إنهم ينظرون منذ ساعتين في شأن آخر، قال: وما عسى أن يكون؟ قال: مجرمٌ عائدٌ من أرباب السوالف وأضياف السجون، لا يَحْضُرُني اسمُهُ قد أخذوه بسرقة جديدة، ولعلهم لا يتلوَّمونَ في الحكم عليه، فسحنتهُ سَحْنَةُ الفاتك، ولو كنت قاضيًا لكفتني النظرةُ إليه مؤونةَ التحقيق في أمره، قال: ألا يتسنى لي الدخولُ؟ قال: إن القاعة مكتظّة بالناس، وقد رُفعَتْ الجلسة فإذا عادوا إلى النظر فربما تهيأ لك الدخول في غمار الناس، قال: ومنَ أين أخْلُصُ إليها؟ قال: من ذلك الباب الكبير. ثم غادره المحامي وهو على غير استواء، وكأنَّ إبرًا من الثلج ونصَالًا من النار قد اعتورتْ فؤادَه وخزًا وطعنًا ولم يدر أكان مَأتَاها الألَمُ أم السرورَ، وجعل يقتربُ من الناس وهم قنابلَ[2] قنابل يتحدثون، فسمعهم يقولون: إنَّ هذا الرجل قد سرقَ تفاحًا، فهو وإن لم تثبت عليه السرقةُ فقد ثبت أنه من المجرمين العائدين، وقد انقضى استجوابه، وشهدت الشهود، ولم يبق إلا دفعُ المحامي وردُّ النائب، وربما استوفى ذلك من الليل نصْفَ عمره، ولا نظنه يُفلتُ من

(1) أي قريب. (2) جماعات جماعات.

العقاب، فالمدعي فتى ذكيُ الفؤاد أديبٌ ينظم الشعر ويعرف كيف يُوفي الاتهام حقَّهُ، فدنا من الباب فوجد عنده حاجبًا فسأله: متى يُفتح؟ فقال: لا يفتح، قال: كيف والجلسة على وشك الانعقاد بعد رفعها. قال: قد عُقدَتْ الجلسةُ والقاعة قد ضاقت بمن فيها، قال: ألاَ أجدُ فيها مكانًا أصُفُّ فيه قَدَمَيَّ؟ قال: لا، ثم عطفَ قائلًا: إن خلْفَ الرئيس مكانًا أوَ مكانين لا يُؤْذَنُ بحلولهما لغير الخاصة، ثم ولاه ظهره، فنكس الرجل رأسه، ومشى مشيَّةَ الحائرِ، وهبط بعض الدرج وهو من نفسه في حرب عَوَان، ثم أخرج من جيبه بَيْضَاء[1] خَطَّ فيها، مادلين شيخ «مونتراي سيرمير»، ثم صَعِدَ الدَّرَجَ وشَقَّ الصفوف، وأتى الحاجبَ وقال له بصوت الآمر: احمل هذه إلى الرئيس. فأخذها الحاجبُ وألقى عليها نظرةً عَجْلى ومضى طائعًا.

منذ سِنين سبع و«مادلين» نابه الذكر، قد اقترنَ اسمه بالثناء، وملأتْ شهرتهُ جوانبَ الأفق، فجازَت حدودَ بلده إلى ما جاوره من البلدان فتعالَم[2] الناسُ فضله، وأخْصَبَ به الزَّمانُ والمكانُ، فنَمَتْ في عهده صناعة الْخَرَزِ الأَسْود، وكانت له يَدٌ على الصناعات، فمدَّ المصانع بالمال حتى حُسد بَلَدهُ عليه.

وكان رئيسُ الجلسة في «آراس» ممن يُعَظِّمُون «مادلين» ويُبجّلونه، فلم يكد يحمل الحاجب إليه رقعته حتى أذنَ له، فعاد الحاجب فسلم وانحنى حتى كاد يمسُّ الأرضَ بجبهْته وحتى تبَيَّن «مادلينَ» إعظامَه في حماليق عينيه وقال له: ليدخُلْ سيِّدي غير مأمُورٍ، ومشى أمامه مشية العبد القِنّ[3].

ذلك الذي كان يُوليه ظهره غير مكترث له، ثم مدَّ له يده برقعة الرئيس، فتناولها واقترب من المصباح، وقرأ على ضوئه، إن رئيس المحكمة بآراس يُهْدِي تحيَّةً يمازجها الإجلال إلى الشيخ «مادلين».

ثم تبع الحاجب فلم يلبث أن رأى نفسه وحيدًا في قاعة المداولة وكانت قاعَةً لا تَسُرُّ النظر، يُضيئُها شمعتان قد نُصبتا على منْضَدَة أقيمت على بساط أخضر، وذكر قول الحاجب عند انصرافه: إنك يا سيدي في قاعة المجلس، فإذا أدرت ذلك الزرَّ النحاسيَّ الذي تراه بالباب وجدت نفسك في قاعة الجلسة خلف كرسيِّ الرئيس - فَفَعَلَت في نفسه تلك الكلماتُ فعْلَها، واختلطت بما كان يدور في رأسه من الذكريات المبهمة التي بعثها فيه، ما صادَفه في ذلك الممشى وما مرَّ به في تلك الدرج، وأوفت الساعةُ المرهوبة، فحاول أن يجمع أشتاتَ نفسه فلم يُغْنِ شيئًا،وتضعضع في ساعة هو أحوج ما يكون فيها إلى التماسك تلقاء تلك الحقيقة الأليمة، وكم قُطِعَ في مثلها

---

(1) أي ورقة بيضاء. (2) أي علم.

(3) العبد المطيع لسيده.

سلك التفكير، ومُلكتْ على المرء المذاهبُ، فقد كان في الموطن الذي يجلس فيه القضاةُ فيُدينُون ويبرئون، وجعل ينظر نظر الأبله إلى تلك القاعة الساكنة المُرَوّعة التي يُقْضَي فيها على أرواح العباد، وكان به وهو ينظر إليه أن اسمه سوف يُدَوّي في جوانبها وأن المقدور عليه سوف يُحَلّق في سمائها. وجعل يتنقل ببصره بين جدرانها وبين نفسه ويقول: تُرى ما هذه القاعة وتُرى من أنا؟ وكان قد طوى يومًا وليلة، وفعلت فيه رجَّاتُ المركبة فعلها، ولكنه لم يستشعر ألمًا ولم يُحِسّ جوعًا، ودنا من إطار أسود معلق على الجدار فيه رسالة عتيقة لا يعلوها زجاج، خَطّها «جان نيكولا» «باش عمدة باريس وأحد الوزراء» رَصَدَ فيها أسماء النواب والوزراء الذين اقْتضبُوا من دورهم اقتضابًا وسيقوا إلى السجن، ولو أن امرأ تفرس فيه لأدرك للوهلة الأولى أن الرسالة قد أخذت من نفسه محلًا، على أنه قد قرأها ثلاثًا ولم يملك الفهم، ولا عجب فقد كان يفكر في «فانتين» و«كوزيت». وانفتل وهو في تلك الغمرة فأخذ بصَرُه قبضَة الباب الذي يفصله عن قاعة الجلسة، فأدْمَنَ إليه نظرًا هادئًا، ثم بان فيه الخوف، ثم أطَلَّ من محاجره الفزعُ، ثم تلاه الجزع، فَنَدِيَ بالعرق جبينهُ، وأتى على أثَر ذلك بحركة يُخْطئها الوصف.



حركة يمازجها السلطان كأنها تناديه «ما الذي يحملك على كل هذا»، ثم انفتل ثانيًا فوقع نظره على الباب الذي دخل منه، فاندفع إليه ففتحه، ونجا من تلك القاعة إلى ممشى طويل، جمّ المُنْعَطَفَات، كثير الليّات به طائفة من النوافذ تقطعه دَرَجٌ للهبوط، تُضيئُهُ سُرُج ضئيلة النور كأنّها السواهر.

فتنفّس الصُّعَدَاء، وأصْغَى فإذا هو في سكون الرموس[1]، فانطلق يعدو كمن يطارده مطارد، حتى إذا غاب في أحشاء تلك المُنْعَرجات وقف يستمع للمرة الثانية فلم يُرَوِّعْهُ مُروّع، فجعل يُنفِّس عن نفسه كَرْبَ الْعَدْو، فأسند ظهره إلى الحائط فوجد مسّ البرد من حجارته فاعتدل مقفقفًا.

ولما وجدَ نفسه قائمًا وحيدًا في جوف هذا الظلام، نَهْبًا للبرد والهواجس جعل يفكّر، على أنه قد فكر فَخْمة الليل وسَـرَاةَ النهار، فلم يسمع غير صوتٍ واحد يناديه، وا أسفاه! ومرَّت به فترة وهو على تلك الحال، ثم أمال رأسه وأرسل ذراعيه وتأوَّه آهَةَ الرجل الحزين ورَجَعَ أدْرَاجَهُ، وجعل يمشي مشية المتثاقل كأنّ لاحقًا لحقَ به في فِرَاره فَصَدَّه عن قصده ورده إلى حيث كَان، فدخل القاعة التي بَرَحَها وأخذ نَظَرُهُ قبضةَ الباب الذي يفصله عن قاعة الجلسة وكانت من النحاس المصقول، فبدت له كأنها كوكب من كواكب النّحس، فجعل ينظر إليها نظرة الشاة إلى عين النَّمر، وأخذ يدانيها ثم اندفع وهو لا يدري إلى الباب وأهوى بيده إلى القبضة فأدار زرَّها فإذا بالباب وقد انفلق عنه، وإذا به في قاعة الجلسة فخطا خطوة، وأقفل خلفه الباب، ووقف يُنْعِمُ النظر فيما يرى.

وكانت قاعةً فسيحةً تربو ظلماتُها على نورها، يملأ جوانبها الضجيجُ وتارة يغمُرها السكونُ، قد طُرِحَتْ فيها قضيّة «جان» تَحُوطُها خُطُورةٌ تَشُوبها المسكَنَةُ ويتمشى في أثنائها انقباض في الصدور.

---

(1) جمع رمس، وهو القبر.

وفي الجانب الذي وقف فيه جلس قضاة لا تنم معارف وجوههم على شيء من الاكتراث، عليهم أردية بالية، وهم بين قارض لظُفُره ومُغْمِض لعينيه.

وفي الجانب الآخر لفيف من الناس في أخْلاق[1] الثياب وقد نُثِرَ بينهم محامون في شتى الأزياء ومخْتَلَفَ الأوضاع وعلى ضواحيهم أحراس تهب من أردانهم ريحُ القسوة ويعبقُ أرجُ الشرف، وكانوا تحت سقف قد كسته الأقدار وفوق أخشاب قد بلغ منها القِدَمُ، أمامهم مناضدُ تكسوها أجواخ صفراء كانت في ميعة صِباها خضراء، وحولهم أبوابٌ قد طلاها تداول الأيدي بطلاءٍ من القار، تُضيء لهم سرجٌ من سُرُجِ الْحَانات قد عُلّقَتْ في مساميرَ مرشوقة في الحائط تبعَثُ من الدُّخَان فوق ما ترسل من الأَضْوَاء. وقد نُصِبَ على كل منْضَدةٍ شمعدان من النحاس أقيمتْ فيه شمعةٌ. وقد كان الظلام المخيّمُ فوق ذلك المشهد المهيب يُولِدِ في نفس الناظر شعورين من وقارٍ وإكبار، شعورًا بعظمة المخلوق ومظهرهُ القانون، وشعورًا بعظمة الخالق ومَجْلاهُ العدلُ. وقف «مادلين» ولم تأخذه عَيْنٌ، فقد كانت العيون مُصَوَّبَةً إلى هدفٍ واحد، مقعدٍ من الخشب بجانب باب صغير في طول الحائط على يسار الرئيس قد جلس فيه رجل بين حارسين وشموع تَزْهَرُ، وكان هو الرجل!

رآه «مادلين» ولم يُجَشّمْ عينيه مؤونة البحث كأنه كان معه على ميعاد، وقد خُيّلَ إليه أنه يرى فيه نفسه ولكن في سنّ عالية، وما كان الشبه بينهما قاصرًا على السحْنَة ولكنّه كان في الموقف والمنظر وذلك الشعر القافّ وذلك النظر الشَّزْرِ الذي لا يفارقه القلق، وتلك الأهدام البالية التي كان يجول في أمثالها يوم دخل مدينة «دني» يحمل في نفسه ضَبًّا من الضّغْن[2]، ويُخفي فيها ذلك الكنزَ الذي اقتناه في أعوام سجنه.

ذلك الكنز الذي جمعه على بلاط السجن من وَحْيِ الشرّ، لا من يتيمات الدُّرّ.

---

(1) الثياب البالية.

(2) أي يحقد حقدًا شديدًا.

فارتعد وقال: اللهم غَفْرًا، أكَذَا تكونُ العُقْبَى؟ وكان ذلك الرجل قد بلغ الستين أو جازها يلوح عليه ضرب من البله على حواشيه جَفْوَة واسْتيحَاش.

ولما فتح «مادلين» البابَ صرَّ صريرًا نَبَّه القضاة ففسحوا له مكانًا ولفت الرئيسَ فحيّاه، وحيّاه على أثره المدعي العامّ، فلم يكد يلمح تلك التحايا لأنه وقع في ذهول قد افترس طَائِرَ حِلْمِه.

قضاةٌ وكتَّاب، وشُرَطٌ، وجمع مشرئِبّ الأعناق على ظمإٍ إلى الاستطلاع، إنه شهد هذا المشهد قبل اليوم بسبع وعشرين سنة وها هو ذا يشهده اليوم.

وما كان ما يراه من عمل الذاكرة أو صنع الخيال، ولكنّه من صنع الحقيقة، قُضَاةٌ وشُرَطٌ وجمع من الأحياء قد رُكّبُوا من لحم وعظم فهم يتحركونَ، وضَحَ ذلك لعينيه وبرزت له صور الماضي في أبشع ألوانها وأروعِ مظاهرها، وأشكل عليه الأمر فأغمض عينيه وصاح في أغوار نفسه: إنَّ هذا لن يكون!

ولعبت به الأقدار، وأرته من تهاويلها ما زاد في خبال عقله حتى كاد يُخالَطُ فيه، فرأى كأنَّ هناك رجلًا شُقَّ منه، وقد تواطأ الناس على أن ذلك الرجل لم يكن غير «جان فالجان».

ثم رأى، ويا هول ما رأى!

رأى شِبْهَ مَسْرَحٍ قد قام فيه شَبَحُهُ بتمثيل أبشعِ أطوار حياته.

وقد أُخِذَتْ لذلك التمثيل عُدَّتُه، فكان يرى نفس المشهد فِي نفس ساعة الليل التي حوكم فيها، وكأنَّ القضاة هم قضاتُه، وكأنَّ الأحراسَ هم الأحراسُ، والحضور هم الحضورُ إلا أنهم قد رفعوا فوق رأس الرئيس صورَ المسيح، ولم تكن تَزينُ قاعاتِ الجلسات في عهد محاكمته، فحوكم لشقْوته في يوم لم تشهده عينُ المسيح.

وسقط على كرسيّ كان خلفه سقوط الحجر فَزِعًا من أن تقع عليه العيون.

وأُغيث بشبهِ عمود من الأوراق المكدّسة فوق منِضَدة القضاء، فاستتر به فبلغ أمنيته، وجلسٍ يَرَى من حيث لا يُرَى، ثم جعل يتمكن من نفسه شيئًا فشيئًا حتى وضحت له الأمور على حقائقها وخرج من الذهول إلى الرشد.



وكان همه أن يرى «جافير»، فرَمَى بصَره بين الشهود فحالت منضدة الكاتب بينه وبين ما يريد، وأعانها ذلك الظلام الذي لم تُرَقِّق من حواشيه تلك السُّرُجُ.

وساعة دَخَل كان المحامي قد فرغ من دَفْعه، وَشَحَذَ الأسماعَ إلى الإصغاء، وقد مرَّت على مخاصمة المتهم ثلاثُ ساعات، والحضور يَرَوْنَ أمامهم رجلًا ينوء شيئًا فشيئًا بثقل ذلك الشَّبَهِ الغريب الذي أوشك أن يَحِلَّ في لباسه.

ولقد كان الرجل مجهولًا، كأن أحَدَ أولئك البائسين الذين تنتشرُ على وجوههم طبقات من البَلَه أو مِنْ تَصَنُّعِ البَلَه، فهو إما أن يكون من أشد الناس بَلَهًا أو مِنْ أوفاهم قسطًا في الذكاء. كان أُفُقيًّا[1] قد أخذوه بفرع من التفاح الناضج اقتضبه من شجرة في بستان «بيرون». فيا ترى من هو هذا الرجل؟

جرى التحقيقُ، وشهد الشهود، وتألَّقتْ فجاتٌ مِنَ النور في ظلماتِ ذلك الأُفق! أفق التحقيق.

وقال الاتهام: إننا لم نقع على سارق هيِّن الأمر يختلس الثمر أو أَحَد أبناءِ السبيل، ولكننا قد ظَفِرْنا بمجرم فارٌ، وقبضنا على شاطر عيّار[2] من قُطّاع السبيل، وفاتكٍ من شر الفُتّاك، ذلك «جان فالجان» الذي جَدَّ الشُّرْطَةُ في تعقّبه منذ عهد طويل.

ذلك الذي استوفى عُمْرَ العقاب في سجن تولون، وقَطَع يوم سُرِّح منه السبيلَ على غلام من سكان «سافواي» اسمه «بيتي فيرجي»، وقد دخلتْ جريمته تلك تحت طائلة المادة 383 من قانون العقوبات، وإنا لَنُرجِئُ أخذهُ بها حتى يثبت لنا شَخْصُهُ.

وقد ركب هذا الفاتكُ جريمةً جديدة فهو إذًا ممن تعوّدوا الإجرام، فخذُوه اليومَ بجريمته الجديدة!

(1) يضرب في الآفاق.
(2) الشاطر: اللص.

وكانت عواملُ الدهش تنتاب المتهمَ أمام هذه التُّهَمَةِ وذلك الإجماع من الشهود.

وتبدرُ منه بوادرُ من الحركات والإشارات تأويلُها النكرانُ، فهو وإن خانه النطق أو تَعَصَّى عليه الكلام فقد قام في جسمه من فَرْعِه إلى عَقِبِه خطيبٌ ينادي: إني مأخوذ بجريمة غيري، وآفتي في ذلك شَبَهٌ غيرُ ميمون.

وقد وقف وقفةَ الأبله بين صفوف من الذكاء كأنها جنود قد اصطفَّت للنزال، وقد قبضتْ عليه يد لا تُفلته، وأنشأ القضاةُ ينسجون له مستقبلًا من خيوط الوعيد.

وغَبَرَتْ تمشي إليه التُّهَمَة على جسرٍ من ذلك الشبَّهِ المشئوم، وكان قَلَقُ الجمهور عليه أشدَّ من قلقه على نفسه، فلبثوا يتوقعون الحكم بالإدانة، ويطالعون الموت من ثنايا ذلك الحكم.

فيا تُرَى من كان ذلك الرجل ومن أيّةِ طينة قد رُكّبت تلك البلاهة؟ أتنزلُ البلاهة بالناس إلى هذا الحد، أم كان ذلك من صنع المكر والخداع؟ أتُراه قد جاز حدود الذكاء أم نزل إلى أحطِّ مراتب البله؟

تلك أسئلةٌ قد شَطرَتْ الحضورَ شطرين[1]، وسرت عدوى ذلك إلى المحكمين، فقد كان من أمره ما يزعج وما يَشْغَلُ البالَ، وما كان العجب من سوء حاله، ولكنّه كان من غموضه. جَوَّدَ المحامي في الدفع، وتأنّق ما شاء في تخيّر اللفظ وكان يخطب بلغة الأقاليم، وهي لغة قد ألفتْها المحاماةُ زمنًا طويلًا تزعم أنها اللغة البليغة، وجرى المحامون عليها أجيالًا في باريس وفي ضَواحيها من المدائن، وقد آلت اليوم إلى لغة دراسية ولَعَ بها الخطباء من أرباب المناصب كرجال النيابة وأشباههم، رَاقَهُمْ منها لفظٌ يرنّ في الأُذن رنينًا يمازجه الجِدّ، وأُسْلوبٌ يمشي إلى السمع مِشية تصحبها الجلالة. فكانوا إذا ذكروا الزوج، قالوا البعل، والزوجة، قالوا الحليلة، والملك، قالوا: ربُّ التاج والصولجان.

وإذا ذكروا، باريس، قالوا: أُمُّ الفنون ومهدُ المدنية. فالمدعي العام في لغتهم- خطيب الاتهام المِصْقَع، والمرافعة - الصيحات التي تسمعها المحكمة، وعصر لويس الرابع عشر- العصر الكبير - والأسرة المالكة- دماء ملوكنا

---

(1) قسمت آراءهم قسمين، فالشطر، النصف.

الكريمة - والقائد - الجنديُّ العظيم - وخطأ الصحف السيَّارة- الكذب الذي تَنْفُث سَمَّهُ في أنهارها.

بدأ المحامي دفعه بتفسير سرقة التفاح، وصَعُبَ عليه أن يمرّ فيه بذلك الأسلوب الرائع، ولا عجب فقد وقع ذلك «لبوسيه» نفسه، فقد أُرْتِجَ عليه وهو يؤبِّنُ ميتًا عظيمًا، ففزِعَ إلى الاحتماء بوصف دَجَاجَةٍ سنَحَتْ له، وخرج من مأزِقه ذلك بين التهليل والإعجاب خروجَ الظافر.

أثبت المحامي أنه لم يقم دليلٌ محسوس على سرقة التفاح لأن المتهم لم تأخذه عينٌ وهو يظْهَرُ[1] الحائط، ويعالِجُ كَسْرَ الفرع، ولكنه فُوجئ وهو يلتقط ذلك الغُصَين «وقال الغصين تهوينًا للأمر»: واعترف بأنه وجده مطروحًا على الأرض فالتقطه، ولم تأتونا بما يَنْقُضَ ذلك، ولعلّ أحدَ السابلة قد مرَّ بذلك البستان فتسوَّر الحائط واقتضب ذلك الفرع ثم أَحَسَّ خطرًا فألقى به على الأرض ونجا بِحُشَاشَة نفسه.

لقد وقعت السرقةُ، ولكنّ المتهم لم يكن بصاحبها، إنكم قد أخذتموه بسابقة أمره لأنه ممن تعوّدوا الإجرام، «وفاتَهُ أنّ ذلك الأمر الذي سَلَّمَ به في عُرضِ دفاعه لم يبلغ في التحقيق مبلغ اليقين» فجاء ذلك التسليم ويلًا على المتهم، ثم مضى في دفعه وقال: إنه كان مقيمًا في «فافرول» يرتزق من تشذيب الشجر. وحقيقة اسمه «شان ماتييه» وأحسبهم قد حرفوه إلى «جان ماتييه». ثم مرّ بشهادة الشهود مَرًّا ولم يدفعها، وكان يتكئ في أقواله على إنكار المتهم حتى انتهى إلى قوله: فلو سلمنا أنه هو «جان فالجان» فهل يقوم هذا دليلًا على أنه سارق التفاح؟ إن هي إلا قرينة من القرائن، وما أبين ما بينها وبين الدليل القاطع.

لقد أساء المتهم إلى نفسه بذلك الإنكار المطرد فأنكر كل شيء - أنكر جرائمه وشخصيته وكلّ ما صُوِّب إليه في ماضيه وحاضره، ولو أنه اعترف بماضيه لاكتسب بذلك عَطْفَ القلوب.

نَصح إليه المحامي أن يُقْلِع عن ذلك الإنكار فأبى وأصرَّ، وظنَّ أنه يخرج من تَبِعة كلّ شيء إذا هو أنكر كلَّ شيء، ولا عجب فقد كان بليد الذهن، ومرَّ به من صنوف

(1) يعلو ويقفز فوقها.

البلاء في السجن وبعد السجن ما يبلّدُ الذهن السليم، على أن طريقته التي جرى عليها في الدفع عن نفسه لم تكن مُبرِّرةً للحكم عليه. وختم المحامي دَفْعه بالتضرع إلى المُحَكمين أن يُنْزِلوه منزلة الفارّ من السجن لا منزلة المجرم العائد.

وردّ المدَّعي العام على المحامي ردًّا رقَّ مبناه وخَشُنَ معناه، شأنَ أمثاله من المدَّعين، فأثنى على صدقه وأطرى منهجه، وعَرَفَ كيف ينتفع بذلك الصدق، وأخذ المتهمَ بنزول[1] محاميه عن التمسك بإنكار شخصيته، وسجّل عليه ذلك النزول، فأضاف إلى الاتهام حجة قد دعَّمَتْ من حُجَجِه وتدرج في قوله بلباقة حتى وقف على منبع الإجرام، وأنْحَى باللوم على تجرد المدرسة الروائية من روح الشرف، وكانت إذ ذاك في فجر ظهورها وقد دعاها النُقّادُ في الصحف بالمدرسة الجهنمية، وعَزَى- وهو على شيء من الحق- جَرِيمَةَ «جان ماتييه» أو «جان فالجان» إلى تأثير ذلك الأدب الخلَّاب الذي راع العقول.

وانتقل بعد أن قضى لُبَانَتَهُ ونضبت موارد القول إلى «جان فالجان» نفسه فأفاض في وصفه إفاضة كانت أشبه شيء بما جاء في قصة «تيرامين»، ولم يكن لذلك القول مكان في تلك المأساة ولكنّه أسلوب طالما لجأتْ إليه البلاغة القضائية.

وما زال يَقْرَعُ الأسماعَ بتلك القوارع حتى أدخل الرعب على نفوس القضاة والحضور، ومرَّ المدعي في ردّه بتلك الكلمات الخلابة التي استثارت في صباح المخاصمة حَمَاسَ الصحيفة الوحيدة التي كانت تظهر في سماء تلك المقاطعة.

وكان مما قال في «جان فالجان»: رَجُلٌ شأنه ذاك. طريد جوَّال، لا مرتزق له، تَعَوَّدَ الإجرام، ولم تُفْلِح السجونُ في تقويم اعوجاجه وتنقية نفسه، فلقد جنى يومَ خرج منها على الغلام «بيتي فيرجي».

وقُبِضَ عليه بعد ذلك متلبّسًا بالسرقة على قيد خطوات من الحائط الذي ظَهَرَهُ وفي يده ما سرق، فأنكر التلبُّسَ والتَّسوُّرَ والسِّرقَةَ وأنكر حتى شخصيَّته، وفي يدنا مائةُ دليلٍ ودليلٌ على ذلك ولا نريد سَرْدَهَا.

---

(1) يقال نزل عن حقه ولا يقال تنازل عن حقه فإن التنازل لا يكون إلا في ميدان القتال أي بين اثنين.

دع أربعة من الشهود على رأسهم «جافير» كبير الشرطة ولا تسألوا عن نزاهته، وثلاثةً من أخدانه في الإجرام، فكيف يدفع إجماعَهُم على معرفة شخصه، إنْ هو إلا رجلٌ جامدُ الشعور غليظُ الكبد.

وقد كان المدّعي يخطب والمتهم مُلْقٍ بسمعه وقد فَغَرَ الدهشُ فَاهُه ونال منه العجب مما يسمع- وكان يحرّك رأسه يمنةً ويسرة كلما اشتدت لهجةُ الاتهام في تلك المواطن التي تَعْجزُ فيها البلاغة عن إمساك سبيلها، فيترامى بموجات من سبّ وتحقير، كانت تَلُفُّ المُتهمَ لَفَّ العاصفةِ، وكان في حركات رأسه تلك، ضربٌ من احتجاج فصيحٍ في صمته، بليغ في حزنه.

وقد لفت المدعي القضاة إلى ذلك الموقف موقف البَلَه الذي أخذ المُتَّهَمُ نفسَه بتمثيله ليخدع القضاة ويستنزل الرحمة، فلم تَجُزْ حيلته علينا وكشف لنا عما كان يَخْبَؤُهُ في غور قلبه من خبث لا أمد له، وختم قوله بطلب الجزاء العادل.

ثم وقف المحامي وهنأ المدعي، وأطرى خطبَتَهُ التي جازت حدّ الإعجاب ثم ألقى بكليمات حَضَرَتْهُ وأخذ يتضعضع حتى فَقَدَ كُلَّ تُكَأَةٍ له، وحتى شعر كأنّ الأرض تميد تحته ميدَانًا.

وحانت ساعة انتهاء المخاصمة فأومأ الرئيس إلى المتهم بالوقوف، وسأله السؤال المألوف، أعندك ما تقول؟ فوقف وهو يلاعب قلنسوته بيديه وكأنه لم يسمع، فأعيد السؤال، وأظنّه سمع في هذه المرّة، فقد رُؤى فَهْمُه في عينيه وكان كمن استيقظ من سُبَات. فجعل ينفض عنه الكسلَ، ويدور بنظره يُحَدقُ في الحضور حتى وقفتْ عينه على المدعي العام فانفجر بالكلام انفجار البركان، وقد كان الكلام في فيه يكاد يقتتلُ اقتتالًا، يستبق الخروجَ بعضه البعض.

كنتُ عاملًا في صناعة النُّحاس في باريس لدَى السيد «بالو» وكان العمل شاقًا، يَعْمَلُ العاملُ طرفي النهار في هواء طَلْقٍ في أفنية البيوت، أو حُجَر مستطيلة سقوفها من الخشب، ولا يُتاحُ له أن يعمل مرة في مصنع مُقْفَلَ لَا يأْذَنُ للهواء.

فإذا كان الشتاء، ووجد العامل منًا مَسَّ البرد وتخوّف على أعضائه اليَبَسَ، نزع إلى تحريكها فترة من الزمن التماسًا للدفء، فيُحْفِظُ[1] هذا أصحابَ المصنع علينا ويقولون إنه وقت ضائع. وما ظنُّكَ بعامل يَصْهرُ الحديدَ وهو على أرض من الثلج، إنْ هذا إلّا فناء عاجل، فترى العامل وقد أَخْلَقَ كما يُخْلِقُ الثوبُ، ولبس في صباه لباس الهَرَم.

ولا يكاد يدرك الأربعين حتى تدركه السّنّ فتُنْزَفُ قُوَاهُ ويُرْغَبُ عنه ويَمْسِي سُخْرِيةً لشرار العمال، فَيَنْبِزُونَهُ بأقبح الألقاب، فكانوا يدعونني وقد طويت الثالثة والخمسين بالشيخ الأبله والعجوز والعاجز.

وكانت وظيفتي في يومي ثلاثين صلديًا، وما حَطّ من أجري في دعواهم غيرُ السنّ، وكانت لي ابنة تكدح هي الأخرى في طلب العيش فتعالج غسل ثياب الناس، فكان جَهْدُنا يَفيءُ علينا بعصارة تمسكُ الحياة.

تبذل يومها في الكدّ ما تتقي المطر بسقف يحجبها أو ثوب يسترها، جاثمة في مهابّ الأنواء، وكان عليها أن تغسل ولو جَمَدَ الماء.

فإن من الناس من لا يجد لباسًا غير جلده حين يخرج من ثوبه لغسله، فلا يزال قائمًا على يديها ينجزّها، فإذا أنس منها تريُّثا أو وجد تعللًا، عدل بالثوب إلى سواها.

فما فتئت المسكينة تطوي ساعاتها مُضطربة في المغاسل بين الحارّ والبارد - دع ما كانت تعاني من مضارّة زوجها لها، حتى أتى على نفسها الشقاء.

ثم أمسك عن الكلام وقد كَانَ يَهْدِرُ بصوتِ جهير أبَحّ أجَشّ، وكُنتَ تطالعُ في جفوةِ لفظه وثورةِ قوله، سلامة الضمير ونقاءَ الجنان.

وقد انتابه فُواقٌ[2] كان يحبس أنفاسه، فجعل يستعين على تأدية ما في نفسه بحركات كنتَ تخاله معها حَطّابًا يشقّ جِذعًا من الجذوع.

وما كاد ينتهي حتى أغرب الجمهور في الضحك، فلبث ينظر إليهم وهو يجهل

---

(1) يغضب.
(2) الزغطة.

مَثَار ذلك - وما نَشِبَ أنْ فعلَ شَرْوَاهم[1] وشاركهم في ضحكهم، فكان مشهدًا مؤثرًا تعلوه الكآبة.

فصاح الرئيس وكان يقظًا رحيمًا، فذكَّر المحكمين أن السيد «بالوا» الذي فَزَعَ المُتَّهَمُ إلى شهادته لا يُعْلَمَ له مقرٌّ منذ أفلس واختفى.

ثم التفت إلى المتهم وقال له: أعرني سمعك، واعلم أنك في موطن أنت فيه أحوجُ ما تكون إلى التفكير، فقد انصبَّتْ عليك الشبهات، وقامت حولك دلائل لا تَلْبَثُ أنْ تَجُرّك إلى سوء المصير، فأجب إجابة صريحة عن أمرين: هل ظَهَرْتَ حائطَ البستان؟ واقتضبت فرع التفاح؟؟ وهل أنت «جان فالجان»؟

فحرك رأسه حركة تُعْربُ عن فهم ما أُلْقِي عليه، واتجه إلى الرئيس وقال: أمّا عن الأمر الأول، ثم سكت وألْقَى بنظرة على قلنسوته، وأخرى على السقف، فحمِي المُدّعي العام وقال له:

ويلٌ لكَ ما لكَ لا تجيب على ما يُلْقَى عليك، إنَّ اضطرابك ليَدِينُك فلسْتَ بـ«جان ماتييه» كما تحاول أن تكون، وإنما أنت ذلك المجرم الفارّ «جان فالجان» فقد ذهبتَ إلى «إفرون» ووُلدتَ في «فافرول» وكنتَ بها مُشَذِّبًا للشجر، وظَهَرْتَ حائطَ بستان، واقتضبتَ منه فرعًا من التفاح، وللمحكمة تقرير مصيرك.

وكان المتهمُ قد أهوى على مقعده تخاذلًا، والمدعي يخطب حتى إذا انتهى من خطابه استوى قائمًا وصاح به:

مَا أخْبَثَكَ أيُّها الرجلُ! وهذا كلُّ ما أُريد أن أقوله لك، وقد كان يُعْوِزُني القول.

لستُ من السَّرَقَةِ، ولا أنا بذلك الرجل الذي يصيب ما يتبلّغ به في كل يوم.

إنني أتيت من «إلِيّ» فخرجت أضرب في البلاد غِبَّ سماءٍ، وقد كسا الغيثُ وجوهَ الأرض ببساط من الرمل الأصفر، هاجه إلحاح السّيل من بطون المناقعِ[2] وطَمَرَ به الزرع حتى ما تقعُ العين عَلَى غير أعواد دقيقة من الحشائش على عِطْفَيْ الطريق.

---

(1) أي مثلهم.
(2) المستنقعات.

وكنتُ التقطتُ من الأرض فرعًا مهشومًا به تفاح - الْتَقَطْتُهُ وما كنت أدري أنني أَلْتَقطُ الشقاءَ، وقد لبثت في السجن ثلاثة أشهر وأنا أُنْقَلُ من مكان إلى مكان وهذا مبلغ ما عندي من القول.

إنهم يرمونني بالتهم ويطلبون منّي دفعَها، ويدفعُني الحارسُ على طيبة فيه إلى الكلام، يُغْريني بذلك همسًا، وأنا لا أدري كيف أفْصح عما في نفسي. إنني لم أُصِبْ من العلم ولم يُثَقّفْني مُثقّف، فأنا فقير الإدراك ولكنّهم قد أغمضوا العيون عن ذلك فأخطأوا حقيقة أمري.

أُفّ لكم لقد ذهب بكم المكر إلى حد انقطع بمعرفة المكان الذي وُلدتُ فيه. علَى أنّي لا أزال أجهل مولدي.

وليس لكل من يَهْبِط إلى هذه الدنيا بيت يولد فيه، ولو تَهَيأ ذلك لَلانَ العيشُ وطابت الحياةُ، وأكبر ظني أنَّ والِديَّ قد كانا من أولئك الذين يعيشون في الطرقات والمسالك.

وَجُلُّ ما أذكره أنني كنت أدْعَي وأنا حَدَثٌ «بالصغير»، واليوم أدعى «بالشيخ»، ولا أعرف لي اسمًا غير هذين، فأوّلوا قولي ما بدا لكم أنْ تؤوّلوا.

ولا أكْذبُ الله فقد كنت في «الأفرون» وكنت في «فافرول»، وليس من الحتم أن من كان فيهما يكون من أهل السجون، لقد أعْنتُّموني بترّهاتكم فعلَام يتعقبني الناسُ كما يتعقّب الموتورُ واترِه.

فاتجه المدعي العام إلى الرئيس وقال: لقد أحكم المتهم تمثيلَ ما أخذ نفسَهُ به من التبلُّه، يحاول إيهامنا أنه أبله، ولكنّه يعالج المحال بذلك الإنكار، وأظن أن المحكمة لا ترى بأسًا في مواجهته بالشهود مرة أخرى، وسؤالهم على مسمع منه.

فقال الرئيس: إني أُذَكّر المدعي العامَّ أن «جافير» وهو كبير الشُرْطة قد دعاهُ عمَلٌ من أعماله في المقاطعة المجاوَرة فأذنَّا له بعد الشهادة، وكان ذلك بين سمع المدعي وبصره والمحامي عن المتهم شاهد غير غائب، وما ارتفع منهما صوت بالاعتراض.

فقال المدعي: لم يغب عني ذلك، ولكني أذكّرُ المحكمين أن «جافير» قد شهد

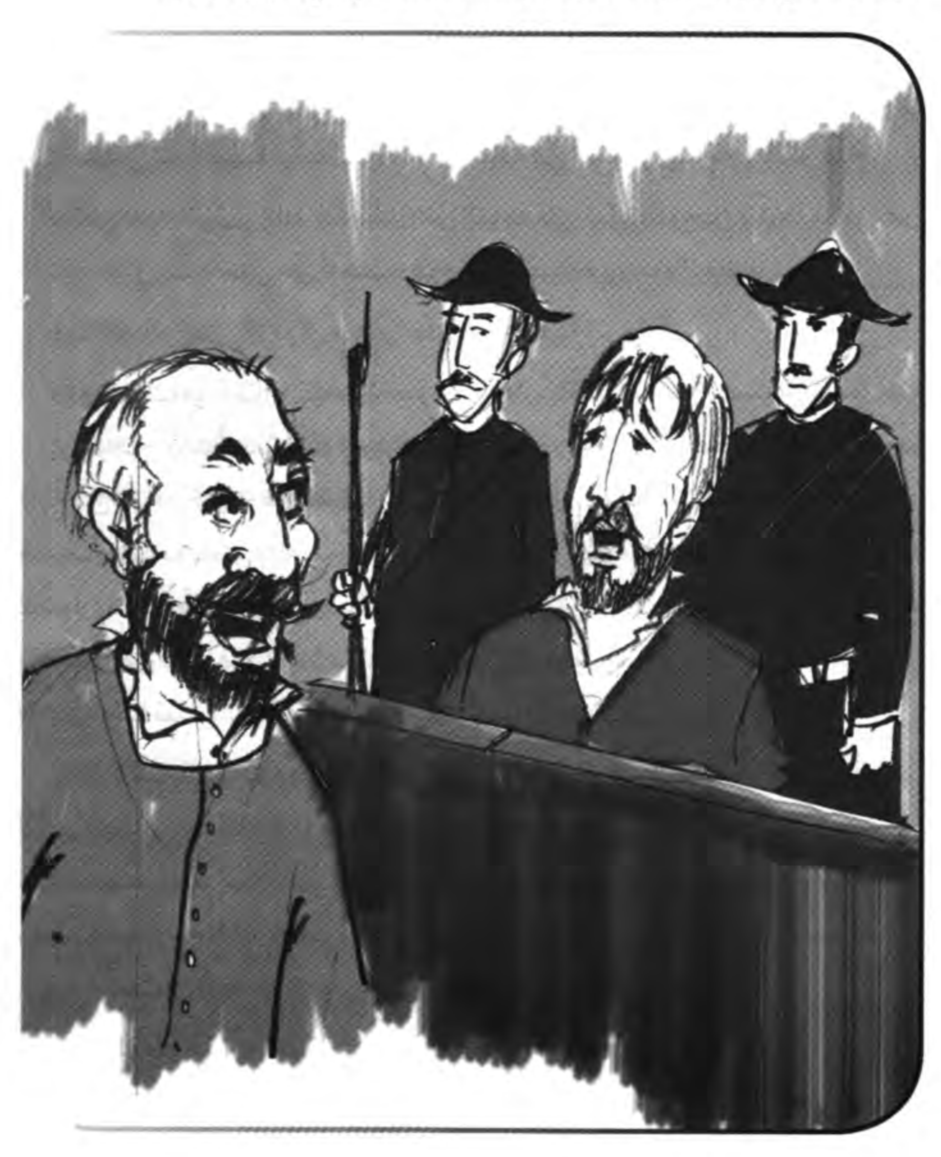
قبل ذهابه شهادةً لا يزال أثرها في النفوس و«جافير»، رجلٌ قد تَعالم الناسُ صدقَه ونزاهتَه، وإني لملْقٍ عليكم بما قال.

لست في حاجة إلى إقامة البراهين المحسوسة أو الإدلاء بالحجج الملموسة فإني أعرف هذا الرجل حق العرفان، فما هو «بجان ماتيه» كما يزعم، وإنما هو «جان فلجان» ذلك الفتَّاك العيَّار والمجرم الأثيم - سُرِّحَ من السجن بعد أن انطوى أَجَلُ عقابه، فخرج منه والعدل في أسف على خروجه. لقد قطع في السجن تسعة عشر عامًا عالج في مداها الهروبَ مرارًا، وسطا بعد ذلك على غلام صغير، ثم ظَهَر حائط بستان، وأكبرَ ظني أنه سرق آنيةَ ذلك العابد الكريم ليلة آواه في مدينة «دنيِ»، وأذكر أنني رأيته في سجن تولون أيامَ كنت أقوم بعمل الشُرْطَة هناك. فأنًا به أَعْرَفُ من أمه التي ولدته. وفعلتْ تلك الشهادة في نفوس الحضور فعلها، وألحَّ المدعي على أثرها بطلب الشهود، فألْقى الرئيس كلمةً على أحد الحجاب فانطلق يعدو، وما هو إلا أن غاب حتى فُتِحَ بابُ قاعةِ الشهود ورَمَى الحُضورَ برجلٍ بين رجلين، وإذا الحاجبُ ومعه حرسيّ من الأحراس يقودان «بريفيه» أحد الشهود الثلاثة، وكان من عُتَاة الأشرار، وقد كَرِهَ الحاجبُ أن يصحبه وحيدًا فاستظهر[1] عليه بأحد الأحراس، فدخلوا وقلوب الحضور تَخْفِقُ خفقة قلْبٍ واحد.

وكان «بريفيه» مجرمًا عريقًا قد جازَ الستين تلوح عليه سيما الأنذال، وتَردُ عليك منه سَحْنَةُ المتهالكين على ذات[2] اليد، وهما خَلَّتان قد تكون بينهما رَحِمٌ، وقد غَيَّر منه ما كابده في السجن من الأذى حتى قال الموكَّلُون به: إنه يُريغ[3] أن يكون رجلًا نافعًا، وأثنى المتصدقون على خلال تعبده ولكن يجب أن نذكر أن ما ظهر من الانقلاب في طباع هذا المجرم إنما وَقع في عهد العودة، عوْدة البربون. فقال له الرئيس: «بريفيه»: إنك رجل قد ركبتَ من المُنْديات ما سجّله عليك القضاء، فأصبحت غيْرَ أهلٍ للْحَلف غير أنك وإن جَرَّدَتْكَ من ذلك يَدُ العدلِ، فقد أبَتْ رحمةُ الله أن تُقْفِرَ نفسكُ من الشرف والإنصاف، فحَبتْها مزْقَةً منهما، فإنا أستحلفك بما بقي في نفسك من ذلك الحِباء إنْ كان له كما أرجو بَقيَّةٌ، وأُريدك عَلَى أن تتبصّر قبل الجواب في هذه الساعة الحاسمة، فكلمةٌ منك تَطيحُ بحياةِ هذا الرجل، وأخرى

(1) أي استعان.   (2) المادة.   (3) أي يحاول.

منك تُنيرُ لنا منهج العدل، ولا يَضِيرُكَ أن تخرُجَ من موقفك هذا، إذا بدا لك أنك لم تكن على الحق. ثم صاح بالمتهم أنْ قِفْ وقال «لبريفيه»: انظر إليه واجمع أَشْتَاتَ ذِكْرَيَاتِك وانْطِقْ بوحْي نفسك إذا كنت لا تزال مصرًّا على أن هذا الرجل لم يكن غير «جان فالجان» رفيقك في سجن تولون. فأجاب «بريفيه» وقد ألْقَى نظرة على الجمهور: إني أول من عرفه فهو «جان فالجان» رفيقي في سجن تولون.



دخل فيه سنة 1796 وخرج سنة 1815، وقد سُرِّحْتُ بعدهُ بعام واحد، وإني أراه يَتبَاله مُنْذُ اليوم، ولعلّ ذلك من فعل السنّ، ولقد كان في السجن ساهي الطرف كثير الإطراق. فأومأ الرئيس إليه بالجلوس ولَبثَ المتهم واقفًا.

وجيء بالشاهد الثاني «شنيل ديفيه» وكان لا يزال في لباس المجرمين وقد أُشْخِص من السجن للشهادة.

وكان قصيرًا خفيف الحركة، ضئيلًا، كثيرَ تجاعيدِ الجبهة، أصفر اللون، حادَّ الوجه، إذا رأيتَه رأيتَ شبْهَ محموم، نحيلَ الأعضاء، مضعوفَ الجسمِ قد رُكِّبَتْ في رأسه عينان تقرأ فيهما آياتِ القُوّة، وكان رفاقُه في السجن يلقبونه بـ«أنكرُ اللّه».

فألقى عليه الرئيس تلك الكلمات التي ألقاها على سابقه، وحين ذكّره بما كان من ماضيه الذي سلبه حتى حقّ الحلف رفع رأسه وحّدق في وجوه الحضور.

فقال له الرئيس: ألَا تزال مصرًا على معرفة هذا الرجل؟

فقهقه الشاهد وقال: كيف لا أعرف رجلًا سُلكْتُ معه في سلسلة واحدة بضع سنين. وجيء بالشاهد الثالث «كوش باي» وكان مجرمًا قد حكم عليه بسجن الأبد وهو فلّاح من «لورد»، كان يرعى القطعان في رؤوس الجبال، ثم حَال إلى قاطع سبيل، وكان في معارف وجهه ما ينطق بأنه يفوقُ المتهم بَلَهًا، وهو من أولئك الذين بُنِيَتْ طبيعتُهم بناءَة الضّواري، فنَبذَهُم المجتمعُ وقذف بهم في نحور السجون. فحرك منه الرئيس بكلمات قاسيةٍ وألقى عليه قولًا ثقيلًا ثم سأله السؤالَ المعهود. فأجابَ المتهمُ هذا هو «جان فلجانٍ» وكنا ندعوه لفرطه مُنَّته[1] «جان لجريك».

ففعلت تلك الشهادةُ فعلَها في الحضور، وزاد في أثرها ذلك الوُضُوحُ الذي ألْبَسَهَا لباسَ اليقين. فضاقت القاعةُ بأهلها، وسرتْ فيها همساتُ الأَسَفِ على المتهم، ثم جعلت تشتدّ وتمتدّ كلما ألقَيت شهادةٌ من تلك الشهادات. كل هذا والمتهم مُلْق بسمعه، وهو ساهِمُ الوجه سادرُ النظر، وكان مبلغ احتجاجه على ما يسمع أن كان يحرّك عند انتهاء الشهادة رأسه ويقول على مسمع من الحرس: شَيءٌ حسن.

فقال له الرئيس: ما قولك؟

---

(1) المنة القوة.

قال: شيء حسن!

فَعَلَا الضجيجُ في القاعةَ، وضجَّ حتى المحكّمون وقالوا: هلك والله الرجل.

فصاحَ الرئيس بالحاجب أنِ ادْعُ الناسَ إلى السكينة، وعلى أثر ذلك سرت حركة بقرب الرئيس، وارتفع صوت ينادي انظروا هنا أيّها الشهود. فملكَ السامعين الرَّوْعُ وهَالهُمْ ذلك الصوتُ الجهير الذي كان ينبعث من ذلك الحلْق الحزين. فالتفتوا إلى مَصْدَرِه فإذا بهم يرون رجلًا قد خرج من صفوف الخاصّة الجالسين خلف القضاة، ووثب إلى وسط القاعة، وما هو إلا أنْ تراءى حتى صاح الرئيس والمدعي العام، وصاح لصياحهما عشرون صوتًا: السيد «مادلين».

وما كان إلا هو وقد أضاء وَجْهَهُ المصباحُ المنصوبُ على مِنْضَدَةِ الكاتب، فوقف وقلنسوته في يده، وهو في لباس لم يتطرّق إليه العبث.

وكان أصفرَ اللون قد سرت به هِزّة وحالَ لونُ شعره، فقد دخل مدينة «آراس» وشعرُ رأسه أرمدُ[1] فلم يكدَ يطوي بها ساعة حتى صاح به المشيب، فشاب الرجل في مدى ساعة واحدة. فاشرأبّتْ الأعناق، وتطلعتْ النفوس، وشُحذَ الشُّعُور، ومرّت بأهل القاعة فترةٌ من الحيرة، وحُقَّ لهم أنْ يحاروا، فقد سمعوا صرخة نفس ثائرة، ورأوا أمامهم رجلًا هادئ الطبع ساكن الجأش، فلم يقع في نفوسهم أنّ هذا الواقفَ المتمكنَ من نفسه هو صاحِبُ تلك الصخرة المُرَوّعَة.

ولم يكن أَجَلُ حيرتهم طويلًا، فقد اتّجه الرجل إلى الشهود وناداهم بأسمائهم وصاح بهم: أتنكرون هذا الوجه؟

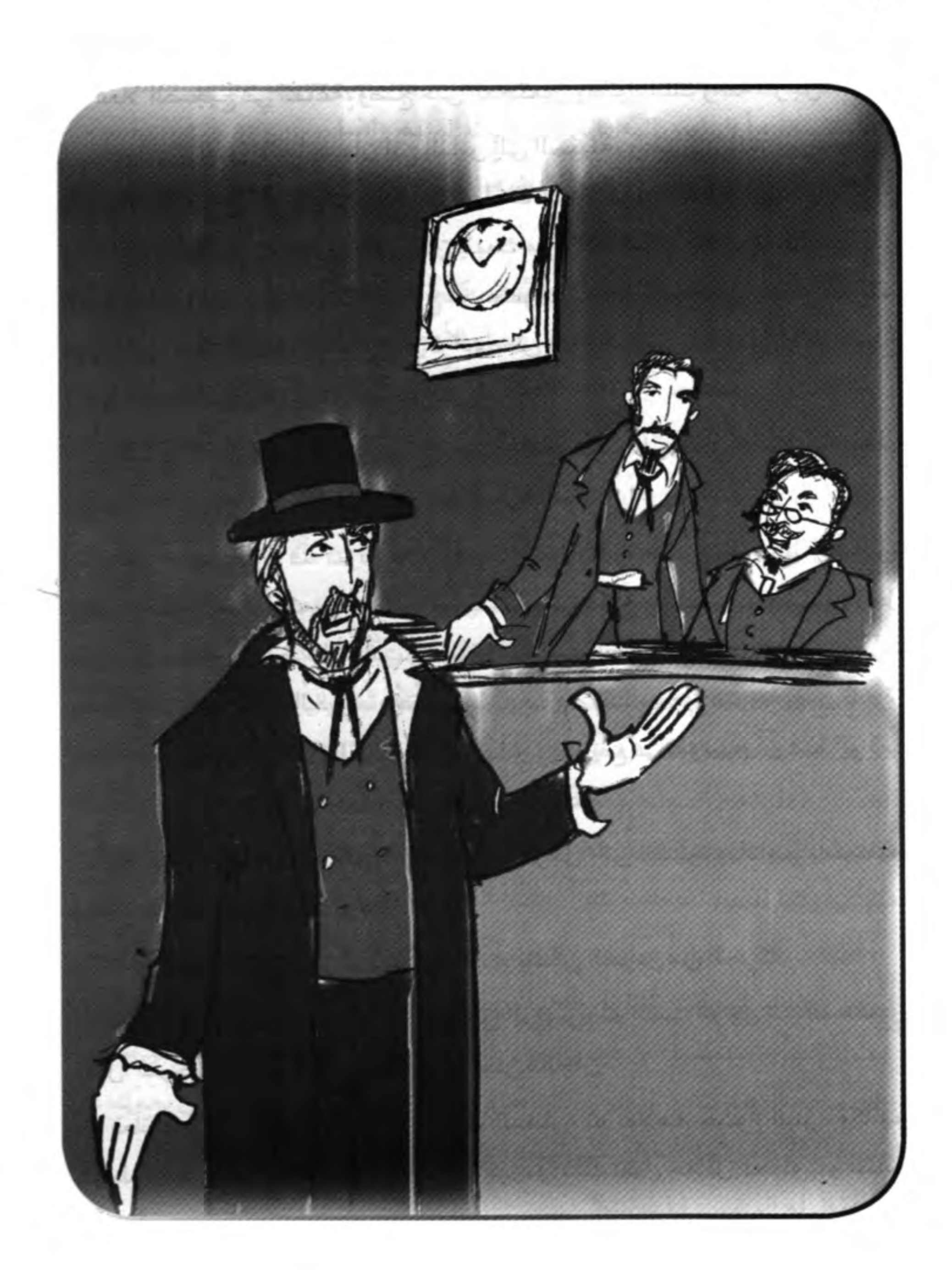
فعل ذلك قبل أن يَنْبِس الرئيس بكلمة، أو يتمكن الحرس من الحركة.

فَبُهِتَ الذين شهدوا وأنكروا بإيماءَة من الرؤوس، ثم التفتَ الرجل إلى المحكمين وقال: سَرِّحوا هذا المتهم وخذوني فأنا «جان فالجان».

فعُلّقَتْ الأنفسُ وأخذت القومَ رجفاتُ الدَّهشِ، ثم عَلَاهم خشوعُ البلى، وكأنّهم عوجلوا بقارعة سماويّة، فملكهم الفزعُ الأكبر، وكذلك تفعل جلائلُ الخطوب وعظائمُ الأمور!

---

(1) أي في لون الرماد.



وانتشرت على وجه الرئيس طبقةٌ من العَطْف والحُزْنِ معًا، فرمى المدعي بنظرة عَجْلَي، وهَمسَ في آذان الجالسين معه للقضاء، ثم رفع رأسه يخاطب الجمهور: أبغوني طبيبًا - وقال المدعي: هذا السيد «مادلين» قد نزل به ما نزل وإنّا لنَجِدُ[1] له وَجْدًا شديدًا، ونعلم أنه نبيل القدر زكيّ المشاعر، فإذا رأى الرئيسُ أن يأمر بحمله إلى داره. فابتدر «مادلين» الكلامَ وقاطع المدعي بصوت يمازجه السلطان، ونَطَقَ بكلمات نُثْبِتُهَا هنا ولا نَخْرِم منها حرفًا، فقد وعاها أحد من شهدوا الحادث ودوَّنها على أثر انطوائه، وقد مَرَّ بها أربعون عامًا وهي لا تزال في آذان من بقي حيًّا من أولئك الشاهدين:

أشكر لك أيها المدّعي فما أنا بمجنون كما تزعمون، إنكم على وَشْك أن تَضلُّوا، فسرِّحُوا هذا المتهم وخذوني فأنا المجرم الذي تَنْشدون. وليسَ هنا سواي من ينظرُ بغير غِطاء، فهاكم الحقيقةَ خالصةً غيرَ مشوبة. إني وقفتُ هذا الموقف لذات الله العليّ وهو حسبي فخذوني، فقد طبت بذلك نفسًا.

إني أردتُ الحسنى فتنكَّرت، حتى أثريت وأصبحت شيخًا «لمنتراي سيرمير» وألقيتُ بنفسي بين الأخيار فلم يفسح لي الحظُّ بينهمُ مكانًا، فجئت وفي النفس أشياءُ لا يسعني سَرْدُها، فلا أُثقلُ عليكم ببسط ما صنعت في أيام توبتي فإن الغد ببسطه كفيل! إنّي سرقتُ مولاي العابدَ، وسطوتُ على ذلك الغلام الصغير فحقّ لهم أن يَصِمُوا «جان فالجان» بأنه فاتك أثيم، وما كان له الْخِطْءُ[2] كلُّه وإن كان من الخاطئين - وليس لحقير مثلي أن يعترض على العناية أو يُنَصِّبَ نفسهُ لمناصحة الناس، ولا أكذب الله، فإنَّ العارَ الذي عالجت نضحه عن نفسي كانَ أمرًا إدًّا. ولا يفوتنّكم في هذا الموطن أن السجن قد كان لي شرَّ أستاذ فهو يُخبِّثُ النفس، ويمزِّق شمل الفضيلة، ولقد صدق من قال: إن السجون تَخْلُقُ الأشرار.

فلقد كنتُ قبله فلّاحًا فَدْمًا[3] فأطْلَعَ مني السجنُ شريرًا، وكنت عودًا من الحطب

---

(1) أي نحزن.
(2) أي الذنب.
(3) الفدم الساذج.

فصيرني شُعْلَةً، ثم رَدَّتْ إليَّ الرحمةُ ما سلبَتْنِيه القسوةُ فنجوتُ بنفسي ولكن بعد الفوت، فإذا دقّ عن أفهامكم ما ألقيه الساعةَ عليكم، فهناك في رَمَادِ المدْفَأة تجدون القطعة الفضية التي سلبتها من ذلك الغلام.

«وإليك أيها المدعي أسوقُ الكلام، إني ليَعْرِضُ لي أنك غيرُ مصدِّقي، وأقرأُ ذلك في حركات رأسك، فأناشدُك الله ألا تأخذ هذا المتهم، الويلُ لي، أليْس هنا من يعرفني؟ إني ليحزنني غيابُ «جافير» ولو كان حاضرًا لوضح الحق»!

ليْس في طوق كاتب أن يصوّر ما كان في كلمات هذا الرجل من نبرات الكآبة ورنّات الأسى التي كانت تَصْحبها عَبْقَةٌ من الحسنى.

ثم انفتل إلى الشهود الثلاثة وقال: «بريفيه» ألا تزال تنكرني؟

فاعترتْ «بريفيه» الرّعْدةُ وجعل يُصَعّدُ فيه بصره ويُصَوّبهُ، ومرَّ الرجل في كلامه فقال: وأنت «ياشانيلديوه» ألستَ كنتَ تُدعَى في السجن بـ«أنكر الله»؟ ولي فيك آيةٌ.

حَرْقٌ بكتفك اليمنى، حاولتَ أن تمحوَ به الثلاثة أحرف التي وُسِمْتَ بها فلم يُغْنِ ذلك عنك شيئًا وثبتت الأحرف في مكانها، أرأيتك؟ ألم أقل حقًا؟

قال: بلى.

ثم تحوّل ذلك المسكين إلى القضاة والحضور وعلى فمه بسمةٌ ما ذكرها رائيها إلَّا وَجَد لها غمزًا على قلبه، بسمة قد جمعت بين حلاوة الظَّفَر ومرارة القُنُوط.

فذَهبَ بأهل القاعة وحالوا إلى عيون تنظر، وأفئدة تخفقُ، فلم تَعُدْ ترى فيها قضاةً ولا مدعين، ولا تلمح أشراطًا ولا مدافعين، وقد أُنْسِيَ كلٌّ غرضَه: " نَسِيَ الرئيس أنه جاء للرياسة، والمدعي أنه قام للاتهام، والمحامي أنه مثَل للدّفع، والحرسُ أنهم أقيموا للحراسة، فلم ينبِس خَلْقٌ بكلمة، ولم يفزَع ذو سلطانٍ إلى سلطانه!

ولا عجب فإن للمشاهد السامية خواصَّ تملكُ عَلَى رأيها المشاعرَ وتُحيلُ شُهودها إلى نَظّارة[1] يَخرجُ بهم فرطُ ما هم فيه عن حَدّ الشعور، فلا يكادون يتساءلون حتى

---

(1) المتفرجون.

في أنفسهم عن مأتى ذلك اللألاء الذي يذهب سناهُ بأبصارهم، فهم في داخلهم مأخوذون بروائع ما يشاهدون في خارجهم.

وضَحَ الصبحُ، وتكَشفت ظلمةُ الشّك عن «جان فلجان» فأنار ظهُوره السبيلَ، وكشف عن ذلك الحادث، وأدرك ذلك الحفْلُ الحاشد ما كان من حقيقة الأمر، أدركه بأسرعَ من خطفة البارق أو نبضة الكهربَاءَ. رَجُلٌ يفتدي بنفسه رجلًا آخر، لله ما أنبَلَ هذه النفسَ.

ثم قال الرجل: إنني لا أريد أن أُطيلَ عليكم أمَدَ ما أنتم فيه، فقد عَزَمتُ على الذّهاب لأنهم يأبون أن يأخذوني، وعندي ما يدعوني إلى الرجوع، والمدعي العامُّ يعرف من أنا، ويعرف أين يجدني متى حَلَا له ذلك.

قال ذلك وغَبَر يمشي إلى الباب بقدم مطمئنة، فما رُفِعَ صوتٌ ولا امتدت ذرَاعٌ لسدّ سبيله، مشى وقد حَلّ فيه خفيٌّ من العناية ما حَلّ في إنسان إلا تراجعت أمامه الصفوف واصطف الوقوف.

فلما بلغ الباب وجده مفتوحًا، فالتفت إلى المدعي وقال: أنا رهن أمرك. وعطَفَ قائلًا: أيها الحضور، ألا تَرَوْنَ أني جدير بالرحمة، ولعلي كلما فكّرتُ في أني كنت على وشْكِ القيام بهذا الصنيع وجَدْتُني حقيقًا بالغبطة.

ثم خرج فَصُفِقَ[1] البابُ كما فُتِحَ، ولا يعدم صاحب العمل الجليل أن يجد له في المجتمع نصيرًا. وعاد القوم بعد فترة إلى أنفسهم، فأمر المحكّمون بتسريح «جان ماتيو» فخرج وهو يقول في نفسه: ما أشَدّ جنونَ هذا الناس، فأنا لا أكاد أفقَهُ شيئًا من جميع ما مَرَّ بي في هذا الحادث.



(1) صفق الباب أي رده.

عَوْدٌ إلى فانتين

تنفّسَ الصبحُ فنامت «فانتين»، وكانت قد سهرت اللّيل كله، ولَزِمتْها الحمّى فحمةَ ذلك الليل، وكانت تلمح من خلال آلامها صُورًا من وجوه السعادة بقربها طفلتها- فانتهزت الراهبة نُهْزَةَ نومها، وكانت قد ساهرتها وخرجت تُهيئ لها جُرْعة من الكِينا[1]. وبينا هي عاكفة على عقاقيرها وقواريرها وقد ألقى الشفقُ على الأرض ضبابًا يُقَصّرُ فيها قابُ العين، وإذا بها قد التفتت التفاتة أوشكت معها أن تصيح.

رأت «مادلين» وهو منها أدنى شيء، فصاحت: أسيدي الشيخَ أرى.

فقال: نعم، وكيف حال المريضة؟ قالت: ليس بها الساعة من بأس، وقد كنا نتوقع لها بالأَمس شرًّا، ثم أعلمتهُ علمهَا وقالت: ولولا أنَّ فكرةً رفّهت عنها لما طلَعَ عليها هذا الصباحُ، فقد حَملَتْ غيابَك على الذّهاب لتفقُّد طفلتها. ولم تَجْرؤ الراهبة على سؤاله أين كَان؟ ولكنّها لم يغب عنها أن ملامَحهُ لم تكن تنطق بأنه قادمٌ من ذلك الوجه.

فقال لها: أحسنت في تركها على زعمها، فقالت: وما عسى أن تقول لها إذا رأتك وحيدًا؟ قال: إن الله يُلهمنا الجواب.

وكان الصبحُ قد وضح نوره، فرأت الراهبة في «مادلين» ما راعها - رأت شعرَه الأرمد قد حال كلّه إلى شعر أبيض، فصاحت به أيُّ خطبٍ نزل بك فشَّيبَك.

ثم وافته بمرآة صغيرة كان الأطباء يستخدمونها في التحقق من الموت، يضعونها على فم المريض فتُكَدّرها أنفاسُه إن كَان لا يزال حيًّا، فأخذها مادلين ونظر فيها نظرة، وقال: حسن.

---

(1) نوع من الخمر.



فجمدت الراهبة في مكانها، وعطف «مادلين» قائلًا: أليس من الميسور أن أراها الساعة؟ فقالت: إنك لم تأت بطفلتها فخيرٌ لها ألّا تعلمَ بقدومك، ومتى جئتَ بها عَلمَتْ من نفسها بأن غيابك إنما كان لذلك، فتنجو المريضة من آلامها، وننجو نحن من نسْج الكذب.

فلبثَ غير بعيد ثم قال بلهجة الجادّ الساكن: أريد أن أراها الساعة فربما كنتُ عَجِلًا - فلم تفطن الراهبة لما كان في كلمة «ربما» من المعنى الغامض الغريب، فغَضّت من بصرها وقالت محتشمةً: ليدخل سيدي وليعلم أنها نائمة.

فتقدم إلى[1] الخادم بإصلاح باب لم يكن مطمئنًا في مكانه، كراهةَ أن تتأذى المريضة بصريره[2].

ثم دخل مخدعها وهو يُخافِتُ من مشيته، ودنا من سريرها، وفرّج عنها الستائر فإذا هي نائمة.

وكان نَفَسُها يَشْخَصُ من صدرها شخوصًا يبعث الأسى وتلك آية ذلك المرض العُضَال التي طالما فجعت نفوسَ الأمهات السواهر على أولادهن الذين أبْرِمَ فيهم حكم الموت.

وكان هذا التنفّس الشاق يكدّر ذلك الصفاء العجيب المنبسط على وجهها - ذلك الصفاء الذي كان يبدّل في نومها من مرأى ذلك الوجه- وكان اصفرارها قد بلغ حدّ البياض، وأمست خدودها قرمزيةً، وكانت أهدابُها الطويلة «وهي البقيّة التي بقيت من جمال البكارة والشباب» لا تزال تختلج فوق ذلك الطرْف الساجي.

وقد اهتزَّ جسمها من فَرْعها إلى قدمها، كأنّ أجنحةً خفيَّةً قد رُكِّبَتْ فيه وأوشكت أن تُنْشَرَ للطيران، حتى ليُخَيَّل للناظر إليها أنه يُحِسُّ تَرْويحها وإن لم تقع عليها عينُه.

فلا يقوم بنفسه أنه يرى مريضة قد يُئِسَ منها، فهي إلى من يُصَوّع[3] للطيران أقرب منها إلى من يَتَهَيَّأ للنزول إلى القبر.

---

(1) تقدم إلى أي أمر.
(2) صوته.
(3) صوع أي تهيأ للطيران.

ألم تَرَ إلى الغصنِ كيف يضطرب كلما امتدت يدٌ لقطف زهره، ألا يلوح لك أن ذلك الغصن كأنه يجود بنفسه وكأنه يختلسها في آن، فهو يُعطي ويمنع في وقت معًا.

كذلك الجسمُ البشري فقد تنتابه تلك الهزّاتُ حين تحينُ الساعة التي تمتد فيها يدُ الموت الخفيّة لاقتطاف[1] الروح.

وقفَ مادلين بجانب سريرها وهو كأنه بعضُ الأنصاب، وجعل يتنقّل ببصره بين المريضة والصليب كما كان يفعل منذ شهرين، ليلة زارها للمرة الأولى، وكان المَنْظَرُ واحدًا في جميع وجوههِ إلّا أن شعره في هذه المرة كان قد عمَّه الشيبُ.

دخل وحده ولم تصحبه الراهبة ووقف بجانب سريرها كما ذكرنا وأُصبعه على فمه كأنه يأمر أحدًا بالسكوت، ففتحت المريضةُ عينيها وسألته سؤال العَطيفِ[2] وهي تبتسم «أين كوزيت»؟

قالت ذلك وما أخذها دَهَشٌ ولا استخفها فَرَح فقد كانت هي الفرحُ بعينه، وعجيب أن يفرح الفرح!!

ألقت هذا السؤال «أين كوزيت» وليس في نفْسها ظِلٌّ للشك ولا في خاطرها جَوْلَةٌ للقلق - فألجَم اليقينُ المتجلّى في ذلك السؤال، لسانَ «مادلين» فلم يُحِرْ جوابًا.

ثم مرّت في حديثها! لقد كنتُ عالمة بوجودك رغْم سلطان النوم، وكانت عيناي تتعقبانك أنى سرْتَ- رأيتُ كأنك كنتَ محلقًا في سماء من المجد يُطيفُ بك نورٌ سماويٌّ على أنّي أعاودك السؤال «أين كوزيت» لِمَ لَم تُنِمْها بجانبي حتى إذا ما فتحتُ عيني فتحتُها على تلك الطلعة البهيّة!

فأجابها بكلام لا يرتاحُ له العقل، ثم لم يلبَث أن نَسيهُ على أثر إلقائه.

وأغاثه حضورُ الطبيب الذي ابتدرها عند دخوله بقوله: اهدئي فإن ابنتَكِ هنا.

---

(1) اقتطف مثل قطف وقد أنكرها بعضهم حتى وجدناها في شعر الأعشى في الجاهلية وفي شعر جرير في الإسلام فهي عربية بدوية قال الأعشى:

لما أمالوا إلى النشاب أيديهم ملنا ببيض فظل الهمام يقتطف

(2) العطيف الهينة اللينة من النساء.

فبرقت عيناها بريقًا أضاء وجهها، وضمت يديها ضَمة تمثّلَ فيها أجلى معاني التضرع إلى الله وأحلاها، ثم صاحت إليَّ بها، وكانت تظن أنها لا تزال طفلة تُحْمَلُ - وَهْمٌ من أوهام الأمهات مَبعثُه العطفُ والحنان.

قال الطبيب: لم يَحُنْ الوقت فإنك لا تزالين في بقايا علّتك، ولا آمَنُ عليك صدمة اللقاء، فمتى أبْلَلْتِ[1] جئناك بها، فقاطعته بحماسة لقد شُفيتُ، وأعيد عليك القول أني شُفيتُ، فيالله ما أحمقَ هذا الطبيب فإنه يريد أن يحولَ بيني وبين ابنتي!

فقال الطبيب: أرَأيْتِ كيف غَلَبَ عليك الغضبُ وما دام هذا شأنك فلاسبيلَ إلى رؤيتها أو تملكي صوابَك.

فطأطأت رأسها وقالت وفي صوتها رنة من الأسف: إنها حمقةٌ أرجو أن تغتفرها لي، ولا تُنْزل أمري على الجُرأة عليك فتأخذني بما سبق به لساني، فلقد خرجَ بي ما أنا فيه عن حدّ الرشد، فإن كنت تخشى عليّ مَغَبَّةَ اللقاء فأنا صادعةٌ بأمرك، صابرة مع الرضى، مرتقبةٌ ذلك الوقت الذي يؤذن لي فيه برؤيتها.

على أن رؤية ابنتي لن تحدثَ في نفسي ما تتوقعُ أنت حدوثه، وغايتي أن أحدثها الساعة بعضَ الحديث، لقد رأيتُ الليلةَ صُورًا بيضاء ولمحتُ أناسًا يبتسمِون لي، وها أنا ذا أستشعر العافيةَ وأحمدُ الله فقد مسح ما بي من الألم.

ولكن سألبثُ مكاني كأني مريضة إمضاءً لأمرك وإرضاء لهؤلاء الأخوات المقيمات هنا، حتى إذا آنسوا مني السكينة وتيقّنوا من إبلالي جاءوني بابنتي.

جلس «مادلين» على كُرسيّ بجانب السرير فحوّلت وجهها إليه وهي تغالب كَيْدَ الألم ويغالبُها لتظهرَ بمظهر السكينة وتدعو القوم إلى تذليل المصاعب التي يقيمونها في طريقها لرؤية طفلتها.

ولكنها على تجلّدها لم تَقْوَ على الإمساك عن سؤال مادلين فألقت عليه ألفَ سؤال وسؤال.

لعلها سَفرة ميمونة.

---

(1) عادت إليك عافيتك.

لله ما أنبلَ نفسك فقد أنقذت طفلتي.

خبرني بربك أكانت جَلْدَة[1] على المسير.

أتُرَاها تُنكرني عند اللقاء فقد طال عهدها بي.

إن الأطفال كالأطيار لا يكادون يَذْكُرون في يومهم ما رأوه بالأَمس.

ترى كيف كان لباسها وغذاؤها في ذلك النزل؟

لقد كانت تؤلمني ذكرى ذلك في أيام بؤسي أما اليوم فقد أصبحت بفضل حَدَبك[2] عليها قريرةَ العين رَخيّة البال.

ألا يتسنّى لي أن أراها الساعة؟

ألا ترى أنها جميلة؟

ألا تأذن لي برؤيتها؟ وإن لم تفعل فمن ذا الذي يأذن لي سواك؟!

فأخذ «مادلين» يدَها بين يديه وقال لها: إن «كوزيت» مثالٌ للصحة والجمال وسترينَها بعد قليل فاهدئي واستري ذراعيك بغطائك عسى أن تخفَّ وطأةُ السُّعال.

وكَان سعالها يَزْحَم دُفَّاعُه في حَلْقها كلَّ كلمة من كلماتهَا.

فلم تُبْد «فانتين» شيئًا من التململ خشيةَ أن تُزلْزلَ كلُّ آهة من آهاتها تلك الثقةَ التي تُحاول بَثَّها في نفوسهم، فجعلت تَفُوه بأقوال لا تَنُمُّ على الألم.

كل ذلك ومادلين مُمسكٌ بيدها، ونفسهُ تكاد تسيل جزعًا.

خرجَ الطبيبُ وبقيت الراهبةُ في مكانها، وقد خيّم عليهم السكوتُ فمزّقته «فانتين» بصيحة - إني أسمعها - إني أسمعها - ثم بسطت ذراعها تأمرهم بالإصغاء وعلّقت أنفاسها وجعلت تتسمّع.

كان في الفناء ولدٌ يلعب - وَلدُ البَوَّابة أو وَلدُ من شئت من العاملات.

تلك إحدى المصادفات التي مازالَ الإنسان يَجدها في ثنايا الحوادث المحزنة، كأنما هي جزءٌ مما تُهَيئُه يَدُ الغيب من عُدد التمثيل على مسارح تلك الحوادث.

---

(1) قادرة على المشي.

(2) الحدب الحنان.

وكان هذا الولدُ صبيةً تذهبُ وتجيء وتجري دفعًا لغائلة البردْ وتلمّسًا للدفء وهي تضحك وتارة تُغني - وكذلك كان.

وأيّ شيء من الأشياء قد خلا من أن تشوبه شائبة من لَعِبِ الأطفال.

تلك هي الصبيَّةُ التي سمعتها «فانتين» وظنّتها «كوزيت» وصاحت تلك هي بنيتي وذلك هو صوتها.

وانقلبت الصبيَّةُ من حيث أتت وغاب صوتها، فلبثت فانتين فترةً وهي مُلْقية بسمعها، ثم فارق وجهها الإشراقُ وقالت بصوت سمعَهُ «مادلين»: قاتل الله الطبيبَ فقد حال بيني وبينك.

وبعد قليل عاودَها أملها البسَّام، فأنشأت تحدث نفسها ورأسها مطروح على الوسادة.

سَنُصْبحُ من السعداء، ويكون لنا بستان جميل، تمرح فيه «كوزيت» وتجري على الأعشاب تُطارد الفَراش، فإذا شبَّت وبلغت سنّ التناول[1]، ولكن متى تبلغ هذه السنّ؟. ثم جعلت تعُدُّ على أصابعها وتقول: إنها اليوم في السابعة من عمرها، وبعد خمس سنين يكون لها قِناع أبيض، وتبدو في هندام الفتاة.

لله ما أحمقني فإني أفكر في الشيء قبل أوانه ثم أخذت تضحك.

وكان «مادلين» يُصغي إلى تلك الكلمات وكأنه يُصغي إلى هَبَّات النسيم، وقد غَضَّ بصره وغاص فكره في تأملات لا قرارَ لها.

وانقطعت «فانتين» بغتة عن الكلام فنبَّه ذلك مادلين فرفع رأسه فإذا بها في صورة مُروّعة. وكانت لا تتكلم ولا تتنفَّس وقد قامت في سريرها نَصف قَوْمَة، وبرزت كَتِفُها النحيلةُ من قميصها، واصفارّ وجهها، ووقفت بنظرها على مشهد مروّع في الجانب الآخر من المخدع، واتسعت من الرعب حدقاتها.

فصاحَ «مادلين» ويك، ما بك؟ فلم تجب ولم تحوّل بصرها ولكنّها مسَّت ذراعه بإحدى يديها وأشارت إليه بالثانية أن ينظر وراءه فالتفت، فإذا به يرى جافير.

واليك ما مرَّ من الحوادث قبل ذلك:

---

(1) التناول المقدس أول حفل ديني تشهده الفتاة المسيحية لتنصيرها.

خرج «مادلين» من قاعة الجلسة وقد انطوى النصف الأول من الليل، وانقلب إلى النُّزل في الساعة التي تهيأ فيها البريد للسفر، فأخذ مقعَدَه فيه وبلغ «منتراي سيرمير» قبل الصباح. وما هي إلا أن احتوته حتى أوْدَع صندوق البريد كتابًا إلى «لافيد» الصراف، ثم انطلق يعود «فانتين».

ولما غادر قاعة الجلسة في «آراس» وعاد الحضور إلى أنفسهم، وقف المدعي العام وجعل يتوجَّع لمادلين على ما أصابه من ذلك المَسّ، وأصرّ على طلبه وقال: إن هذا الحادث الغريب الذي ستكشفُ الأيام عن سرّه لم يُزَلزل من عقيدته ولم يُغير وَجْهَ التهمةَ المصوَّبة إلى «جان ماتييه»، ولكنَّ أقواله لم تنزل من نفوس السامعين منزلتَها، وسقطت الحُجَّةُ من يده فَتَلقَّفَهَا المحامي واطَّرَدَ له القولُ فقال:

لقد انقلبَ الأمر رأسًا على عَقِب، وأصبح المحكّمون لا يروْن أمامهم إلا رجلًا بريئًا.

وأخذ الرئيس جانب المحامي وانحازّ له المحكّمون فسرّحوا «جان ماتييه».

ولم يكن للمدعي بُدٌّ من أحدِ الرجلين، فطلب القبْضَ على «مادلين» حين أفْلَته «جان ماتتيه» ثم كتب على المكان[1] أمر القبض، وخلا بالرئيس لتوقيعه، فتردّد الرئيس بعَض الشيء، وكان على طِيبة نفسه وحِدَّة ذهنه يتعصَّبُ للملكِية وقد كَان «مادلين» ذكر أمامَهَ يومًا كلمةَ «الإمبراطور» ولم يذكر بجانبها كلمة «بونابرت» فغاظه ذلك وحقدَها عليه، وذكر له لِشوقه تلك السالفةَ فهان عليه توقيعُ الأمر.

وأبردَ المدعي به بريدًا خصيصًا إلى «جافير» «بمنتراي سيرمير» وتقدَّم إليه بالإسراع، وكان البريد فارسًا فذَهب يعدو مُرسَل العِنان. وكان «جافير» قد غادر قاعة الجلسة حي فرغ من شهادته كما قدمنا، وعاد إلى «منتراي سيرمير» واتفق أن هبَّ من نومه ساعة وصلَ البريدُ.

وكان البريد شُرطيًّا من حُذَّاق الشُّرْطَة فأنهى إليه الأمرَ، ووَقَفَهُ بكلمتين على جملة ما مرَّ من الحوادث.

فقام «جافير» إلى إمضاء هذا الأمر ساعة استولى عليه ولو أن أحدًا رآه وهو يَلِجَ

---

(1) أي في الحال.

بابَ الدار التي فيها «فانتين ومادلين» وكان ممن يجهلون بنَاءَةَ هذا الرجل، لما قام بنفسه أن أمرًا خطيرًا قد حُرَكه، ولما تبين من وجهه غير لمحته المألوفة[1] فقد كَان هادئ السعي ساكن النفس باديَ الْجِدّ وهو يَرْقَى الدرج.

ولكن لو رآه في هذه الساعة أحدُ مُلابسيه الواقفين على غريب طباعه، لذُعِرَ من رؤيته. فقد كان زِرُّ بنَيقَته منحرفًا إلى جهة الأذن اليسرى بَدلًا من أن يكون محرَّرًا إلى القفا.

وكانت تلك آية على هياج غريب في نفسه، قد كان الرجل نظاميًا في واجبه ولِباسه الرسمي، فهو لا يترخَّص مع المجرم كائنًا من كان، ولا في إحكام لباسه الرسمي وتَفقُّدِ إزْرَارِهِ من جميع ضواحيه.

فانزعاج الزرِّ من مكانه حادثٌ لا تأذَنُ له بالوقوع إلا فوْرَةٌ في النفس، كانت أشبه الأشياء بالزّلزال في الأرض.

وكان قد اصطحب أربعةً من الجند وكبيرًا لهم، وأمر سائرهم بالتربُّص في الفناء.

ولما سألَ البوَّابة عن مادلين لم تتردَّدَ في أن تَدُل عليه، فقد ألِفَتْ أن يسألها عنه الجنودُ وهم شاكو السلاح.

ولما بلغ مخدع «فانتين» أدار المفتاح ودفع الباب لينًا كأنه ممرضة تحرص على راحة مريضها أو مسترقٌ للسمع.

ثم دخل ولو أحسنَّا القول لقلنا لم يدخل.

فقد وقف في حرَم الباب، وقلنسوته عَلَى رأسه وأزرار لباسه الرسميِّ مطمئنة في عُراها، وقد علّق في أثنائها يده اليسرى وكان رأس عصاه مُطِلًا من خلف مرفقه.

فلبث كذلك دقيقة أو بعض دقيقة ولم يشعر به أحد، واتفق أن رفعت «فانتين» عينيها فلمحته وأنذرت به «مادلين».

وفي اللحظة التي التقى فيها النظران، حال «جافير» وهو جامد في مكانه إلى صورة مفزعة.

---

(1) لمحة الوجه وجمعها ملامح ولا يقال ملمح الوجه ولكن ملمح النظر أي محل سقوطه.

وما من شعور بشريّ في نفس هذا الرجل هو أقدر على التمثّل في صورة الفزع من شعور الفرَح، وقد طغى عليه فقد قلب سحنته إلى سحناء مارد يريد أن ينقضَّ على طريدته.

وكان يقينه من القبض على «جان فالجان» بعد لأي، قد فَضَحَ ما كان كامنًا في نفسه وبَسَطَ على ظاهره ما كان يضطرب في زوايا باطنه.

وأصبحت الغضاضةُ التي كان يجدها في نفسه حين أخطأ ترسّم الأثر ولم يُصب الشاكلة في أمر «جان ماتييه» وقد محاها زهوٌ دخل في نفسه حين علم أن فِراسته لم تخطئ وأن شعوره لم يخُنه في تعقب «جان فالجان».

وتجلَّت في جبهته الكزّة دمامةُ منظره عند ظفره، فكان ذلك أبينَ ما يقرأُ من آيات الشناعة في سحنة بلغت مناها.

وفي هذه الآونة كان «جافير»، وقد رفعه الفَلَكُ وناجاه الملك، لا يشعر بحقيقة موقفه حقَّ الشعور، لكنَّه لم يخلُ من شعور مبهم بنُجحه وضرورة الحاجة إليه.

فقد كان يمثّل في ذات نفسه تلك القوات العُلوية من العدل والحقيقة والنور، وهي تعمل متساندةً على سحق قوّة الشر.

فكان كأنه يُحِسّ أن حواليه مدى لا حدَّ له من السلطان والعقل ونفاذ الرأي والإيمان بإكبار حرمة القانون والقضاء المبرم والقصاص الاجتماعي، وكل ما في ذلك الفَلك من قوّة.

ولا عجب فقد كان يحمي النظام ويستنزل صواعق القانون وينتقم للمجتمع وينفّذُ المشيئة ويُمْضِي القدر وينهض في المجد نهوضًا.

ولم يَخْلُ نصره وإن كان مبينًا من بقية للتحدّي والكفاح.

وقف في أوج السماء مشرقَ الوجه مزهوًّا وقفة جبّار من طواويس الملائكة تجلَت فيه بهيميةٌ[1] دونها بهيميَّة البشر.

(1) لم نقل بهيمة وقلنا بهيمية اتباعًا لأئمة الكُتاب في الفلسفة والأخلاق والأدب كابن جني وابن مسكويه والجاحظ فقد نفرت أذواقهم منها كما نفرت من طبيعة فقالوا بهيمية وطبيعية حتى أن سيبويه رأس النحاة قد قال أن فيهما لغية وأرجو أن تصبح لغة بأذن الله

وما أخذته عينٌ وهو يزاول أعماله المخيفة، إلا أخذها من خلال ظلالها بريقُ سيف الاجتماع، وهو يلمع في قبضته.

وكان يشعر بسعادة في استنكار ما يرى، وقد وطئ بإخمصيه هَامَ الجرائم وقيَّد بعَقبَيْهِ العصيانَ والفساد والشرور، وكان يتفجَّجُ نورًا وهو يستأصل ما يستأصل من الفساد والشر.

وقد تجلَّت في تلك النفس الطاهرة العنصر، البشعة المنظرَ، عظمةً لا يختلف فيها اثنان.

ولم يَعلق بهذا الرجل المخيفِ دَنَسٌ ولا طارت حوله دَنِيَّةٌ.

إن الاستقامة والإخلاص وسلامة الفطرة ومحض اليقين وتمثّل الواجب، كلُّ أولئك الفضائل إذا جار بها صاحبها عن قصد السبيل ترآءت لك في صُوَرٍ منكرة، ولكنّها على نُكْرِها ودمامتها لا تزال كاسية بالعظمة.

فإجلالُ تلك الصفات طبيعية من طبائع النفس البشريَّة إن لكل شيء آفة، وآفةُ الفضيلة، العدولُ بها عن القصد.

للمتعصّبِ في دينه وهو في عنفوان فورته فرحٌ شريف النزعة وإن لم يعرف الرحمة، يلازمه ما أدري أي لألاء لألاء فيه جلال ولكن تمازجه الفجيعة.

وكَانَ «جافيرُ» وقد بلغَ منها، على حال يرثي لها- وكذلك الجاهل إذا فاز - فما كان لعين أن تستريح إلى ذلك الوجه الذي تجلَّى فيه كلُّ ما يمكن أن يكون في طيّبٍ من خبيث.

***

لم تكن «فانتين» قد لمحتْ «جافير» منذ اليوم الذي انتزعها فيه «مادلين» من يديه انتزاعًا، ولم يقو عقلها المضعوف على إدراك شيء. غير أنها لم تَخْلُ من الشك في أمره لغشيانه مخدعها. وكان أكبرُ ظنها أنه إنما أتى يريدها، فخانها العزم، ولم يستطع نظرها القرار على ذلك الوجه المنكر، وأحسَّت الْحَيْنَ، فسترت وجهها بيديها وصاحت بمادلين صيحة اليأس: نجنّي منه، فأجابها بصوت يَقْطُرُ سكينة ورقَّة.

اهدئي أنت فإنه إنما جاء يريدني.

ثم التفت إلى «جافير» وقال له: إني لأعلم ما تريد.

وصاح به «جافير». إذًا فهيا.

نطقَها بوحشيّة زحمت في حلقه مخارجَ الأَحْرف، وطمست على معالمها فخرجت وهي بالزئير أشبه منها بالكلام.

ولم يَجْر «جافير» على الطريقة المألوفة فلم يُفِضْ معه في حديث ولم يعمِد إلى إبراز أمر الاستدعاء.

فقد كان يَعُدُّ «جان فلجان» محاربًا خفيًا يُفْلِتُ كلّ من يطارده.

قامت بينهما حرب تحت أروقة الظلام، فلبث خمس سنين يجالده ويصارعه فلم يَقْو على صرعه، ولم يكن أمر القبض بدءَ ذلك العراك، ولكنه كان الختام - فما زاد على أن قال له: إذا فهيًا.

قالها ولم يَخْطُ خطوة ولكنَّه ألقى عَلَى «جان فلجان» نظرة كالمِحْجَن[1].

تلك النظرة التي اعتاد أن يجذب بها إليه جذبَ العُنف أولئك المنكودين من البائسين.

تلك النظرة التي نفذت إلى نخاع «فانتين» قبل اليوم بشهرين كاملين.

وعند تلك الصيحة فتحت «فانتين» عينيها فرأت «مادلين» بحيث كان، فشَدّ ذلك منها بعْضَ الشيء، ثم أجالت تلك المسكينة نظرًا حائرًا فلم تَرَ في المخدع غير «مادلين» وغير الراهبة، فقام بنفسها أنه لا يريد بتلك الصيحة سواها.

رأت في تلك اللحظة شيئًا غريبًا لم تكن لتراه حتى في عنفوان هذيانها، رأت عينًا[2] من الشرطة يُلبّب[3] شريفًا من سرَوات الناس، والعينُ شامخ الأنف والشريف منكّس الرأس.

فخيّل إليها أن الدنيا قد شمَّرت للزوال.

وكان «جافير» قد أخذ في الحقيقة بتلابيب «جان فلجان» فصرخت «فانتين»: سيدي الشيخ.

---

(1) المحجن آلة يجذب بها الشيء كالخاطوف وغيره. (2) جاسوس.

(3) يأخذ بتلابيبه أو بخناقه أي يجمع ثيابه عند صدره ونحره ويجره منها جرًا.

فضحك «جافير» حتى بدت نواجذه وقال: ليس هنا مَنْ يُنادى بسيدي الشيخ، فلم يعالج «جان فلجان» أن يزحزح عن خناقه يد «جافير»، ولكنّه قال له: جافير، فقاطعه جافير قائلًا:

قل سيدي المفتش.

فقال له: سيدي إن لي معك كلامًا.

فقال له: ارفع به صوتك فكذلك أُكَلَّمُ.

قال: إنه رجاء.

قال له: اجهر بصوتك كما أمرتك.

قال: إنه رجاء يحسن أن لا يسمعه سواك.

ثم داناه وألقى في أُذنه: أرجئني ثلاثًا أبحثْ فيها عن بنيَّة هذه المسكينة وأدفعْ لأصحاب النزل نفقة إيوائها ولك أن تصحبني إذا شئت.

فقال جافير: أراك تمزح وما عهدتك قبل اليوم محمّقًا.

وسقطت تلك الكلمات إلى أذن «فانتين» فاضطربت في سريرها وصاحت: ويلاه أليست بنيّتي هنا كما يزعمون؟ ثم صاحتْ أيتها الأخت أين بنيّتي، وأنت أيها السيد مادلين؟

فضرب جافير برجله وصاح بها، إياك أن تنبسي أيتها الشقيَّة.

أراني اليوم في بلد يُنادى فيه المجرم بألقاب التسويد، وتُكرَم فيه البغيُّ كأنَّها من فُضْلَيات الحرائر.

ثم نظر إلى «فانتين»، ويدهُ تزيد في تضييق الخناق عَلى «جان فالجان» وقال لها: ألم أقل لك إن ليس هنا شيخ ولا سيّد وإنما هنا لصّ مجرم وفاتكٌ أثيم يدعى جان فالجان؟

فاستوت «فانتين» في سريرها وتنقَّلت بنظرها من «جان فالجان»، إلى الراهبة، إلى «جافير»، ثم فتحت فاها تُريغ الكلام فلم يَرم حَلْقُهَا بغير الشخير، ثم اصطكت أسنانا وانبسط ذراعها كأنها غريق يبحث عنَ شيء حوله، ثم هوتْ

على الوسادة فصدم رأسها سنادُ الوساد - وأسلمت على أثر تلك الصدمة الروح.

فوضع «جان فالجان» يده عَلى يد «جافير» وهي ممسكة بطوقه وبسط قبضتها، وكأنها يد طفل ثم قال له: لك الويل، لقد قتلتها.

فصاح به «جافير» دع عنك هذا فما جئنا لنسمع ذلك المنطق، فإن لم تنطلق معي فليس إلا القيد، وإلا دعوةُ الجند.



وكان في احدى زوايا المخدع سرير عتيق من الحديد تستريح إليه الراهبات في السهر، فاندفع إليه جان فالجان وانتزع في أقل من رجع البصر سناد الوساد رغم رسوخه في مكانه، وأي شيء يتعصّى على تلك الساعد، ثم اتخذ منه جُنَّة وسلاحًا ولوّح به في وجه «جافير»، فتراجع مذعورًا إلى الباب.

ثم مشى به مشية المطئمن إلى سرير «فانتين» ولما بلغه التفت إلى «جافير» وقال له: أنصح لك ألا تدانيني.

فأوجس «جافير» خيفة، وبدا له أن يذهب لدعوة الجند لكنَّه خشى أن يجد «جان فالجان» نُهْزَةً للفرار فأسند ظهره إلى عُضَادة الباب، ونظرُه مصوَّب إلى غريمه.

فارتفق «جان فالجان» على قمة السناد وجعل يتأمل «فانتين» وهي هامدة، ولبث غارقًا في تأملاته، وما كان لِيُفَكِّرَ في شيء من أشياء هذه الحياة، غير أنك كنت تقرأ في معارف وجهه أبلغ آيات الرحمة.

ثم انحنى فوقها وجعل يسارُّها- تُرى أي كلام كان يلقيه عليها؟ وما عسى أن يقول ذلك الرجل المُمْتَحَنُ لتلك المرأة الميّتة؟

لم يَقَعْ ما قال في أُذنِ الحيّ فهل وقع في أذن الميت؟!

وما يدريك لعل في الأوهام المؤثرة شيئًا من الحقائق السامية.

روتِ الراهبةُ، «سامبليس»، تلكَ التي شهدت وحدها ذلك المشهد ولا مغمز في ما تروى - أنها قد رأت رأي العين أثناء تلك المسارَّة بسمة قد خَطَفَت على فم الميت وبريقًا قد لمعَ في تلك الأحداق، التي غمرتها دهشة أهل القبور.

ثم أخذ في يديه رأس «فانتين» ووضعه برفق على الوسادة كما تضع الأم رأس طفلها وأغمض بعد ذلك عينيها، وقد علا وجهها إشراقٌ سماويّ - والموتُ انتقال من عالم الظلمة إلى عالم النور.

ولما فرغَ من شأنها ركع أمام سَريرها وتناولَ يدها، فقبَّلها ثم التفَت إلى «جافير» وقال له:: دونك وما تريد!

سيق «مادلين» إلى سجن المدينة، وفشا نبأُ اعتقاله في أنحائها، فأقام الناسَ وأقعدهم، ومشى بعضهم إلى بعض يتساءلون، وانحازوا عنه حين علموا أنه مجرم عتيق، ولم يَنْشَبُوا أن نَسُوا حتى عوارفَه، وقطعوا بإجرامه قبل أن يقع إليهم تفصيل ذلك الحادث «بآراس».

فمضى النهارُ وما تكاد تسمع في مناحي المدينة إلا هذا اللغط.

ألا تدري؟ - أنه مجرم سُرِّح بعد العقاب - من هو؟ - شيخ البلد - ويحك ما تقول؟ السيد مادلين! - نعم - لا تقل هذا - إنه لم يكن يدعى مادلين - إن له اسمًا آخر، لله ما أشنعه، لقد كان يدعى ما أدري «بيجان»! «جووان»!

وهل اعتقل؟

نعم.

أفي السجن؟

في سجن المدينة ويُتوقع نقله وإشخاصه إلى دار المحكمة ليسأل عن سرقة قد ركبها على الطريق المعُبَّد في عهده الأول.

إني لا أسكن إلى هذا النبأ، فقد كان الرجل طيبًا كاملًا وكان من الزاهدين، ألم تر كيف تأبَّى على وسام الشرف يوم أنعم به عليه، ألم تقع عليه عينك وهو يوالي إسداء الحسنات؟ فما سأله سائل إلا أعطاه، ولا مرَّ بمُعدم إلا نفحه ولا بمحزون إلا واساه.

لقد كنتُ ألمح من وراء تلك الأعمال ماضيًا غير محمود.

وقالت عجوز من المشتركين[1] في «علم[2] السلام»: لم يُثِرْ هذا النبأ في نفسي حزنًا على ذلك الرجل- إن في هذا لبلاغًا لأولئك «البونابرتيين[3]».

وهكذا قد انمحى بين عشية وضحاها شبحُ «مادلين» من الأذهان ولم يبق على عهده في المدينة كلها إلا ثلاثةٌ أو أربعة منهم بوّابته القديمة.

(1) قلنا من المشتركين ولم تقل من المشتركات اتباعًا للأفصح قال الله تعالى: «وكانت من القانتين».
(2) «علم السلام» جريدة يومية كانت تظهر في ذلك العهد.
(3) نسبة إلى بونابرت «نابليون».

وكانت قد دخلتْ عند دخول الليل غرفتها وقبعت فيها كاسفة البال تفكّر فيما نزل بذلك الرجل الكريم.

وقد أُقفل المصنع على أثر ذلك الحادث وأقفر طريقه، ولم يبق في الدار غير الراهبة «بربيتي» وأختها «سامبليس» كانتا تتناوبان السهر على تلك الميتة.

وعند الساعة التي اعتاد فيها «مادلين» العودة إلى داره قامت البوابة وأخرجت من دَرْج لها مفتاح باب مخدعه وعلّقته في مسمار مرشوق بالحائط ونصبت الشمعدان في مكانه المعهود، كما كانت تفعل في كل مساء، ثم أخذت في التفكير.

فعلت كل ذلك بدافع العادة لا بدافع الإرادة.

ومرَّ بها ساعتان وهي على تلك الحال ثم عادت إلى نفسها ولم تنشب أن صاحت. إلهي من ذا الذي علّق هنا هذا المفتاح.

ووقع في نفس هذه اللحظة أن فُتح زجاج النافذة. وامتدت يدٌ من فرجته فالتقطت المفتاح وأنارت الشمعدان.

فرفعت عينيها وهي مفتوحة الفم وقد وقفت في حلقها صيحةٌ.

إنها تعرف تلك اليد، ولا تنكر تلك الذراع، ولم يكن كمُّ ذلك الرداء عنها بالغريب.

إنه السيد «مادلين» - فمرَّ بها بضع ثوان وهي معقودة اللسان «كما حكت عن نفسها» وهي تروي ذلك الحادث - ثم انحلت عقدته فصاحت: سيدي الشيخ لقد ظننتك... ثم أمسكت عن الكلام كراهةَ أن يبدر منها ما يكون فيه تحقير لذلك الرجل الذي كان لا يزال عظيمًا في نفسها.

فأسرع مادلين وأتم لها جملتها فقال: - في السجن.

نعم كنتُ فيه فكسرت إحدى عوارض النافذة وهبطتُ من على سطح هناك، وها أنذا كما ترين أعود إلى مخدعي، فاذهبي أنت إلى الراهبة «سامبليس» وقولي لها: إني في حاجة إليها.

فانطلقت العجوز تعدو، ولم يوصها بشيء، فقد كان يعلم أنها عليه أحرص منه على نفسه.

ولا يعلم خلقٌ كيف خَلَصَ هذا الرجل إلى ذلك الفناء وهو لم يُعْمِل في الباب الكبير مفتاحًا.

لقد كان يكون معه المفتاحُ «القلَّابة[1]» الذي يستخدم لفتح أبواب الجوانب، لكن من الحتم أن يُفتش السجين عند دخوله في السجن ويُنزع منه ما يحمل من أداة، فهل عَمِيَ الموكلون بسجنه عن ذلك المفتاح - لقد لبث هذا الأمر غامضًا؟

صعدَ في الدرج إلى مخدعه ثم ترك الشمعدان على الدرجة العليا، وفتح باب المخدع بلا تحرُّج فصَرَّ الباب صريرًا ولكنه لم يباله، وولج في الظلام.

وجعل يتقرَّى بيديه ويلتمَّس النافذة حتى أصابها فأغلقها وأحكم إغلاقها، ثم عاد فحمل الشمعدان وأنار المخدع وكان من الحزم أن يأخذ بتلك الحيطة فقد كانت النافذة مُطلة على الطريق.

ثم ألقى نظرة عَجْلى على ما في ذلك المخدع من متاع فكان على غاية من النظام، ولم يبق فيه ما يدل على أثر تلك الليلة غيرُ قطعة الغلام وقد اسودَّت من النار وغيرُ بقايا عصاه.

فأخذ بيضاء خطّ فيها هذه الكلمات:

هاكُم بقية عصاي، وقطعة الغلام الفضية التي ذكرتها أمام المحكمة.

ثم لفّهما في تلك الوريقة ووضعها بحيث تأخذها عين الداخل.

ولفّ بقايا الشمعدانين في خرْقة وجعل يحزمها وهو أهدأ ما يكون نفسًا، وكان يمضغ كسرة من الخبز الأسود ولعله حملها معه حين فرَّ من السجن، وقد وجد منها فُتَاةٌ على بلاط المخدع، وجَدَهُ المحققون حين حضروا لمعاينة داره بعد اختفائه.

طُرق عليه البابُ، فأُذن للطارق، فدخلت الراهبة«سامبليس» وهي صفراء اللون محمرَّة الحدق.

ولا يسلم المرء وإن كان جلْدًا صبورًا من أن يتسرب إليه الوهَنُ أمام بأْس الأقضية والمقادير. وكانت حوادث ذلك اليوم المشهود قد ردَّت الراهبة إلى طبعها من الضعف والخور فجزعت وبكت، وكذلك تبكي النساء.

فمدَّ لها «جان فالجان» يده بورقة وقال لها: أيتها الأخت أرجو أن تحملي هذه

---

(1) **القلابة كلمة عامية يعبرون بها عن المفتاح الصغير الذي يفتح جميع الأبوا ب واخترت هذه الكلمة لانطباقها على المعنى المراد. لكلمة قلابة تفيد أنها تقلب ألسنة جميع الأقفال.**

الورقة إلى القَسّ، وكانت الورقة مطوية، فألقت عليها الراهبة نظرة، فقال لها: لك أن تقرئي ما فيها.

فقرأت - أرجو سيدي القَسّ أن يقوم على ما خلَّفته هنا من المال، وأن يُنفق على دفن المرأة التي قضت في هذا اليوم، وأن يرصُد ما تبقّى للفقراء والمساكين.

حاولت الراهبة أن تنطق فخانها النطق ثم تمكنت بعد الْجَهْد من أن تقول:

ألا يريدُ سيدي الشيخ أن يتزوَّد من تلك البائسة بنظرة الوداع.

فأجاب «مادلين» إنهم على أثري وربما أدركوني هناك فعكروا عليها صفو نومها الأبديّ!

وما هو إلا أن قالها حتى سمعوا ضجة ووقع أقدام على الدّرج.

وسرى إليهم صوت البوَّابة وهي تقول:

أقسم بالله أن أحدًا لم يدخل، وأنني لم أرِمْ مكاني من الباب بياضَ النهار وسوادَ الليل - وسمعوا صوت رجل يقول: وما هذا النور بالمخدع، فعرفوا منه صوت «جافير».



وكان باب المخدع يوارَى عند فتحه الزاويةَ اليمنى من ذلك المكان فأطفأ «جان فالجان» شمعته واختبأ في تلك الزاوية.

وسقطت الراهبة على ركبتيها بجوار المنضدة- وفُتِحَ الباب وظهر «جافير» على العتبة- وجعلت الراهبة تصلي وكانت قد نصبت

شمعتها على المدفأة، فلمح «جافير» على ضوئها الضئيل تلك المصليَّة، فَسمُرَ في مكانه.

و«جافير» كما تعهد، بما بُني عليه طبعُه وبما كَسَبَهُ من البيئة التي يعيش فيها والمضطرب الذي يتقلَّب فيه، كان على جانب عظيم من إكبار السلطة في شتّى مظاهرها، فهو يُعَظِمُ سلطان الدين كما يعظم سلطان القوانين، ويُنْزِل الراهب منزلة المعصوم من الخطأ والراهبة منزلة المعصوم من الخطيئة.

تلك أرواح مُسَوَّرَةٌ في هذه الدنيا بسور له باب واحد، لا يفتح إلا لتَخْرُجَ منه كلمة حقّ.

ولما لمح «جافير» الرهبة همَّ عند الوهْلَة الأولى بالانصراف، ثم ذكر واجبَ مهنته فوقف وتجاسر على سؤالها وهو يعلم أنها امرأةُ صِدْقٍ، ومكانُها من نفسه مكانُها.

أيتها الأخت:

هل أنت وحدك في هذا المخدع؟

فرفعت عينها وقالت:

نعم.

فقال جافير:

أعذريني على هذا الإلحاح.

ألَمْ ترَىْ رجلًا في هذه الليلة فإني أتَعقَّب مجرمًا يدعى «جان فالجان» قد فرَّ من السجن؟

قالت:

لا.

فانحنى «جافير» وسلم وعاد من حيث أتى وهو بها أوثق ما يكون.

كذبت الراهبة ثم كذبت:

كذبت مرتين على التعاقب.

إيه أيتها العذراء الطاهرة. إنك لم تكوني من أبناء دنيانا.

وقد مرَّ بك سنون وأنت تلابسين الطواهر من أخواتك العذارى، والأطهار من إخوتك الملائك، ولسوف تُسألين عما جرى على لسانك من الكذب ولكن في دار النعيم.

وبعد هذا الحادث بساعة أو شَيْعها[1] رُؤِىَ غير رجل يُهرول بين الشجر وقد ركب طريق باريس ولم يكن «جان فالجان».



(1) قريبًا منها.

وقد ارتدى رداء عامل ولم ندر من أين أتى به، ولعلّه رداء العامل الذي مات في المصنع منذ أيام، وقد آن أن نُشيّعَ «فانتين» بكلمة.

إن لنا أُمًّا واحدة.

هي الأرض.

وقد رجعوا «فانتين» إلى أمها.

وقال القَسُّ:

ليس من البِرّ أن أنفق من مال هذا المجرم على دفن تلك البغيّ، ولكنَّ البرَّ أن أرصُده للنفقة على الفقراء والمساكين، ثم تجوّز[1] في دفن تلك البائسة وألقى بها في مقابر الصدقة، فاختلطت عظامها بذلك الرفات: رفات من سبقها ومن يلحقها من الأموات.

وغابت في غياهب تلك الحفرة التي لم تكن لأحد وهي لكل أحد.

وذهَبتْ روحها إلى مقرّها ومستودعها، وسبحان من يعلم وحده أين ذلك المستقر.

وهكذا أنيمتْ «فانتين» في ظلمة تلك الحفرة وانطوت في رَماد تلك الأمشاج، فكان لحدها أشبه شيء بسريرها.



(1) تساهل.

فهرس



البؤساء

بتأليف

فيكتور هيجو

تعريب شاعر النيل

حافظ إبراهيم

ISBN 978-977-447-090-5

6222008913692